بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة أم درمان الإسلامية
كلية الدراسات العليا
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات الأدبية والنقدية

شِعرُ الحَمَاسَةِ في عصرِ الدولةِ الزِّنْكية

٥٢١هـ - ٥٦٩هـ

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب والنقد

إعداد الطالب:
عبدالحميد عبد الوهاب محمد

إشراف الدكتور:
عبد الرحمن عطا المنان محمد

العام الجامعي

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

تلخيص الرسالة

الحمد لله الذي علم بالقلم ،علم الإنسان ما لم يعلم ،والصلاة والسلام على أفضل الرسل وخاتمهم محمد بن عبد الله ﷺ ،سمع الشعر فأُعجب بالحسن منه،واستخدم الأدب شعراًونثراللدفاع عن الدين والدعوة ،كما راسل الزعماء والملوك في زمانه فكانت رسائله-عليه الصلاة والسلام- نموذجاً أدبياً رائعاً وفريداً ،ليضع بذلك أول علاقة بين الأدب وغيره من مجالات الحياة ،وليثبت أثر الكلمة على مجريات الأحداث ،وليؤكد أن الأدب الجاد هوا لأدب المعبر عن حياة الناس ، والموجه لها.

والحقيقة أن الأدب لم يتخلف يوما عن مسيرة تاريخ الأمم، ولم تضق مجالاته الرحبة الفسيحة عن مجاراة الأحداث، ولذلك كان حاضرا في قلب الحدث،بكل ألوان التعبير المختلفة .

ولما كانت الفترة التاريخية من عام (٥٢١هـ إلى عام ٥٦٩هـ)- وهي الحدود التاريخية للبحث -،فترة حاسمة في التاريخ الجهادي لأنها شهدت الهجوم الصليبي على العالم الإسلامي ،كما شهدت بزوغ نجوم زاهرة في سماء الخلافة الإسلامية بظهور عماد الدين زنكي(٥٢١هـ - ٥٤٠هـ) ، ثم (نور الدين محمود ٥٤١هـ - ٥٦٩هـ) ، والتي حفلت بهذه المواجهة الضخمة،من الرها إلى الموصل ،ثم إنب ،كان الأدب واقفا أمام هذه المواجهات يصفها ،ويعززها فظهر الأبطال من الشعراء أمثال(ابن قسيم الحموي ٥٠٠هـ - ٥٤٢هـ) ،ابن القيسراني (٤٧٨هـ - ٥٤٨هـ)،وابن منير الطرابلسي(٤٧٣هـ- ٥٤٨هـ) ،والذين وقفوا بأقلامهم- لاليشيدوا بأوصاف الخلفاء فقط - ولكن ليبرزوا الانتصارات ويمجدونها،بل وفي بعض الأحوال ،كانوا يصنعون الانتصار ،فيشيرون إلى الخطوة التالية المطلوبة من القادة ،ولذلك كانت دوافع هذا البحث وأسبابه هي إثبات ذلك الأثر للأدب على الأحداث ، وأضيف لأسباب هذا البحث هو دفع ماالتصق بهذا العصر من شبهة الاضمحلال والتأخر الأدبي ،بسبب الحروب الصليبية ،وقلة الإنتاج الأدبي عموماً،مع مجيء هذا العصر بعد عصور أدبية كان الإنتاج الأدبي فيها أغزر ما يكون كماً ،كيفاً في العصرين العباسي والأموي في المشرق ،والأندلسي في المغرب،فأنى لهذا العصر أن يرفع رايتي الجهاد والشعر في آن واحد ؟؟؟؟ كما أضيف للأسباب سبباً واقعياً هو أن الأمة تعيش أياماً أقسى من الأيام التي عاشها أهل هذا الزمان ،وما أشبه الليلة بالبارحة ،إلا أن البارحة وجدت نور الدين زنكي الذي أمر النجار الأختريني ،أن يصنع له منبراً يخطب عليه بعد أن يكرمه الله بتحرير بيت المقدس لأن نور الدين وجد الشاعر الذي يقول له :

فانهَضْ إلى المسجدِ الأقصى بذِي لجبٍ

يوليكَ أقصَى المُنى فالقدسُ مرتقِب

وائْذن لمَوجـــــك في تطهير سَاحله

فإنما أنْت بَحـــــــــــر لجُه لجَبُ

والملاحظ أن الشاعر–وهو ابن القيسراني– قال هذا الكلام لنور الدين عام (٥٤٤هـ) بينما فتح المقدس تم في الجمعة الرابعة من شهر رجب عام ٥٨٣هـ) على يد القائد المظفر صلاح الدين،ولم يخطب نور الدين على منبر الاختريني،لكنها الهمم التي فجرها الأدب ،وأوقد جذوتها الأدباء والشعراء،خلال زمن تعدى نصف القرن من الزمان .

وقد قسمت هذا المبحث إلى مقدمة وتمهيد وأربعة فصول ثم الخاتمة والتوصيات

وخصصت الفصل الأول للمؤثرات التي تأثر بها شعر الحماسة في العصر الزنكي،أما الفصل الثاني فكان لقضايا المضمون في شعر الحماسة ،والفصل الثالث كان محتواه حول تأثيرات شعر الحماسة على القواد والمعارك والجيوش ثم الفصل الرابع الذي كان حول الخصائص الفنية لشعر الحماسة،وكانت الخاتمة التي توصلت فيها للنتائج التالية وهي :

١– أن شعر هذه الفترة كان قوياً،معبراً– عاش قضية مجتمعه،وتجاوب معها ،فدفع القادة للتحرك نحو العدو ،وهاجم المتقاعسين ،وأثبت بما لايدع مجالاً للشك أهمية مساهمة الأدب وأهله في مشروعات نهضة الأمم .

٢–أن الاتجاه للمدح بغرض التكسب ونيل الرضا،لم يكن في حسبان شعراء ذلك الزمان،ربما لانشغال القادة بالحروب عن متابعة مايقوله هذاالشاعرأو ذاك،أو ربما لضخامة الأحداث التي كانت آنذاك من حروب،بالإضافة لأن أبطال وقادة هذا الزمان كانوا من الجدية بمكان بحيث يدفع شاعرهم لمدحهم لا للتكسب وإنما لإبراز مآثرهم ومناقبهم .

٣–تأثر الشعر في هذه الفترة بالنزعة الدينية التي كانت سمة العصر آنذاك،فكثر الاستشهاد بالقرآن الكريم ،وتذكر أمجاد المسلمين الأوائل في مواجهاتهم مع أعدائهم،فذكرت الغزوات مثل بدر وحنين ، وذكر شهر رمضان والصوم ،كماذكرت فضائل الأخلاق .

٤–حققت الدولة الزنكية أفضل الإنجازات بدءاً من استرداد عماد الدين زنكي لإمارة الرها عام ٥٣٩هـ، ثم ولاية نور الدين محمود عام ٥٤١هـ، ومشروعه الوحدوي الرائد ،ومشروعه المتكامل لبناء لنهضة لعام موحد متماسك يهدف لتحرير بيت المقدس،حتى أنه أمر الأختريني بعمل منبر له يخطب فيه عند تحرير بيت المقدس، كل هذا ما كان له أن يكون لولا وجود أجهزة إعلام تؤازر الفكرة وتعزز انتشارها ،والإعلام في هذه الفترة كان هو الشعر وآثاره بدءاً من التحاق ابن منير بعماد الدين وأتبعه ابن القيسراني ثم العماد الذي صاحب نور الدين .

٥– أن قادة وملوك هذا الزمان ماكانوا – كما قيل عنهم– غير مهتمين بالشعر ،ولاذواقين له،فعماد الدين طلب ابن منير ثم التحق به ابن القيسراني ،وظل يجذب الشعراء إليه بعد أن صار بطلاً تتوق

إليه النفوس ،ولما تولى ابنه نور الدين كانت له مع الشعراء صلة قوية صاحب بعضهم كالعماد _لكأنه شاعره المفضل – ،وطلب منه تصنيف الدوبيتات،كما اكرم نور الدين الشعراء ،إذ لم يكن صحيحاً أنه كان بخيلاًعنهم .

وقد كانت التوصيات التي خرجت بها بعد البحث هي :

١-إعطاء هذه الفترة ماتستحقه من الاهتمام بالدراسة من نواحيها الثقافية عموماً،والأدبية خصوصاً،وذلك لاستغلال الظرف المتشابه في الواقع التاريخي بين هذه الفترة والتي تعيشها أمتنا الآن ،فما أشبه الليلة بالبارحة .

٢-دراسة الإنتاج النثري لكتاب هذه الفترة فكم قرأت من رسائل صلاح الدين ،ونور الدين ،والملك الصالح طلائع بي رزيك ،مما يستحق الدراسة في رسالة منفصلة تدرس هذا الجانب دراسة متأنية ،تميط اللثام عن كنوز أقلام هذا الزمان،وتدفع الشبهة القائلة بضعف الإنتاج الأدبي بسبب أعجمية الحكام .

٣-دراسة الميول الأدبية لدى قواد الفتح الإسلامي آنذاك ،عماد الدين ونورالدين وصلاح الدين ،ليتبين لنا المعلم الشمولي للقيادة المسلمة،فليس معنى القيادة المسلمة الجادة ،أنها المنصرفة عن الدنيا فلامتعةَ بجمال نص أدبي ،ولاأنسَ بمقطع شعري ،وقد وجدت وأنا أقرأ سيرة هؤلاء أن نور الدين كان يلعب (الصولجة)أو ما يطلق عليه في أيامنا (البولو) ،ولما عوتب قال :نحن نأخذ من اللعب تسلية لما بعده.

٤-ثمة قضية أخرى ،أرجو التطرق إليها وهي:الأثر الديني في أدب الدولة الزنكية ،وذلك لأن الدين وقضاياه ،هما اللذان صبغا الانتاج الأدبي خلال تلك الفترة ،وجعلاالشعراء والكتاب يتجهون نحوه بقوة ،ولست أرى أن السبب الوحيد في ذلك هو الحروب الصليبية فقط ،إنما – وللإنصاف – أرى أنها روح عامة سرت ،وصحوة شاملة انتشرت بقدر الله ،وتلك سنة الله في الكون ،وعند دراسة هذا الموضوع ستتبين لنا العلاقة بين الأدب والالتزام ،وتلك قضية أعتقد أنها جديرة بالبحث

وفي نهاية هذا التلخيص لايسعني إلا أن أتوجه بخالص الشكر والتقديرللجميع ،وأخص سعادة الدكتور عبد الرحمن عطا المنان المشرف على هذه الرسالة ،الذي اعتقد انه لولا توفيق الله تعالى ثم جهده وحثه وتشجيعه لما كانت الرسالة في مرحلة المناقشة اليوم ،كما أشكر الأساتذة الأفاضل أعضاء اللجنة برئاسة سعادة الأستاذ الدكتور بشير عباس بشير الذي كان أول من استقبلني في أروقة هذه الجامعة المباركة ،وكأنه القدر الطيب أن يكتب لي بيديه خطة الرسالة،ومازلت- احتفاءً وتقديراً لهذه اللحظة – أحتفظ بالورقة التي بخط يده حتى الآن،كما أشكر سعاد الدكتور عوض السيد موسى الذي تفضل بقبول عضوية لجنة المناقشة ممتحناً

خارجياً،وأرى أنه من الوفاء أن أتوجه بخالص الشكر للحضور الكرام ،الذين أعتبر حضورهم تكريماً فوق التكريم ،وعلى رأس الحضور والدي وأستاذي المهندس محمد احمد البحيري الذي كلل هذا البحث بالدعاء والتشجيع والنصح،واشكر إدارة هذه الجامعة المباركة على فتح الأبواب أمام الدارسين من كل الأنحاء لتصبح السودان منارة للعلم، وملاذاً للراغبين في الإبحار في ميادينه الواسعة .

وفق الله الجميع لما يحب ويرضى ،والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

الطالب /عبد الحميد عبد الوهاب محمد علي

السودان – أم درمان

الثلاثاء ٢٠١٠/٤/٢٠الموافق ١٤٣١/٥/٥هـ

إهداء

إلى والدي الكريمين
أسأل الله لهما دوام الصحة والعافية

.....

إلى زوجتي التي تعبت ووفرت كل السبل للمعاونة في إنجاز البحث

إلى أولادي
أسأل الله أن ينفع بهم الإسلام والمسلمين

.....

إلى كل المهتمين بدراسة الأدب الجاد لأزمان العزة والفخار في صفحات تاريخ أمتنا المجيدة
أرجولهم دوام المواصلة لنفع الأمة والعودة بها لسابق مجدها

.....

إلى المرابطين على ثغور القدس الشريف، أسأل الله أن يعينهم ويثبتهم على الرباط ،وأن يحررالأقصى ويعود لحوزة الأمة كما حرره من قبل صلاح الدين

.....

شكر وتقدير

الحمدلله رب العالمين،والصلاة والسلام على الرسول الأكرم ،والنبي الأفضل ،سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،،،،،، وبعد

فإني أحمد الله على تمام نعمته على بإكمال هذ البحث ،الذي بذلت في كتابته وإتمامه ماستطعت من جهدي،فإن وفقت في ذلك فمن الله وحده،وإن كانت الأخرى فمن نفسي والشيطان ،وحسبي أن نيتي كانت أن أقدم للمكتبة دراسة حول هذا الأدب الذي دار حوله جدل كبير ،وأقترب بوجداني من فترة كانت فيها حركة الجهاد وتحرير المقدسات أمل الأمة ،وحلم القادة ،ولذلك فإني أرجو الثواب منه سبحانه والوفيق.

واقتداءًبقول الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – :

(من لايشكر الناس لايشكر الله)[1] ،فإني أتوجه بالشكر الجزيل لأستاذي الدكتور/عبد الحمن عطا المنان محمد المشرف على هذه الرسالة على متابعته ،ونصائحه اللذين كان لهماالأثر الكبير في تصويب البحث ،من الخطة الأولى حتى النهاية ،كما أشكر الأستاذ الدكتور /بشير عباس بشير والدكتور /عوض السيد موسى عوض السيد على تكرمهما بقبول المشاركة في مناقشة هذه الرسالة ،لتصويبها وتقويمها ،راجياًالله أن ينفعني بملاحظاتهم القيمة ،واستدراكاتهم النافعة ،فجزاهماالله عني خير الجزاء ،وأجزل مثوبتهما .

كما لايفوتني أن أخص بالشكر الجزيل ،والدعاءالمتواصل كل من ساهم بتقديم نصيحة أو مادة أو فكرة ،وعلى رأس هؤلاء سعادة الأستاذ /محمد أحمد البحيري الذي ذكرني ووجهني لضرورة البحث في تاريخنا المجيد ،وكان لتوجيهاته الأثر الكبير في المضي في إتمام هذا البحث،أسأل الله أن يجزيه عني خيراً،وأن يجعل ذلك في موازين حسناته.

وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين ،،،

الطالب

عبد الحميد عبد الوهاب محمد

٢٠١٠/٣/٢١م

[1]) الحديث في سنن الترمذي حديث صحيح /كتاب البر والصلة /باب ماجاء في الشكر لمن أسدى إليك معروفاًج٤ص٣٣٩

المقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم ،علم الإنسان ما لم يعلم ،والصلاة والسلام على أفضل الرسل وخاتمهم محمد بن عبد الله ﷺ ،سمع الشعر فأُعجب بالحسن منه،واستخدم الأدب شعراًونثراللدفاع عن الدين والدعوة ،كما راسل الزعماء والملوك في زمانه فكانت رسائله- عليه الصلاة والسلام- نموذجاً أدبياً رائعاً وفريداً ،ليضع بذلك أول علاقة بين الأدب وغيره من مجالات الحياة ،وليثبت أثر الكلمة على مجريات الأحداث ،وليؤكد أن الأدب الجاد هو الأدب المعبر عن حياة الناس ، والموجه لها.

والحقيقة أن الأدب لم يتخلف يوما عن مسيرة تاريخ الأمم ، ولم تضق مجالاته الرحبة الفسيحة عن مجاراة الأحداث ،ولذلك كان حاضرا في قلب الحدث،بكل ألوان التعبير المختلفة .

ولما كانت الفترة التاريخية من عام (٥٢١هـ إلى عام ٥٦٩هـ) ،فترة حاسمة في التاريخ الجهادي لأنها شهدت الهجوم الصليبي على العالم الإسلامي ،كما شهدت بزوغ نجوم زاهرة في سماء الخلافة الإسلامية بظهور عماد الدين زنكي(٥٢١هـ - ٥٤٠هـ) ، ثم (نور الدين محمود ٥٤١هـ - ٥٦٩هـ) ، والتي حفلت بهذه المواجهة الضخمة،من الرها إلى الموصل ،ثم إنب ،كان الأدب واقفا أمام هذه المواجهات يصفها ،ويعززها فظهر الأبطال من الشعراء أمثال(ابن قسيم الحموي ٥٠٠هـ - ٥٤٢هـ) ،وابن القيسراني (٤٧٨هـ - ٥٤٨هـ)،وابن منير الطرابلسي(٤٧٣هـ- ٥٤٨هـ) ،والذين وقفوا بأقلامهم- لاليشيدوا بأوصاف الخلفاء فقط - ولكن ليبرزوا الانتصارات ويمجدونها حتّى أصبح الشاعر قادراً- في أكثر الأحوال - على أن يتحدّث عن الانتقال من ذروة- في سياق الحرب- إلى ذروة، وغدا كأنّ الشّاعر حادٍ لقافلة من الانتصارات، لذلك لم تَعُدْ القصيدة وصفاً لمعركة واحدة، وإنّما أصبحت استرجاعاً لسلسلة من الأمجاد المتوالية، وأصبح الشّاعر يكتفي بذكر أسماء المعارك لأنّها أصبحت رموزاً خالدة، يكفي أن يذكر اسم الواحدة منها حتّى تهشّ ذاكرته إلى النتائج الباسمة الّتي تمثّلها .

فهل كان للشعراء وشعرهم ذلك الأثر الذي شكل - ضمن بقية العوامل-هذه الانتصارات وتلك الإنجازات ؟؟؟؟؟

ذلك ما أحاول إثباته في هذا البحث الذي أرجو الله أن يتقبله مني،وأن يوفقني فيه .

أ- أسباب دراستي لهذا الموضوع

لقد كان اختياري لهذا الموضوع للأسباب التالية :

١- إن الغاية من الكلمة أن تعبر عن روح الأمة التي تعيشها ،وللشعر دوره الموجود في كل حقب التاريخ المختلفة ومنها هذه الفترة فأردت أن أثبت دور الشعر في هذه الفترة.

٢-إن الشبهات حول ندرة الشعر في هذا العصر بسبب انشغال الناس في الجهاد ،وقلة عطايا الشعراء لكثرة تكاليف الجهاد مما دفع القادة لصرف المال على ذلك ،تجعل من إبراز دور الأدب في هذه الفترة دافعا لهذا البحث كونه أدباً مبرءاً من الانتفاعية والانتهازية .

٣- إن هذه الفترة جاءت بعد فترة كان الأدب فيها في الذروة من الإنتاج ،شعراًونثراًمن الخلافات المتعاقبة من الأموية ثم العباسية ثم الأندلسية التي شهد الأدب فيها نبوغاً طال حتى الأمراء كما كان من عبد الرحمن الداخل الذي يقول فيه بن حيان (كان بليغاً مفوهاً وشاعراًمحسناً)[١]،كل ذلك يجعل من دراسة شعر هذه الفترة مبرراً لإبراز حركة الفن الأدبي في هذا الزمان،وإثبات أن هذا العصر حفل بالإنتاج والإبداع كسابقه من العصور .

٤- إن أدب هذه الفترة تميزت بتغطية مرحلة كان لها لون خاص ومذاق مميز ألا وهي مرحلة الحروب الصليبية،بأحداثها كاملة مما يجعله أدباً لبيئته ،بعيدًا عن النزعات الفردية ،التي قد تحمل الشاعر على التغني وإبراز الجمال،والإغراق في المعاني والصور دون ارتباط الشعر بقضية يعانيها ويعيشها الناس .

٥- إن الدوافع وراء هذا الأدب ،- والشعر منه خاصة- كانت نتيجة التأثر الواضح بالفكر الإسلامي الذي يحض على الجهاد والإيمان بالله ،وأهمية النصر على الأعداء،مما يعطي الدلالة والإيحاء بان الدوافع دينية (محضة)وليست جغرافية أو إقليمية،وهذا ماتحتاجه الأمة الآن للعودة لمجدها ،واسترداد مقدساتها .

٦- أن الحياة الجادة،والتحديات الكبيرة ،والآمال العظيمة ،تولد في المجتمع قوة خفية من الاستقامة والعمل وبخاصة إذا استغلت الطاقات ووظفت الإمكانات ،ووجدت القيادة الصالحة التي تجمع الشمل ،وتحمل الهم ،وهذا ما كانت عليه فترة آل زنكي ، من الصلاح والجهاد والاستقامة،مماجعل الشعر في مجمله شعراًله مضمون ويحمل قضية يدافع عنها .

٧- أن الأدب في تلك الفترة بحاجة ماسة للمزيد من الدراسة ،لدفع الشبهة التي لحقت به ،أنه فترة انحطاط أدبي – والذين يقولون ذلك إنما يتأثرون برأي المستشرقين الذين

---

[١] نفح الطيب /تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط١/المكتبة التجارية القاهرة /١٩٤٩ج٤ص ٢٦

لايرضيهم أن تقترب الأجيال من هذه الفترة لما تمثله من الشعور بالفخر والعزبهؤلاء القادة ومعهم الشعراء ،الكل حمل راية واحدة ،والكل عشق غاية واحدة هي تحرير الأوطان ،واسترداد المقدسات ،لذلك فدراسة هذه الفترة هي نوع من الواجب الذي يجب أن يتصدى لمثله كل متخصص من مكانه وتخصصه .

٨- أن الشبه بين زمننا وزمن ماقبل الزنكيين قريب وكبير ،فالقدس في يد الاحتلال ،والأقصى يصرخ ،والأمة بحاجة للمزيد من التجمع والوحدة والتحريض على الجهاد ،ولذلك فالحاجة ماسة وملحة للمشاركة في عرض مساهمة الشعراء في إيقاظ الأمة لعلها تجد من يقوم بدور ابن القيسراني أو أسامة أو العماد ،فينادوا بتحرير الأرض ،وعودة الأمل .

ب- حدود البحث

الحد التاريخي:

الفترة التاريخية من عام (٥٢١هـ إلى عام ٦٦٠هـ)([1])

- **بدأت بحكم عماد الدين زنكي من ٥٢١- ٥٤١هـ**
- **تولى من بعده ابنه نور الدين محمود ٥٤١- ٥٧٧هـ**
- **كانت دولة الزنكيين بالموصل بقيادة سيف الدين غازي – الابن الثاني لعماد الدين – واستمرت من ٥٤١هـ- ٦٤٨ هـ .**
- **كان الفرع الثالث لهذه الدولة بقيادة قطب الدين مودود بن زنكي واستمرت من ٥٤٤هـ- ٦٦٠ هـ.**

[1] الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي ،د.راغب السرجاني ،مؤسسة اقرأ ،الطبعة السابعة ابريل ٢٩٩٧م .ص٤٣٧

ج- منهج البحث

المنهج الذي سأتبعه- إن شاء الله- في هذا البحث هو المنهج التاريخي الوصفي التحليلي،والذي يهدف إلى الوصول للمباديء والقوانين العامة عن طريق البحث في أحداث التاريخ الماضية ،وتحليل الحقائق المتعلقة بهذه الاحداث ،ومن ثم تحليل الخصائص الإنسانية والسلوكية،سواء ما يتعلق بالجماعات أو الأفراد أو النظم،أو النتاجات الإنسانية(١) .

وقد اعتمدت في ذلك على المراجع التاريخية والأدبية من بعض المصادر التي كتبت في هذا الموضوع وأثبتت المصادر:

- المصادر التاريخية كالروضتين لأبي شامة٦٦٥هـ ،ومعجم الأدباء لياقوت الحموي٦٢٦هـ ،وذيل تارخ دمشق للقلانسي٥٥٥هـ ،والكامل لابن الأثير ٦٣١هـ،والتاريخ الباهر في الدولة الأتابكية له أيضاً، ومن الكتب التي جمعت بين تمثيلها مصدراًللمادة الأدبية ،والمادة التاريخية كتاب الخريدة للعماد الأصفهاني ٥٩٧هـ،وهو أشهر كتب هذا العصر لأنه معاصر للأحداث وبالتالي تتميز روايته بالمشاهدة والسماع وهذه أعلى درجات الوراية ،وقد أفدت من قسم الشام على وجه الخصوص لما له من ارتباط مباشر بموضوعنا ،أما آخر المراجع التاريخية والادبية فهي الاعتبار لأسامة بن منقذ ٥٨٤هـ وهو من كتب السيرة الذاتية ،التي كتبها أسامة وفيها سيرة نور الدين ووصف الحوادث ،ويعطينا صورة واضحة عن علاقة المسلمين بالصليبيين ،كما رجعت لبعض المصادر التاريخية الحديثةومنها كتاب تاري الزنكيين في الموصل وبلاد الشام للدكتور محمد سهيل طقوش ،وكتب الدكتور محمد علي الصلابي في تاريخ الدولة الزنكية والسلجوقية وكتابيه عن عماد الدين زنكي ونور الدين محمود ،كما رجعت لكتاب الدكتور راغب السرجاني وهو في سلسلة بعنوان الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي .

أما الدواوين التي كان أصحابها شعراء هذا الزمان فكانت :

- ديوان ابن منير الطرابلسي ٥٤٨هـ ،وقد جمعه الدكتور عمر عب السلام تدمري .
- ديوان طلائع بن رزيك ٥٥٦هـ،وقد حوى على رسائله لصديقه اسامة بن منقذ يمدح فيها نور الدين ويحرضه على الجهاد وفتح بيت المقدس ،كما حوى قصائده في وصف معاركه ضد الصليبيين .

---

[1] كيفية كتابةالأبحاث والإعداد للمحاضرات د.محي محمد مسعد د .ط /ص٣٤

- ديوان ابن القيسراني ٥٤٧هـ،صنو ابن منير ،والتحق بوالد نور الدين الشهيد عماد الدين زنكي ،ثم ابنه نور الدين ،وكان أكثر شعراء العصر مدحاً ووصفاًللمعارك .
- ديوان أسامة بن منقذ ٥٨٤هـ ،وله قصائد في مدح نور الدين بالإضافة لرسائله للملك طلائع بن رزيك .
- ديوان عمادالأصفهاني ٥٩٧هـ ،وفيه الكثير من قصائده في مدح نور الدين ،ووصف معاركه ،وقد حققه الدكتور ناظم رشيد .

أماالمراجع التي كتب أصحابها في هذه الموضوع فهي كثيرة اذكر منها :

- نور الدين في الأدب العربي للدكتور محمود فايز السرطاوي .
- شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين الدكتور فؤاد حسن أبو الهيجاء.
- الحروب الصليبية وأثرها على الشعر العربي د.محمد الهرفي .
- الحياة الأدبية في عصر الحروب الصايبية بمصر والشام د.احمد بدوي .
- الحياة العلمية في العهد الزنكي أ.د إبراهيم المزيني .
- الاتجاهات الفنية في الشعر إبان الحروب الصليبية د.مسعد العطوي .
- الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري د.شفيق محمد عبد الرحمن الرقب.
- العقد البديع في علم البديع للخوري لويس .
- شعرالصراع مع الفرنجة د.فيصل صلاح أصلان .
- لغة الحرب في شعر الحماسة (دراسة دلالية)د.عبد اللطيف مطيع النبالي .
- الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك د.عمر موسى باشا .
- صدى الغزو الصليبي فيشعر ابنالقيسراني د.محمود إبراهيم .

بالإضافة للعديد من المراجع الأخرى.

الدراسات التي تناولت (الأدب في العصر الزنكي) :

١- بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية/د.عبد الجليل عبد المهدي/دار البشير/عمان /١٩٨٠م.

٢- نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية /عمرالسايس/دار المنار /١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٣- الأدب في العصر المملوكي/ د.محمد زغلول سلام .

٤- أدب الحروب الصليبية /د.عبد اللطيف حمزة .

٥- الأدب في العصر الزنكي /عبد الوهاب العدواني .

٦- نصوص مختارة من الأدب المملوكي /د.محمد حموية .

٧- الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية للدكتور أحمد بدوي.

٨- الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والمماليك والأيوبيين للدكتور عمر موسى باشا.

٩- معارك نور الدين في شعر الحروب الصليبية(رسالة ماجستير /إعداد هادي نهر.

د- المخطط المبدئي للبحث

تتكون الدراسة من مقدمة وتمهيد وأربعة فصول إن شـــاء الله ،ولكـــل فصل عدة مباحث:

- المقدمة والتمهيد

الفصل الأول:المؤثرات العامة في شعر الحماسة في عصـــر الدولـــة الزنكية :

المبحث الأول: العامل السياسي.

المبحث الثاني: العامل الاجتماعي.

المبحث الثالث: العامل الاقتصادي .

المبحث الرابع: العامل الثقافي والعلمي .

المبحث الخامس: العامل العسكري والجهادي.

المبحث السادس: العامل الديني والمذهبي .

الفصل الثاني: قضايا المضمون في شعرا لحماسة في عصر الدولـــة الزنكية :

المبحث الأول :الدعوة إلى الجهاد.

المبحث الثاني :التحذير من الخطر الصليبي .

المبحث الثالث :الأخذ بأسباب القوة والوحدة والدعوة إليهما .

المبحث الرابع :الاستعانة بالحرب النفسية في المواجهة بالكلمة.

المبحث الخامس:استشراف المستقبل والانتقال من انتصـــار للمطالبـــة بآخر .

المبحث السادس:شخصية البطل في شعر الحماسة.

المبحث السابع:الأثر الديني في القصيدة الحماسية.

الفصل الثالث:تأثيرات شعر الحماسة على نتائج المعارك خلال الفترة الزنكية :

المبحث الأول :على مستوى الجيوش.

المبحث الثاني :على مستوى القادة .

المبحث الثالث :على مستوى أحداث المعارك ونتائجها.

الفصل الرابع: الخصائص الفنية لشعرا لحماسة في عصر الدولة الزنكية :

المبحث الأول: بنية القصيدة

المبحث الثاني :اللغة والأسلوب.

المبحث الثالث: التخييل والصور .

المبحث الرابع : الصنعة البديعية في القصيدة الحماسية.

المبحث الخامس :الأوزان والقوافي.

المبحث السادس: النزعة الاتباعية .

الخاتمة: وتتضمن النتائج والتوصيات .....

فهرس البحث

- **فهرس الآيات القرآنية .**
- **فهرس الأحاديث النبوية .**
- **فهرس الشعراء .**
- **فهرس محتويات البحث .**

تمهيد

شعر الحماسة

من عصر لآخر،ومن فترة لأخرى من فترات التاريخ العربي والإسلامي كانت الحقيقة الكبرى التي رسختها الأيام أن الشعر ديوان العرب ،ومنطقه،ومسجل أحداثه،فمن المعلقات أو السموط التي جمعها حماد الراوية ([1]) إلى المفضليات التي جمعها المفضل الضبي،لسبعة وستين شاعرا فيهم سبعة وأربعون من شعراء الجاهلية ،وأربعة عشرشاعراًمن المخضرمين ،وستة من الإسلاميين ([2]) مروراًبأصمعيات([3]) أبو سعيد عبدالملك بن قريب الأصمعي،حتى جاء أبو تمام ووضع لوناًجديداًمن ألوان ترتيب الشعر بحسب المعاني،فوضع مصنفه من خمسة كتب بدأها بكتاب الحماسة([4])يليه باب المراثي وباب الأدب ،وباب النسيب ،وباب الهجاء ،وباب الأضياف ،والمديح وباب الصفات،وباب المدح ،ثم باب مذمة النساء ،ويرى محمد عبد القادر الرافعي في مقدمته لديوان حماسة أبي تمام (أننا لانجد أحسن ولاأوفى من كتاب الحماسة الذي اختاره ملك الكلام أبو تمام)([5])

والحماسة في اللغة من حمس الشر بمعنى اشتد ،وكذلك أودت المعاجم كلمة حمس بنفس المعنى ،فاحتمس الديكان واحتمسا ،احتمس الفريقان واقتتلا،وحمس بالشيء علق به.
والحماسة :المنع والمحاربة ،والتحمس :التشدد([6])
وفي حديث الإمام علي- رضي الله عنه- (حمس الوغى ،واستحر الموت أي اشتد([7])،واحتمس الديكان هاجا ،والأحمس الشجاع ،والحماسة الشجاعة ،والمنع والمحاربة ([1])

---

١ شرح المعلقات السبع /أبو عبد الله الحسن بن أحمد الزوزني /تحقيق محي الدين عبد الحميد/مكتبة محمد عليصبيح وأولاده بالقاهرة .
٢ تاريخ الأدب العربي /بروكلمان /تعريب د.عبد الحليم نصار/ط٥ ١٩٨٣ص٧٢-٧٣ .
٣ لغة الحرب في شعر الحماسة (دراسة دلالية)د.عبد الرؤوف مطيع النبالي /ط٢٠٠٧/١/ص١٦
٤ ديوان الحماسة /شرح العلامة التبريزي/ط٣ مطبعة السعادة –القاهرة ١٩٢٧ .
٥ لغة الحرب في شعر الحماسة (دراسة دلالية)د.عبد الرؤوف مطيع النبالي ص١٦.
٦ لسان العرب /ابن منظور/مادة/ حمس
٧ القاموس المحيط /مادة حمس ج٢ص٢٠٨.

وقد تطورت هذه اللفظة حتى أصبحت تطلق على نظام من الأشعار المختارة التي قام بجمعها كثير من عشاق الشعر ومحبيه([2])،ولما كانت الحروب هي المجال الأكثر من مجالات الشعر الحماسي_،لأن في الحروب توصف المعارك وتثار العزائم وتمجد البطولات ،ويشاد بالغنائم ،ويمدح القادة ،وتكثر أوصاف آلات الحرب التي كانت السبب في الانتصار ،لذلك كانت دراسة الشعر الحماسي في الدولة الزنكية ،هي الأقرب من ناحية الدراسة الأدبية من أي غرض شعري آخر أو مجال أدبي آخر،فالقاريءللشعر في هذا العصر يجده قد أدى أدوارًا عديدة،فقد سار جنبا إلى جنب مع العلماء الذين استنهضوا همم المسلمين الغافلة اللاهية إبان الهجمة الصليبية كما هو الشأن عند الأبيوردي،وابن الخياط وغيرهما ،ولم ينضب من هذا الشعر معين الإثارة،فقد أخذ يدفع المجاهدين إلى الأمام ويحفزهم من نصر إلى نصر ،ويدعوهم لمواصلة الجهاد ،وكلما فتح حصن أو مدينة فإن الشعراء يصارحون القادة بأملهم في النصر الأعظم وهو فتح بيت المقدس فلما تحققت لهم رغبتهم ألحوا في تطهير الساحل فلاتكاد تقرأ قصيدة لابن القيسراني أو ابن منير،أو العماد الأصفهاني أو غيره إلا وتلح هذا الإلحاح،وقد أشار إلى ذلك المؤلفون كالدكتور عمر موسى باشا ،ومحمد سيد كيلاني،والدكتور أحمد بدوي ،والدكتور عبد اللطيف حمزة ،ود.أحمد الهرفي[3].

وقد كانت قصيدة الأبيوردي([4]) الحماسية التي انشدها القاضي الهروي وصحبه في بغداد في عام ٥٩٢هـ أول قصيدة عثرت عليها تثير الحماس الحربي ،وتستثير همة المسلمين ،وتدعوهم على الدفاع عن مقدساتهم وديارهم ومطلعها :

مزجنا دماءً بالدموع السواحم

فلم يبق منا عرضة للمراجمِ

وشر سلاح المرء دمع يفيضه

إذا الحرب شبت نارها بالصوارمِ

---

١ أساس البلاغة/أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري/الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٥طبعة ٣ج١ مادة (حمس)ص ١٩٧ ج١/مادة حمس ص١٩٧.

٢ لغة الحرب في شعر الحماسة (دراسة دلالية)د.عبد اللطيف مطيع النبالي ص٢٢

٣ الاتجاهات الفنية في الشعر إبان الحروب الصليبية /د.مسعد عيد العطوي /ص ١٤٤

٤ الأبيوردي هو :أبو المظفر محمد ابن ابي العباس أحمد بن محمد،من أمية بن عبد شمس ،ونسبته إلى بلد خراسان،كان راوية نساباً شاعرا،وقد توفي بأصفهان مسموماًسنة ٥٠٧هـ (من كتاب شعر الصراع مع الفرنجة د.فيصل صلاح اصلان/ط١/٢٠٠٥م/دار التوحيد – سوريا–حمص / ص ٢٧

فإيهاً بني الإسلام إن وراءكـــم

وقائع يلـــــحقن الذرا بالمناســـمِ

أتهويمةٌ في ظل أمنٍ وغــبطةٍ

وعيشٍ كنوار الخميلة ناعـــــــــمِ

ومن أوائل الشعراء الذين يفيض شعرهم بالحماسة الحربية جهاداً في سبيل الله ضد الإفرنجة الشاعر الأمير مجد العرب العامري المتوفى ٥٧٣هـ ([1])الذي قال عنــه العمــاد الأصــفهاني ((شاعرمبرز محقق ،له خاطر معجز مفلق ،هو الداهية الدهيا ،وأعجوبة الدنيا))([2]) وكانــت أول قصيدة حماسية له هي النونية التي قالها في مدح الأمير حسام الدين بــن أرتــق عــام ٥٢٤هـ ومما قاله فيها :

سل بالكثيب سوانح الغــزلانِ

أهي الموائس أم غصون البانِ

واحفظ من الألحاظ لبك إنـــــها

شغل الخـــــلي ولوعة اللهفانِ

تلك السيوف البيض تسمى أعيناً

للبيـــــــض والأجفان للأجفانِ

من جازئات ظباء (وجرة) من لها

فتكات ليث الغــاب من (خفانِ)

سعـــــــــدية لولا هواها لم يشق

قلبي برامةمنبت السعـــــــدانِ

يدنو المزار ودون حمر قبابـــــــها

لحظ الرقـــــيب وهبة الغــيرانِ ([3])

---

١ علي محمد بن غالب ،أبو فراس العامري ،شاعر من أهل العراق ،جال ما بين الشام والعراق ،ومدح الملوك والاكابر ،ومنهم الأمير عز الدين سلطان بن منقذ ،توفي بالموصل سنة ٥٧٣هـ((من كتاب شعر الصراع مع الفرنجة د.فيصل صلاح اصلان ص ٣١

٢ العماد الأصفهاني / خريدة القصر....، قسم شعراء العراق، تحقيق محمد بهجت الأثري، المجمع العلميّ العراقيّ،/ج٢ ص١٤١

٣ المصدر السابق ص ١٤١

وللشاعر رائية أخرى حماسية قالها في الأمير (حسام بن أرتق):

أطاعك – فيما ساء حاسدك –الدهر

ووالاك ما عادى معاديك الـــعمرُ

حويت حسام الدين كل فضيـــــــلة

سواك لها طي وأنت لها نشـــــرُ

فما ينتهي إلا إلى كفـــــــــك الندى

ولا يعتزي إلا إلى بيتـــــك الفخرُ

سطا كلما تابعتها من جـــــزع الردى

ونعمى متى لاقيتها جمـــــع الشكرُ

ونفس كأنما من طبعها خلق الســـخا

وبأس كأن من حره طبـــــــع الجمرُ([1])

وقد أعجب العماد بهذه الأبيات وقال في الأبيات الأربعة الأخيرة :(الأبيات الأربعـــة حقهـــا أن تكتب بذوب التبر على صفحة الدهر ،وترقم بسويداء الفؤاد على سواد الحدق ،وترتـــاح لهـــا النفوس ارتياح الرياض للديمة الغدق)([2]).

وقد استمرت قرائح الشعراء تجود بالدرر الغالية من القصائد الحماســية،التي كانـــت تـــدفع المجتمع من أمرائه إلى علمائه منادية بالجهاد وحاثة عليه،في مواجهة هذا المـــد الصـــليبي ،ومن ذلك قصيدةابن القيسراني الذي شرده الصليبيون من بلده عكا إلى دمشق فالتقى بعمـــاد الدين زنكي ووجد فيه أمنيته التي كان يتوق إليها ،فيرافقه من حصن بـــارين والمعـــرة إلـــى شيزر ثم الرها ومما قاله ابن القيسراني([3]) في فتح الرها :

---

١ نقلاًعن كتاب الاتجاهات الفنية في الشعر إبان الحروب الصليبية /د.مسعد عيد العطوي /ص ١٥١

٢ العماد الأصفهاني/الخريدة /القسم العراقي /ج٢ ص ١٤٦

٣ ابن القيسراني هو :ابو عبد الله محمد بن صغير بن داغر بن محمد بن خالدبن نصر بن عبد الرحمن بن المهاجر بن خالد بن الوليد المخزومي ،وقد شك ابن خلكان في نسب ابن القيسراني إلى الصحابي الجليل خالد بن الوليد فقال :هكذا يزعم أهل بيته ،وأكثر المؤرخين وعلماء الأنساب يقولون :إن خالداً –رضي الله عنه –لم يتصل نسبه بل انقطع منذ زمان والله أعلم)ولد في مدينة عكا سنة ٤٧٨هـــ،ثم غادرها إلى قيسارية ،ونشأ في هذه المدينة ،ونُسب إليها ،ثم تركها بعد استيلاء الصليبيين عليها ،وانتقل إلى دمشق ،وهناك تتلمذ على يد استاذه الشاعر المشهور ابن الخياط،وقد عاصر ابن القيسراني حكام دمشق لكنه فر هارباًبعد ان هجا حاكمها،تاج الملوك بوري ،ثم

هوالسيـــــف لايُغنيك إلا جلادُه

وهل طوقَ الأملاكَ إلا نجادُهُ

وقل لمـــــلوكِ الكفرِ يسلَمُ بعدها

مَمَالكُـــــــها إن البلادَ بلادهُ

كذاعن طريق الصبح فلْيتَه الدُجى

فيا طَــالما غَال الظلامَ امتدادهُ

ومن كان أملاك السماواتِ جــندهُ

فأيةُ أرضٍ لم تُرضِها جيـــَادهُ(١)

وقد شارك ابن القيسراني شعراء عصره ومنهم ابن منير الذي قال في فتح الرها :

ياصارماً بيمينِ اللهِ قائـــــــمةً

وفي أعـــَالي أعادي اللهِ حداهُ

أصبحتَ دون ملوك الأرض منفرداً

بلاشبيـــــــهٍ إذا الأملاكُ أشباهُ

قل للأعادي ألا موتـــــوا به كمداً

فالله خيبـــــــَكم والله أعطاهُ(٢)

والواقع أن الشعر الحماسي المصاحب للحالة الجهادية التي كانت سمة العصر آنــذاك بحكــم الهجمة الصليبية على ديار المسلمين عام ٤٩٠ هــ، كان شديد التأثر بالقــادة العســكريين، والذين كانت أسماؤهم تمثل أملاً معقودا للأمة في ذلك العصر، شأنهم في ذلك شأن قادة الفتح الإسلامي من الصحابة الكرام أمثال خالد والمثنى وسعد ابن أبي وقاص،ومن القــادة الــذين شغلوا الشعراء ،فاشتغل بهم الشعراء القائد الشجاع نور الدين زنكي،الذي أفسح لنفسه مجال الزعامة والقيادة منذ أخذ خاتم أبيه عماد الدين زنكي بعد استشهاده في قلعــة جعبــر عــام ٤٥١هــ ،فأعلن الاتحاد الإسلامي ،وجعله واقعاً في أرض الإسلام،وانطلق يحمل راية الجهاد

اتصل بعماد الدين زنكي ثم نور الدين ليصبح من شعراء العصر الزنكي ،وداعياً إلى توحيد الامة ورد المعتدي)من كتاب شعر الجهاد في الحروب الصليبية /د.محمد الهرفي ص ٢٢٤-٢٢٥

١ أبو شامة /الروضتين /ج١ ص ٣٧،٣٨

٢ المصدر نفسه /ج١ ص ٣٩

ينكأ عدوا،ويفرح صديقاً لتكون فترة حكمه من عام ٥٤١هـ- عام٥٦٩هـ حافلة بالانتصارات للمسلمين،والانكسارات للصليبيين في أكثر المعارك وأشرسها،ولذلك احتفى به الشعراء وشاركوه الجهاد بالتحميس والإشادة ببطولاته قصائد حماسية رائعة منها ماقاله ابن منير الطرابلسي([1]):

يانور دين الله كم حادثٍ

دجَا وأسفرتْ له فانشرَى

وكم حِمى للشركِ لايهتدي ال

وهم له غادرتَه مجزرَا

مناقب تكسر كسرى كما

تقصرُ عن غدَراتِها قيْصرَا

ماعَام في أوصافِها شاعرٌ

إلا رأى أو صافَها أشْعَرا ([2])

وهذا العماد الأصفهاني يصور نور الدين ،وقد زرع الرعب في قلوب الأعداء فظهرت علاماته على وجوههم :

واستنارتْ عزائمُ الملكِ العَا

دلِ نورُ الدينِ الكريمِ الأغرِ

وبنُو الأصفرِ القوامصِ منْه

بوُجوهٍ من المخَافةِ صفرِ([3])

وقد اشترك الشاعران :أسامة بن منقذ والملك الصالح طلائع بن رزيك في تحريض نور الدين على جهاد العدو ،وحث فرسان مصر والشام على الجهاد،ليخرج للوجود لون جديد من

---

١ احمد بن منيربن مفلح الطرابلسي هو : ولد في مدينة طرابلس ،٤٧٣هـ ،تعلم اللغة وأبدع في نظم الشعر ،قال عنه الأصفهاني في الخريدة :كانالقيسراني سنياً متورعاً،وابن منير شيعياً مغالياً،،وقال عنه ابن خلكان:كان رافضياً خبيث اللسان ،أما ابن عماد الحنبلي فقال عنه :وكان شيعياً هجاءً فائق النظم) انتقل الشاعر في آخر أيامهغلى حلب حيث استقر في حماية حاكمها عماد الدين زنكي ثم ابنه من بعده نور الدين ،ونال عندهما منزلة عظيمة ، حتى وافته المنية عام ٥٤٨هـ(من كتاب شعر الجهاد في عصر الحروب الصليبية /د.محمد الهرفي ص ٢٥٩-٢٦٠-٢٦١ بتصرف .

٢ ديوان ابن منير الطرابلسيّ ، جمعه وقدّم له د. عمر التدمريّ ،دار الجليل ومكتبة السائح، بيروت وطرابلس ،١٩٨٦ص ٢٠٧

٣ ديوان العماد الأصفهانيّ ، جمعه وحققه د. ناظم رشيد، جامعة الموصل،١٩٨٣ /ص٢٠٠

ألوان الشعر الحماسي،في صورة تناظر بين شاعرين لإقليمين مختلفين اشتركا في حروب واحدة هي الحروب الصليبية تحت راية دولتين مختلفتين دولة نور الدين محمود في الشام تحت لواء الخلافة العباسية وشاعرها أسامة بن منقذ ،ودولة الخلافة الفاطمية في مصر وشاعرها طلائع بن رزيك،وأما قصيدة أسامة فكانت أشبه بالملاحم الكبرى التي تمجد الانتصارات[1] ،وتذكر أسماء أبطال المعارك وأماكنها

،ففي قصيدته التي علق فيها على أسر نور الدين قائد الفرنجة (جوسلين) يقول :

ونحن أسرْنا الجوسَلين ولم يكنْ

ليَخْشى من الأيام نائبة تعرُ

وكان يظُن الغرُّ أنًا نَبيـــــعُه

بمالٍ وكمْ ظنٌ به يهْـلِك الغرُ([2])

أما طلائع بن رزيك([3]) فقصيدته يبدأ بمستهل جهادي إيماني ،يوحي بالرغبة في مواصلة الجهاد إذ يقول :

ألا هَكذا في الله تمْضي العزائمُ

وتَمضِي لدَى الحرْب السُيوفُ الصوارمُ

وتُستنزلُ الأعداءُ من طَودِعِزهم

ولَيس سِوى سُمر الرمـــــاحِ سلالمُ

وتُغزي جيوشُ الكفرِ في عُقر دَارها

ويُوطأ حِمَـــاهَا ،والأُنوفُ ،رواغِـــمُ ([4])

ولئن كانت محطات التغيير في جنبات هذه الدولة تتسم بشمولية رغبتهم في إحراز نهضة شاملة موحدة ومربوطة بمنهج الدين الإسلامي الحنيف ،فإن شعر الحماسة والجهاد كان جناحاً قوياً من أجنحة هذا التغيير ورافداً مهماً من روافد ديمومته واستمراره.

---

١ الاتجاهات الفنية في الشعر إبان الحروب الصليبية /د.مسعد عيد العطوي /ص ١٥٨

٢)ديوان أسامة بن منقذ، تحقيق د. أحمد أحمد بدوي، عالم الكتب،القاهرة، د.ت. ص /٢٥٤

٣ طلائع بن رزيك:هو الملك الصالح أبو الغارات طلائع بنرزيك الأرمني ،كان والياً على قوص واسوان في صعيد مصر ،يقول عنه العماد في الخريدة :له قصائد مستحسنة كثيرة ،يذكر فيها قيامه بنصرة الإسلام،حارب الصليبيين كثيراًحتى أجلاهم من فلسطين ولذلك سمي أبو الغارات،تفي بعد تعرضه للقتل على يد أقرباءالخلفة الفاطمي العاضد سنة ٥٥٦هـ)من كتابشعر الجهاد في الحروب الصليبية /د.محمد الهرفي ص ٣٤٨-٣٤٩-٣٥٠بتصرف .

٤ ديوان أسامة /٢٢٠ وديوان طلائع بن رزيك /١٣٥

وختاما أقول :

إن الشعر الحماسي والذي كان السمة البارزة للحركة الشعرية في ذلك العصر،إنما كان يواكب حالة ،ويساير تيارا،ويناصر فكرة ،ويساند مشروعاً،ذلكم هو المشروع الإصلاحي الذي بدا معالمه ووضع لبناتها الشهيد عماد الدين زنكي ،ومن قبله الدولة السلجوقية ذات الصبغة الإسلامية، والمهد الذي نشأت فيه حركة المقاومة الإسلامية([1]) إبان الغزو الصليبي لبلاد الإسلام ،وحتى ظهور عماد الدين زنكي ،لتتضح معالم هذا المشروع على يد البطل والقائد الفذ نور الدين محمود ،وتتحقق آمال الأمة في الانتصار على الصليبيين ،واسترداد الحق الإسلامي المغصوب،وينطلق الشعر الحماسي يساير الرغبات الطامحة لاستكمال المشروع فيطالبون نور الدين بفتح بيت المقدس .

فيقول ابن القيسراني :

فَانهَض إلى المسجدِ الأقصَى بذي لجَبٍ

يُوليكَ أقْصى المُنىَ فالقُدسُ مرتَقِبُ

وائْذن لمَـــــوجِك في تَطهير سَاحِلِــه

فإنَــــمَا أنْت بَحْر لُــجُه لُـــــجبُ[2]

ولذلك ظل المشروع الإسلامي،يحمل الراية الجهادية،إلى أن تحققت الأماني العظام،وتحرر بيت المقدس على يد القائد الإصلاحي المجاهد صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين ودخول بيت المقدس عام ٥٨٣هـ ،ليساير الشعر هذه الملحمة الرائعة في العصر الأيوبي ،كما سايرها في العصر الزنكي،جيلاً بعد جيل تصنع الأحداث ،وتحمي النهضات ،وتؤازر القادة ،وتثبت أن الكلمة الصادقة تصنع ما يصنع السيف وأكثر،وقد قيل: إن تأليف قصيدة أو إنتاج رواية تخدم قضية قد يعادل بناء مسجد في تأثيرها ونتاجها،وللشعر في هذه الحقبة آثاره الواضحة في نقل المجتمع والتأثير على وجدانه بما يتماشى مع متطلب المرحلة .

(والشعر الحماسي الذي ظهر في عصر الحروب الصليبية،يختلف اختلافاً كبيراً مع الشعر الحماسي الذي قالته العرب قديماً،فالشعر الحماسي القديم كانت دوافعه متعددة منها القبلي ،ومنها الحدث الآني الذي لايرتبط بما قبله أو بعده ،أما الشعر الحماسي في هذا العصر فكان

---

١ السلاجقة/د.محمد علي الصلابي/دار التوزيع والنشر الإسلامية /ط٢٠٠٦م /القاهرة ./ص١١

١كتاب نور الدين في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية /محمود فايز السرطاوي /ص١٧٢

الباعث فيه هو الدين وحده ،ولم يعد ثمة ظهور للقبيلة أو التعصب الجنسي)([1])،فالفرد عضو في جيش ضخم كبير تتلاشى قدراته وتتوازى أمانيه مع أماني أمته وجيشه ،والمجال الأوسع للشعر هو ما يتعلق بالبطولة الجماعية ،والكسب الجمعي للجيش ،وهذا ماكانت تتسم به إدارة ذلك العصر حتى في غير المجالات العسكرية،فالقادة أنفسهم لم تطمح رغباتهم لتغيير فـــردي يرتبط بأسمائهم ،وإنما كان تغييراً يتسم بشمولية رغبتهم في إحراز نهضة شـــاملة موحـــدة ومربوطة بمنهج الدين الإسلامي الحنيف ،ولذلك انضم شعر الحماسة والجهاد ليكون جناحـــاً قوياً من أجنحة هذا التغيير ورافداً مهماً من روافد ديمومته واستمراره.

---

٢ الحياةالأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام/دأحمد بدي /دار نهضة مصر /الفجالة /الطبعة الثانية /القاهرة /ص٥٠٦

الفصل الأول
المؤثرات التي أثرت في شعر الحماسة
في عصر الدولة الزنكية

- العامل السياسي.
- العامل الاجتماعي.
- العامل العسكري والجهادي .
- العامل الثقافي والعلمي.
- العامل الاقتصادي .
- العامل الديني والمذهبي .

الفصل الأول : الواقع الذي نشأ فيه هذا الأدب

المبحث الأول: الواقع السياسي

ثمة حقيقة ظاهرة برزت في أوائل القرن السادس الهجري- الثاني عشر الميلادي ،هي أن المجتمع الإسلامي قبيل ظهور الدولة الزنكية كان يسوده جو من التعقيد الذي اكتنف وضعه السياسي والاقتصادي والديني فقد كانت تحكمه قوى مختلفة ،متناقضة فيما بينها ،وكثيراًما كان الصراع سمة ذلك التناقض من أجل البقاء أو السيطرة .،وتفشي ظاهرة توزع الولاءات السياسية بين الخلافة العباسية في بغداد ،التي تمثل روح المذهب السني ،والدولة الفاطمية في القاهرة المدافعة عن المذهب الشيعي – الإسماعيلية ،لكن أوضاعهما الداخلية كانت مرتبكة وكانت كل قوى تحمل عوامل ضعفها في نفسها بفعل ماكان يدور بينها وبين القوى الأخرى من منازعات ،مما جعل بلاد الشام – وهي المجال الحيوي للصراع المذهبي نظرا لأهميتها السياسية والدينية والاقتصادية – موزعة بين عدة إمارات صغير ة مستقلة أو شبه مستقلة([1]).

فبالنسبة للخلافة العباسية ،التي كانت منذ نهاية القرن الثالث الهجري قد اعتمدت النظام اللامركزي لإدارة الدولة مماسمح بتكوين دول انفصالية في إدارتها لكنها تابعة لدولة الخلافة في ولائها السياسي والعسكري والديني ،ومن هذه الدول التي انفصلت إدارياً،الدولة السلجوقية ،والإمارات الأتابكية في بلاد الشام والموصل ([2])،والواقع أن الدولة السلجوقية ظلت بعد قيامها بخراسان وفارس ذراعاً داعماً للخلافة العباسية التي لم يتردد الخليفة العباسي القائم بأمر الله في الاستعانة بها للقضاء على البويهيين الغزنوين في بغداد سيما بعد انتصارهم الكبير عليهم في موقعة داندقان عام ٤٣١هـ،تلك المعركة التي كان من أهم نتائجها هي قيام هذه السلطنة الإسلامية الجديدة بعد انحسار السلطنة الإسلامية السابقة لها ،كما أثرت هذه المعركة على سير الأحداث فيما بعد ،إذ تعدت هذه الآثار حدود العالم الإسلامي لما بعدها ([3]) ،وإذا ذكرت داندقان بكل آثارها فلابد من ذكر موقعة ملاذ كرد ([4])الشهيرة التي

---

١ تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ،د.محمد سهيل طقوش ،دار النفائس،بيروت لبنان ،ط١ ١٤١٩-١٩٩٩م ص١٧

٢تاريخ الدولة العباسية /محمد سهيل طقوش/ص١٥٦-١٦٠

٣ كتاب دولة السلاجقة /د/محمد الصلابي /ص٢٩

٤ الحسيني :ص٢٦-٥٣ملاذكرد أو مانزيكرت:بلد بين خلاط وبلاد الروم (آسيا الصغرى) في شمالي بحيرة وان .

فتحت أبواب الأناضول أمام السلاجقة لينسابوا فيه ،وقد برزت أهمية هذا الفتح الكبير في أنه تحقق من خلاله لألب أرسلان هدفه إذ كفل الحماية لجناح جيشه وأزال خطر التقارب بين بيزنطة والفاطميين ،ومن آثار هذا الفتح المبارك أن السلاجقة انساحوا في آسيا الصغرى ،وضموا إلى ديار الإسلام مساحة تزيد عن ٤٠٠ألف كم،لم يكن قد دخلها من قبل([1])، وإذا كان انتصار السلاجقة في ملاذ كرد قدصنع واقعاً جهادياً مشرقا فتح شهية القادة المتتابعين على مواصلة هذه الفتوحات ،بدليل أنها كانت المقدمة الطبيعية لفتح الأتراك العثمانيين لكل بلاد بيزنطة والقضاء التام على الدولة البيزنطية ،فإن الصلة بموضوعنا تظهر من أن الدولة الزنكية وهي في منتصف المسافة بين الدولة العثمانية والدولة السلجوقية قد أفيدت من هذا الفتح العظيم الذي لايقل عن أهمية عن اليرموك ونتائجها ،فقد قررت اليرموك مصير بلاد الشام ،أما ملاذ كرد فقد قررت وبنفس الحسم والقوة مصير آسيا الصغرى[2] ،ومهدت لمحمد الفاتح أن يجتث القطعة الباقية من الجسد البيزنطي الممزق ليضمه إلى ذويه من الجسد الإسلامي العظيم في فتح القسطنطينية .

أما القوة الكبرى التالية للخلافة العباسية فهي الدولة الفاطمية العبيدية التي ظهرت بظهور الإسماعيليين([3]) في اليمن ،ثم انتقلت إلى بلاد المغرب في عام (٢٨٨هـ/٩٠١م)لكن الفاطميين بعد ذلك أدركوا أن بلاد المغرب لاتصلح لأن تكون مركزا لدولتهم بسبب ضعف مواردها الاقتصادية ،فضلاًعن كثرة الاضطرابات فيها،لذلك اتجهت أنظارهم على مصر الغنية بمواردها ،بالإضافة إلى موقعها الهام بفعل قربها من بلا الشام ،مما يجعلها صالحة لإقامة دولة مستقلة تنافس دولة الخلافة العباسية على زعامة العالم الإسلامي.

---

١ كتاب دولة السلاجقة /د.محمد الصلابي ص٨٢.

٢ المصدرنفسه ص٨٢.

٣ ظهرت دعوة الإسماعيلية في اواخر عهد دولة الخلافة الأموية عندما انضم عدد كبير من الزيدية إلى طائفة الإمامية من أنصار جعفر الصادق ،وبعد وفاته انقسمت الشيعة الإمامية إلى قسمين بفعل اختلاف الرأي في كيفية تحديد الحق الوراثي لاختيار الإمام ،وهما الإمامية والموسوية ،وقد أطلق عليهما فيما بعد (الاثنا عشرية)،اعتقد أتباعهما بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق وهو عندهم الإمام السابع ،والأمامية الإسماعيلية الذين اعتقدوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق ،وهو أكبر أولاد أبيه ،ومع أن وفاته حصلت في حياة أبيه ،فقد حول أتباعه الإمامة إلى ابنه محمد المستور ،وهو عندهم الإمام السابع نومن ثم أطلق على هذه الطائفة اسم السبعة أو الإسماعيلية لتمييزهم عن الإثنى عشرية .

كانت الأوضاع السياسية والعسكرية آنذاك مواتية ،فالدولة الإخشيدية ([1]) كانت تمر في مراحل شيخوختها بعد وفاة كافور في عام (٣٥٧هـ- ٩٦٨م)وعدم وجود شخصية قوية تستطيع ملء الفراغ الذي تركه،وعمتها الاضطرابات بفعل صغر سن حفيده ،وخليفته أبو الفوارس أحمد ،فاستغل الخليفة المعز لدين الله الفاطمي هذه الحالة السيئة واستولى على البلاد في عام (٣٥٨هـ-/٩٦٩م).

شكلت الدولة الفاطمية تحدياً للزعامة الدينية السنية في بغداد ،وحتى تؤكد زعامتها على العالم الإسلامي ،ورغبة في تأمين حدود مصر من ناحية الشمال الشرقي،والتصدي للصليبيين - تحتم على الفاطميين بعد أن انتهوا من الاستيلاء على مصر ،واستقروا فيها -،أن يولوا وجههم شطر الشرق الإسلامي نحو بلاد الشام وجعلوا هذا الأمر هدفهم الرئيسي.

واستطاعوا بين أعوام (٤٣٠-٤٥٠هـ/١٠٣٨-١٠٥٨م)أن يوطدوا مركزهم فيها ،فبسطوا هيمنة سياسية على معظم أجزائها ،وبذلك أضحت مصر وملحقاتها في بلاد الشام حتى دمشق تابعة للفاطميين .

وهكذا قدر للعالم الإسلامي في الشرق الأدنى أن يظل طوال قرنين من الزمان (٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١٧١١م)منقسما على نفسه بين مذهبين مختلفين ،مما ترك أثراًخطيراًعلى قوة المسلمين ،ظهرت نتائجه في عهد الحروب الصليبية ([2])،وشهد القرن الخامس الهجري ،الحادي عشر الميلادي ،صراعا بين السلاجقة المدافعين عن المذهب السني ،وبين الفاطميين المدافعين عن المذهب الشيعي – الإسماعيلي .

وهنا وفي ظل هذا الصراع المائج يظهر طوفان الحركة الصليبية على العالم الإسلامي عبر ثماني حملات ولد قرارها،ونشأت فكرتها في مؤتمر كلير مونت الشهير عام (٤٨٨هـ/١٠٩٥م)([3])

تمكن الصليبيون خلال الحملة الأولى من تأسيس أربع إمارات بالمشرق الإسلامي هي على الترتيب (إمارة الرها٤٩١هـ-١٠٩٨م) (إمارة إنطاكية ٤٩١هـ-١٠٩٨م) (مملكة بيت المقدس ٤٩٢هـ-١٠٩٩م) (إمارة طرابلس ٥٠٢هـ-١١٠٩م).

---

١ الدولة الإخشيدية (٣٢٣-٣٥٨هـ/٩٣٥-٩٦٩م)أسسها محمد بن طغج بن جف الملقب بالإخشيد .ابن تغري بردي :النجوم الزاهرة ج٣ص٢٥١

٢ الحركة الصليبيّة، د.سعيد عبد الفتاح عاشور، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،ط٢، ١٩٧٦. ج١ ص٦٣.

٣ كتاب تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام /محمد سهيل طقوش/ص ٣١

غير أن استقرار الغزاة الطامعين لم يكن ليقابل بالوداعة والاستسلام من كل القوى والممالك الإسلامية المعاصرة لهذا العدوان الغاشم ،بل احتدمت المواجهات بين السلاجقة تدعمهم الخلافة العباسية ،ماجعل الصليبيين يعانون لنصف قرن من الزمان،حتى الفاطميين لم يستمروا في التحالف مع الصليبيين حين تكشفت لهم طبيعة الخيانة والغدر اللذين كان الصليبيون عليهما([1])،

وفي ظل هذا الواقع الذي تصنعه أطراف عدة – كما سبقت الإشارة لبعضها- تظهر حركة المقاومة السلجوقية لتشمل كل مظاهر الحياة العلمية والثقافية والعسكرية والدينية وحتى الأدبية مما خلق جواًمن الاستنفار العام والاتجاه نحو وحدة الصفوف لمواجهة العدو الأكبر ،فكانت الحملات السلجوقية ضد الصليبيين منطلقة من حلب والموصل ودمشق ،وهي مناطق رفعت رأس الجهاد والرفض للوجود الصليبي بالمنطقة ،كما احتضنت لواء القتال الضاري ضد هذا الوجود ،مما كان لذلك أثره في ظهور قادة ومجاهدين سلاجقة برزت إمكاناتهم وظهرت عبقريتهم الحربية فتبوؤوا مكانة بارزة في تغيير الأحداث ،وكان لهم – بعد الله- الفضل الأكبر في إحراز العديد من الانتصارات،ومن هؤلاء نذكر ،قسيم الدولة (آق سنقر) والد عماد الدين زنكي والذي كان في بادئ أمره مملوكا تركيا لدى السلطان السلجوقي ألب أرسلان ،فدرج في كنفه ،وترعرع وربى مع ابنه جلال الدولة ملكشاه ،واستمرت صحبته له حتى ولي السلطنة بعد وفاة سيده ،فارتفعت منزلته ،وسمت مكانته ،ونبه شأنه فلقب بقسيم الدولة([2])،وسنقر هو أول حاكم([3]) سلجوقي لإمارة حلب،ودام حكمه ثماني سنوات،كانت مرحلة هامة في تاريخ الإمارة والمنطقة بفعل أنها أحدثت تغييرات أساسية شملت كل جوانب الحياة ([4])،والتغيير الأهم لهذا الحدث هو أن سنقر كان قد خلف ولده الوحيد عماد الدين زنكي الذي خدم لدى أتابكة الموصل منذ عام ٤٨٩هـ- عند كوبوغا الذي اعتنى به لما كانت

---

١ الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي /د.راغب السرجاني /ص٤٣٤.

٢ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكيّة بالموصل، عز الدين ابن الأثير ،تحقيق عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة ومكتبة المثنى، القاهرة وبغداد،١٩٦٣.ص٤

٣ آق سنقر البرسقي :آق سنقر بن عبدالله آل ترغان ،ينتمي إلى قبائل (السبايو)،التركمانية ،وحظي لدى السلطان السلجوقي ملكشاه على مكانة عالية حتى لقب بقسيم الدولة ،فكان من أبرز قادته ،تولى حلب ،فقادها خير قيادة وساس أهلها خير سياسة ،ليكون أول سلجوقي يتولى قيادة هذاالبلد الكبير ،قتل على يد تتش بعد معركة حامية بينهما أسر بعدها وقتله تتش ،لكنه ترك ابنه عماد الدين ليكرر سيرة أبيه ،وليؤسس الدولة الزنكية بفعلاالجهد الكبير الذي بذله والده)من كتاب عصر الدولة الزنكية د.محمد الصلابي ص ٢٢-٣٠ بتصرف)

٤ زكار ،وسهيل:مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ،ص٢٠٩

تربطه بوالده آق سنقر علاقات وطيدة ،وظلت مكانة عماد الدين في زيادة ومكنة لدى سلاطين السلاجقة ،انتهت بتولية عماد الدين ولاية الموصل وذلك عام ٥٢١هـ-١١٢٧م)([1])وباعتلاء عماد الدين([2]) سدة الحكم في الموصل يكون هذا التاريخ هو بداية قيام الدولة الزنكية،بفعل مابذله عماد الدين من جهد ، تكلل بضم حلب بعداستقرارالموصل وذلك في عام ٥٢٢هـ-١١٢٨م ،مما فتح الطريق لضم سنجار ،وحران،وإربل،والرقة ،ودموقا،وشهرزور،وفي العام ٥٣٩هـ تم لعماد الدين الفتح الأشهر في حياته العسكرية وهو فتح الرهاأكبر الإمارات الصليبية في الشام وأولها وجوداً،وفي العام ٥٤١هـ - ١١٤٦ م توجه لحصار قلعة جعبر ،والتي كان بها مقتله غيلة على يد الباطنيين([3])،لكنه استطاع أن يؤسس خلال مدة قصيرة نسبياً ،دولة قوية متماسكة شملت حدودوها مابين شهرورزور شرقاً إلى سواحل بلاد الشام غرباً،ومن آمد وديار بكر شمالا إلى الحديثة جنوباً،ودولة بهذا التوسع خلال هذه المدة تؤكد بما لايدع مجالا للشك خطورة الدور الذي لعبه عماد الدين زنكي في التاريخ الإسلامي عموماً،ليبرز طور جديد من التاريخ السياسي لهذه الدولة على يد أبناء عماد الدين الذين كانوا أربعة ذكورهم(سيف الدين غازي،نورالدين محمود،نصرة الدين أمير أميران ،وأبو الملوك قطب الدين مودود وهو أصغرهم).

وتوافق الأربعة على حماية إرث أبيهم فلم يدب بينهم خلاف يؤثر على استقرار الدولة الناشئة في مهدها ،ولذلك تقاسم الإخوة إدارة الإمارات على النحو التالي:

- تقسم المملكة الزنكية إلى قسمين ،القسم الشرقي تحت حكم ابنه غازي الأول ومقره الموصل،والقسم الغربي تحت حكم ابنه نور الدين ومقره حلب ،ونهر الخابور هو الحد الفاصل بين أملاك الأخوين .
- يتولى غازي الأول المشاكل الداخلية مع كل من الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية في العراق .

---

[1] التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ص٣٢-٣٤

٢ عماد الدين زنكي : ولد عماد الدين سنة ٤٧٧هـ،وكان أبوه من كبار قادة ملكشاه السلجوقي ،توفي والده وهو ابن عشر سنين ،وعاش ع أمه التي ماتت سنة ٥٢٩هـبعد أن رأت ابنها يحكم الموصل ،تزوج اربعة زوجات ،ورزق أربعة أولاد (سيف الدين غازي،نور الدين محمود ،قطب الدين مودود ،نصرة الدين أميران)،تولى قيادة الموصل عام ٥٢١هـ ،وأسس بذلك الدولة الزنكية التي استمرت حتى نهاية القرن السادس تناوش العدو ،وقتل وهو يحاصر قلعة جعبر على يد خادم له بفعل الباطنية عام ٥٤١هـ ،رحمه الله وجزاه عن الاسلام والمسلمين خيراً)(من كتاب عصر الدولة الزنكية /د.محمدعلي الصلابي/ص ٣١-٣٤بتصرف)

٣ نور الدين والصليبيون /حسن حبشي/ص٤٠.

- يحمي غازي الأول الإمارة من غارات سلاجقة فارس.
- يحمي ثغور الإمارة الشمالية من تعديات سلاجقة الروم والدانشمندين والبيزنطيين في آسيا الصغرى
- أما القسم الغربي ،فقد ورث نور الدين محمود([1]) المشكلتين الكبيرتين المتمثلتين في اتابكية دمشق ،والإمارة الصليبية المنتشرة في مختلف بلاد الشام ([2]).

ولاريب أن نور الدين محمود،قد أدخل الدولة الزنكية مرحلة جديدة من التطور والشهرة ،وطوراًمختلفاًمن التأثير في قواعد العمل السياسي والجهادي والتنموي والعمراني،استكمل به مابدأه والده من قبل،فكانت دولة نور الدين مثالا متكاملا للمشروع الإسلامي الناهض،في احتوائه للمشاكل الداخلية وعلاقاته المتوازنة بأطرافها ،مع المضي دون هوادة في تحقيق الوحدة الإسلامية التي وضع والده أركانها وأسسها فضم دمشق عام ٥٤٩هـ /١١٥٤م ،فكان ذلك فتح الفتوح،يقول أبو شامة :فقد كان أبغض الأشياء إليهم أن يملك نور الدين دمشق،لأنه كان يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له دمشق ،فكيف إذا أخذها وقوي بها ؟([3]) ،وأضحت الدولة الزنكية متصلة من الشمال إلى الجنوب([4])،وتوالت الفتوحات فمن عام ٥٤١هـ إلى عام ٥٦٩هـ ،وهو العام الذي توفي فيه نور الدين ،غزا نور الدين مايزيد عن عشرين غزوا لم يهزم إلا في بعضها مما أورده القلانسي حكاية عن هزيمة نور الدين في عام٥٤٣هـ ([5]) ،وكان أعظم هذه الفتوح وأقواها ،وأكثرها تأثيرا في الأحداث التالية فتح مصر عام ٥٦٤هـ ،وقد كان لهذا الحدث ارتباط وثيق ببداية الظهور الأيوبي على مسرح الأحداث السياسي لهذا العصر ،إذ كان لنور الدين عند وفاته ابنه الملك الصالح،الذي ولي

---

١ نور الدين محمود :صاحب الشام ،الملك العادل ،أبو القاسم محمود الأتابك ،بن قسيم الدولة أبي سعيد –عماد الدين – زنكي بن الأمير الكبير آق سنقر التركي السلطاني الملكشاهي ،ولد سنة ٥١١هـ،لازم والده في خدمة ملكشاه حتى قتل والده عام ٥٤١هـ ،تزوج نور الدين من ابنة حاكم دمشق معينالدين وأنجب منها (الصالح اسماعيل وأحمد)،تولى القياة بعد مقتل والده فقاد البلاد خير قيادة ،وسار بها أحسن مسيرة ،قاوم الصليبيين واسترد من المقدسات ما هيأ لفتح بيت المقدس على يد صلاح الدين من بعده،توفي عام ٥٦٩هـ رحمه الله) من كتاب عصر الدولة الزنكية د.محمد الصلابي ص ١٦٤بتصرف)

٢ تاريخ الزنكيين في الموصل و بلاد الشام/د.محمد سهيل طقوش / ص١٦٨/١٦٩.

٣ كتاب الروضتين /٢٣٧/١

٤ عصر الدولة الزنكية ،د.محمد علي الصلابي ،مؤسسة اقرأ،الطبعة الأولى١٤٢٨/٢٠٠٧م.ص٤٥٥

٥ ذيل تلريخ دمشق /أبو يعلى حمزة ابن القلانيب/تحقيق أميدروز/طبعة بيروت ١٩٠٨م ص٣٠٢-٣٠٣

الخلافة صغيراً،ومات سنة ٥٧٧هـ عن عمر لايزيد عن تسع عشرة سنة،وبوفاته تبدأا لحقبة الأيوبية ،وتنتهي الفترة الزنكية من عام ٥٢١هـ إلى عام ٥٧٧هـ ،مايزيد على نصف قرن وضعت فيها الأسس التي سار عليها صلاح الدين الأيوبي واسترجع بعد جهاد طويل بيت المقدس لتتحقق أمنيات القادة السابقين له عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود ،ولتتحقق نتائج المشروع الإسلامي الذي بدأه السلاجقة الأتراك ثم الزنكيون .

وفي نهاية هذاالتطواف في المدار السياسي الذي اكتنف نشأة الدولة الزنكية وقف الأدب بكل أنواعه يسجل المواقف ويصف الأحداث ،فقد كان الشعراء يرفعون سيف الكلمة كما يرفع الجنود سيف الحديد فيهوي كلاهما على رؤوس الأعداء مطيحاًبها محققا الانتصار تلو الآخرفهذ ابن القيسراني([١]) يمدح نور الدين عند فتحه حصن حارم وبارين،لكنه ليس مدحا فقط بل إثارة همته نحو بيت المقدس فيقول :

فانهضْ إلى المسجدِ الأقصَى بِذي لُجَبٍ

يُوليكَ أقصَى المُنى فالقدسُ مرتقِبُ

وائْذَن لموجك في تطهير ساحله

فإنما أنت بحر لجه لجبُ

وهذا ابن منير الطرابلسي في قصيدته التي يمدح فيها نور الدين يظهر منه نفس ما سبق من ابن القيسراني فهو يدعو الله أن يحفظه ،وأن يطيل في عمره حتى يفتح بيت المقدس فيقول:

أبقاك للدنيا وللدين من

خلال في ليلها نيراً

حتى ترى عيسى من القدس قد

لجا إلى سيفك منتصراً([٢])

هكذا وبكل وضوح يظهر أن الأدب – والشعر الجهادي منه بخاصة – وقف طوال نصف قرن من الزمان يصدح بالنصر ثم يعقبه بما يجب أن يأتي بعده من انتصار تنتظره الأمة فإذا بالقادة وهم في ثغور الجهاد تتشوق نفوسهم لنصر آخر،حتى إن نشوة الفتوح المتوالية جعلت

---

١ الروضت الرّوضتين في أخبار الدّولتين النّوريّة والصلاحيّة، أبو شامة المقدسيّ:

أ ــ الجزء الأول ،تحقيق محمد حلمي ،المؤسسة المصّرية العامّة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ،القاهرة ،١٩٦٢.

٢ المرجع نفسه ج١ص٥٧

نورا لدين يأمر الاختريني بعمل منبر جميل لينصب في بيت المقدس يوم الفتح المرتقب – هذا طبعا قبل أن يفتح– وذلك من شدة الاستثارة والتحريض من الشعراء ([1])

١ تاريخ الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك /دعمر موسى باشا /ص٤٨٢

المبحث الثاني

الواقع الاجتماعي الذي نشأ فيه الأدب في العصر الزنكي

بنية المجتمع أيام الزنكيين .

يعتبر النظام الطبقي السائد في عهد الزنكيين استمرارا للعصور التاريخية السابقة ،وقد قسم المجتمع على عدة فئات وهي :

١- الحكام:اعتمد الزنكيون في حكمهم للبلاد على أبناء جلدتهم من الأتراك لأن قنطاريات الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك وأن الفرنج لايخافون إلا منهم،وكانت الطبقة الحاكمة ترأف بالعامة .

٢- هيئة العلماء:وهم رجال الدين وقد نالوا حظاًوافراًمن العلم واحترام الأمراء الزنكيين والطبقات المختلفة ،وقد اعتمد الزنكيون على العلماء وكانوا يتبركون بهم ،ويطلبون منهم حث المسلمين على القتال ،وكان من بين علماء الدولة الزنكية العالم المشهور كمال الدين الشهرزوري الذي اشتهر بتحري الشرع أثناء حكم نور الدين زنكي.

٣- طوائف الشعب: كانت طوائف الشعب تتكون من العرب والأكراد والتركمان وغيرهم ،وكان العرب يشكلون معظم السكان ،وكانت جميع هذه الطوائف تعامل معاملة واحدة إلى حد كبير ،إلا أن الفلاحين كانوا يشكلون السواد الأعظم من الشعب ،ويبدو أنهم كانوا في وضع سيء،لأن الإقطاع كان سائداً في البلاد.

ولكل فئة من هؤلاء أثر على الأدب والأدباء،فالحكام كانوا بدءاً بعماد الدين مثالاًللصلاح والتقوى والعدل،فقد كان عماد الدين رجلاًذا هيبة ووقار،طويل الفكر ،كتوماًلايعلن عما ينوبه ،إلابعد أن يتخذالأهبة الكاملة،وكان يختار الرجال الأكفاء ،الذين أخلصوا له،وكانوا دعائم دولته،وقد وضع زنكي عدة مبادئ لتنظيم السلم الوظيفي في بلاده منها :

- **مبدأ تكافؤ الفرص في المجال الإداري ،فلايرفع أحداًفو قدره الذي يستحقه ،ولايضعه دونه .**
- **مبدأ الثقة على قدر المعرفة،فكان لايعطي الثقة في العامل إلا على قدر مايعلم منهم من حسن لأداء .**
- **مبدأكفاءة الشخص ،فقدجعلمن كفاءة الشخص أساساًلتقدير راتبه([1])**

---

١ تاريخ الحروب الصليبية /عصر الدولة الزنكية /د.محمد الصلابي / ص ٥٨

- مبدأ المركزية في الحكم ،فقد كان يقول :مايتفق أن يكون أكثر من ظالم واحد – يعني نفسه ،وكلمة ظالم هنا تعني السيطرة الفردية على مقاليد الحكم([1])وصلة الأمن بالناحية الاجتماعية واضحة ،إذ يمكِن الأمن كل فرد من العطاء والإبداع ،والارتباط واضح بين النظرية الامنية والاستقرار في أي عصر وفي أي مكان ،ولذلك كان بسط الأمن هدفاً أساسياًعند عماد الدين زنكي ،فقد استطاع أن يفرض الأمن ،حيث نشر العمران وقضى على المفسدين ،فقد كان لايبقي على مفسد([2]).

سلك عماد الدين مسلكاًأسهم في الناحية الاجتماعية إسهاماًجيدا، فقد اتبع سياسة الترحيل،والتي كانت تقوم على توطين جماعة من مكان لآخر لتحقيق الحماية ونشر العمران ،وقد استفاد زنكي من هذا العمل كثيراً في توطيد الأمن ونشر العمران ([3])،وهكذا سار الحال جنباًإلى جنب فعماد الدين يسجل الانتصار تلو الآخر في المجال العسكري ،واستقرار يعززه آخرفي المجال الجتماعي،حتى أتى زمان نور الدين فحمل الراية عن أبيه ،وانطلق نور الدين في إضافة أبعاد من الشمولية في مشروعه الإصلاحي الكبير ،ومايخص الناحية الاجتماعية موضوع مبحثنا في زمن نور الدين يمكن تلخيصه فيما يلي :

– نزعته للبناء والتعمير:فقد توسع في بناء المساجد والمدارس،والربط والتكايا ،للتعبد والتربية والارتقاء الروحي للأمة،كما أنشأ دور الحديث،وبنى دوراًللأيتام لإيواء أطفال المسلمين،وقد عبر الرحالة ابن جبير أصدق تعبير بعد وصفه مدينة دمشق إذيقول :

(وليس في هذه البلاد كلهابلدة أحسن منها للغريب،لأن المرافق بها كثيرة،وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد،وأحسنها انتظاماً،وأبدعها صنعاً)([4]) .

– اتباعه العدل في سياسةملكه:فقد سجل التاريخ أن نور الدين ساد العدل في دولته،وتم إيصال الحقوق لأهلها ،فنشط الناس في الجهاد في سبيل الله،للدفاع عن البلاد والأوطان والأعراض([5])– اهتمامه بنشر الأمن في ربوع البلاد :يعلق ابن الأثيرعلى ذلك فيقول :

---

١ تاريخ الحروب الصليبية /عصر الدولة الزنكية /د.محمد الصلابي / ص ٥٨

٢ عماد الدين زنكي /د.عماد الدين خليل /٢٧٠

٣ المصدر نفسه ص٢٧٤

٤ تاريخ الحروب الصليبية /عصر الدولة الزنكية /د.محمد الصلابي/ص ١٨٠.

٥ دروس وتأملات في الحروب الصليبية /أبو فارس /دار جهينة /الأردن /عمان /الطبعة الأولى -١٤٢٢-٢٠٠٢م ص٢٠٥

قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين من قبل الإسلام إلى يومنا هذا فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكاًأحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ،ولا أكثر تحرياًللعدل والإنصاف منه،قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره ،وجهاد يتجهز له ،ومظلمة يزيلها ،وعبادة يقوم بها وإحسان يوليه،وإنعام يسديه ،فلو كان في أمة لافتخرت به ،فكيف في بيت واحد ([1]) ولذلك كله كانت الحريات مكفولة ،ولكل إنسان حق القول طالما أنه الحق ،وهنا تذكر قصة وطيدة الصلة بتأثير ذلك على الأدب والشعر ،فأدب والأدباء هم أكثر الناس إفادة من أجواء الحرية ،يذكر أن وزير نور الدين موفق الدين خالد القيسراني الشاعررأى في منامه أنه يغسل ثيابه وقص ذلك على نور الدين،ففكر نور الدين ساعة ثم أمره بكتابة إسقاط المكوس وقال :هذا تفسير منامك ،وكان في تهجده يقول :اللهم ارحم العشار المكاس ،ثم طلب الحل والاعتذار من الناس قائلاً:والله ما صرفناها إلا في جهاد عدو الإسلام ،وكان في تلك الأثناء قد وعظه أبو عثمان المنتخب ابن أبي محمد البحتري الواسطي فقال في قصيدة قوية ،تدل على أن الناس كانت تتكلم بلاوجل ولاخوف:

مثِل وقوفك أيها المغرور

يوم القيامة والسماء تمورُ

إن قيل نور الدين رحت مسلماً

فاحذر بأن تبقى وما لك نورُ

أنهيت عن شرب الخمور وأنت من

كأس المظالم طاحن مخمورُ

عطلت كاسات المدام تعففاً

وعليك كاسات الحرام تدورُ

ماذا تقول إذا نقلت إلى البلى

فرداًوجاءك منكر ونكيرُ

ويظل يهدر بالنصيحة القوية المزلزلة ،حتى يقول له :

مهد لنفسك حجة تنجو بها

يوم المعاد لك المعذورُ ([2])

---

١ تاريخ الحروب الصليبية /عصر الدولة الزنكية /د.محمد الصلابي/ص ١٤٤.،

٢) نور الدين محمود زنكي ،شخصيته وعصره . د.محمدعلي الصلابي،دار الأندلس ،الطبعة الأولى ،١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م /ص ١٠٥.

بهذ القوة كانت حرية التعبير خلال فترة العدل لنور الدين الملك العادل ،فلما سمعهابكى ،وأمر بوضع المكوس والضرائب في سائر بلاده ،رحمه الله ،وأعاد للأمة أيامها الخوالي .

أما العلماء فقد كانوا محل الاهتمام الأكبر من القيادة المؤمنة في هذا الزمان،فالعلاقة بين العلم والمجتمع والعلماء أقوى من أن يشار إليهابتفصيل ،فالعلماء هم الذين يوجهون بوصلة الأمة نحو الاتجاه الصحيح ،ومن العلماء المتخصصين في الأدب والشعروالكتاب،فلن يجد العالم حريته في الأجواء الموبوءة بداء نفاق الساسة،المتدهنون بدهان الحرص على لقمة مغموسة بذل القلم ورخص الكلمة ، ولذلك تحولت دمشق إلى كعبة هاجر العلماء إليها من كل مكان ،حتى إن أبا شامة يصف دمشق فيقول :

كانت خالية من العلم وأهله ،وفي زمان نور الدين صارت مقراًللعلماء والفقهاء والصوفية ([1])

ولذلك انطلق الشعراء بحرية تامة يروون تاريخ الأمة ويمجدون أبطالها دون تزييف للحقائق فيقول ابن منير مادحاًنور الدين بمدائح تصف حال وخصائص مجتمع المجتمع أيام الزنكيين :

أولست من ملأ البسيطة عدلهُ

واجتب بالمعروف أنف المنكرِ

حدَب الأب البر الكبير ورأفةُ

الأم الحفية باليتيم الأصغرِ

ياهضبة الإسلام من يعصم بها

يأمن ومن يتول عنها يكفرِ ([2])

---

١ نور الدين محمود زنكي ،شخصيته وعصره . د.محمدعلي الصلابي،دار الأندلس ،الطبعة الأولى ،١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م /ص ١١٣.

٢ شعر الجهاد الشامي ص ١٦٨/ نقلاًعن نور الدين محمود /د.محمد الصلابي/ص ١٠٦.

المبحث الثالث

الواقع العسكري والجهادي

منذ العام ٥٢١هـ – وهو العام الذي تولى فيه عماد الدين سدة الحكم في باكورة وجود الدولة الزنكية– وراية الجهاد ومقارعة الصليبيين لم توضع أرضاً بدءاً من فتح حلب بعد استقرار الموصل وانتهاءً بالفتح الأكبر وهو فتح الرها عام٥٣٩هـ ،ثم ختم حياته المرابطة باستشهاده وهو يحاصر قلعة جعبر عام ٥٤١هـ، ثم يتولى بعد عماد الدين ابنه نور الدين – ولأن العدو مازال على حدود الأرض والعرض– فقد غزا نور الدين ما يقرب من ربع قرن من عام ٥٤١هـ إلى عام ٥٦٩هـ ،أتيحت له الفرصة ليخلص المسلمين من الصليبيين وليمهد لمن بعده تحقيق أهداف المشروع الأكبر وهو فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي .

والمشروع المنطلق بهذا الوضوح،وسط هذه التحديات لابد له من نظام عسكري يدير شؤونه ويدبر أمره،لذلك نجد عماد الدين ينشئ ديوان الجيش ليقوم بالإشراف على الجند وتوزيع رواتبهم وأعطياتهم بانتظام ([1]) ،كما عين عماد الدين أمير حاجب زنكي،وهو بمثابة وزير الدفاع في زمننا،كما تأثر عماد الدين بالنظام السلجوقي في نظامه العسكري ،وكان الجنود التركمان يمثلون الجزء الأكبر من تكوين جيشه ،إذ يقول القلانسي في التاريخ الباهر :(عندما حاصر زنكي الرها عام ٥٣٩هـ، كاتب طوائف التركمان بالاستدعاء إليه فوصل منهم الخلق الكثير ([2]).

ولأن الجيوش كانت كثيرة الرباط ،والمواجهة فقد كان السلاح الذي استخدمته متعدداً ،فقد ورد ذكر بعضا منها مثل :الدبوس ،والرماح ،والسيوف ،والقوس والسهام والنشاب ،والمنجنيقات ،و الدبابة،والكبش،والقلعة المتحركة ،والتي كانت تستخدم لنقل الجنود ،والمعدات إلى الأسوار لكي تحميهم من سهام الأعداء ونيرانهم ([3]).

وقد اتبع نور الدين سياسة والده في النهوض بالقوات العسكرية لاستكمال مشروع المقاومة وتحقيق هدف الوحدة ،فنهض يركز على الفاعلية والنوعية في اختيار الجنود ،وزاد في

---

١ عصر الدولة الزنكية /دعلي محمد الصلابي ص ٦٣

٢ تاريخ المماليك ص٢٧٦/عماد الدين زنكي /دعماد الدين خليل ص٢٠٥

٣ المرجع نفسه ص٢٠٥

حوافزهم ورواتبهم ،وتثبيت الإقطاع من أرض أو غنائم في أولادهم عند استشهادهم ،فكانوا يقولون :إنما هي أملاكنا نقاتل دونها ([1]) .

أما تأثر الأدب بهذه الواقع فيظهر في رواج حركة الشعر الجهادي ،وهذا النوع من الشعر لم يكن جديدا أو مستحدثا مع الحروب الصليبية فحسب بل كان متجذراً في الشعر العربي ،وممتداً من العصر الإسلامي الأول في ظل بروز فكرة الجهاد في سبيل الله ،وحدوث المواجهات المباشرة بين المسلمين والكفار ،وجدنا مواكبة الشعر للفتوحات الإسلامية ،فكان الشعراء يلهجون بوصف المعارك ،ويثيرون في النفوس الحمية الإسلامية ،ويدفعونهم للجهاد دفعاً،وللمثال على ذلك تبرز موقعة القادسية مثالاً واضحاً حيث برز غالب بن عبد الله الأسدي وهو يرتجز قائلاً:

قد علمتْ واردةُ المسَالح

ذاتُ البنانِ واللبانِ الواضح

أني سِهامُ البطل المُشايح

وفارجُ الأمرِ المُهم الفادح ([2])

فبرز إليه هرمز أحد أبطال الفرس فأسره غالب ،وخرج بعده من المسلمين عاصم بن عمرو التميمي،وهو يرتجز قائلاً:

قدعلمتْ بيضاءُ صفراءُ اللبَب

مثل اللُّجين إذا تغشَّاه الذَّهب

أني امروٌ لامن يَعينه السَّبب

مِثلي على مثلك يُغريه التَعب ([3])

ولما انتهت المعركة بانتصار المسلمين ،وقتل رستم قائد جيشهم ،قال القعقاع بن عمرو :

نَحن قتلنا معشراً وزائداَ

أربعـــــةً وخمسةً وواحداَ

نحسُب فوق اللبْد الأسَاودا

حتى إذا ماتُوا دعوتُ جاهدا([1])

١دور نور الدين في نهضة الأمةومقاومة غزو الفرنجة /عبدالقادر أحمد أبو صيني،رسالة دكتوراة /معهد التاريخ العربي والتراث العلمي /ص١٩٣.

٢ تاريخ الأمم والملوك /محمد بن جرير الطبري /دمشق /دار الفكر /١٣٩٩-١٩٧٩ ج٤ ص١١٧

٣ ، المرجع نفسه ج٤ ص١١٧

ولهذا لانستغرب أبداًإذاعرفنا أن الشعراء المسلمين في فترة الحروب الصليبية نهجوا نهج أسلافهم ،فتحدثوا عن المعارك ،ووصفوا المجاهدين ،ودفعوهم إلى الجهاد ،كما وصفوا الأعداء أيضاً،وحققوا بهذا العمل الجليل نفعاً عظيماً للأمة الإسلامية ([2]).

---

١ المرجع نفسه ج٤ ص١٣١.

٢شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام ،د.محمد علي الهرفي ،الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠ مؤسسةالرسالة .ص٢٩.

المبحث الرابع

الواقع الثقافي والعلمي في الدولة الزنكية

لم يقتصر نشاط الدولة الزنكية على النواحي السياسية والعسكرية الجليلة التي قامت بها فحسب ،بل سجل التاريخ لهذه الدولة نهضة كبيرة مزدهرة في المجالات الحضارية كافة ،وفي الميدان العلمي على وجه الخصوص،والذي اتخذه الزنكيون – منذ البداية مرتكزا للإصلاح السياسي والإداري في دولتهم ([1]) ،وكانت الصفة الجماعية للنشاط التعليمي الذي رافق الدولة الزنكية تبدو واضحة من تباري الوزراء والقادة والأغنياء والرجال والنساء في إنفاق أموالهم في بناء المدارس والمؤسسات التعليمية وتوفير الفرصة لجميع أفراد الأمة لدخولها والاستفادة منها (٢)

والأمم لاتنهض بالأعمال الفئوية النخبوية في بكور نهضتها،ولكنها تظل بحاجة لعمل مباشر مع الجمهور الأعظم عبر انتهاج سياسة عامة،ورؤية واضحة تنطلق من رسالة ثابتة المرتكزات ،ولئن تساءلنا،ماهي رؤية الدولة الزنكية لرسالة العلم ودوره في نهضة الدولة على كافة مستوياتها ؟؟؟؟تكون الإجابة التي تفرزها الوقائع وتترجمها الحقائق،أن رسالة هذه الدولة كانت الإسلام الشامل،لذلك نجدها التزمت بالإسلام عقيدة وعملا ومنهاجا،والتزمت بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة للجميع ،فأصلحت ما يمكن إصلاحه من أصحاب الاتجاهات والفلسفات الصوفية المنحرفة التي استطاعت الدولة الزنكية أن تنقيها مما علق بها من أتباع الفكر الباطني ،فأقامت لشيوخها الزوايا والربط ،وأنفقت عليهم الأموال ،وأمدتهم بالعطايا والهبات ،فأخرجت التصوف من أسر الفكر الباطني ،وبذلك أصبحت المؤسسات الصوفية تؤدي دورها التربوي ،ونشر السلوك الإسلامي وفق منهج أهل السنة والجماعة إلى جانب المدارس والمساجد بالتوجيه والإرشاد والتعليم والتهذيب ،حسب الخطة العامة للدولة ،وتحت إشراف المجلس التعليمي

---

١ الحياة العلمية في العهد الزنكي /د.إبراهيم المزيني/الطبعة الأولى /مكتبة الملك فهد الوطنية /١٤٢٤-٢٠٠٣م. ص٨

٢ هكذا ظهر جيل صلاح الدين ،وهكذا عادت القدس ،د.ماجدعرسان ،دار القلم ،الإمارات العربية الطبعةالثالثة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م ./ص ٢٥٨-٢٥٩

الأعلى الذي تكون من أهل الحل والعقد وهيئة كبار العلماء والمخلصين والقادة العسكريين والفقهاء والشيوخ المستنيرين)(١) .

(ولأن الأمة في تلك الحقبة كانت تواجه عدواًهو على حدودها رابض،لذلك كانت العناية خاصة لإعداد الأمة كلها للجهاد بكل أنواعه من الإعداد المادي والمعنوي وتربية النفوس ومجاهدتها في ذات الله ،ومجاهدة الشيطان والجهاد بالمال والنفس ،والتعبئة الروحية العالية وتربية الروح القتالية عند جميع أفراد الأمة دون أن يقتصر ذلك على طائفة دون أخرى ،بالإضافة إلى طائفة مختصة عنيت الدولة بإعدادها إعدادا ًقتالياًخالصاًوتدريبها تدريباًعسكرياًمتميزاً)(٢).

(وقد كانت الخطة التعليمية شاملة لكل مناحي العمل التعليمي المتكامل ،فبالنسبة للمعلمين كانوا محل اهتمام الدولة من ناحية توفير العيش الكريم ،أما اختيارهم فقد كان على درجة عالية من الدقة حيث كان من أهم ما يتطلبه تعليم الصبيان في المعلم أن يكون حافظا لكتاب الله،ملما ببعض علو م اللغة،وأصول الحساب والخط) (٣).

(وكان يشترط فيمن يقوم بتعليم الصبيان شروط خلقية كثيرة ،ذلك لأنه كلما زادت الخصال المحمودة في المؤدب زادت الصبي به تجملا ورفعة ،ولذلك زادت عناية الزنكيين ومن سار على نهجهم في إنشاء المدارس ودور التعليم المختلفة واختيار العلماء الأفذاذ للتدريس في مراكزهم وحرصوا على استجلاب من أسر عنه العلم الوافر ،والسمعة الحسنة بين العلماء وطلاب العلم ،كما حرصوا على أن يكون المدرس سليم العقيدة حتى يتوافق مع التوجيه الديني الشامل للدولة)(٤)

أما الطلاب فقد كانوا على <u>ثلاث درجات</u> :

- طلاب المرحلة الأولى:وهؤلاء كانوا محل اهتمام من الزنكيين ،إذ يقول ابن العربي الذي زار بلاد الشام في بداية القرن السادس الهجري /الثاني عشر الميلادي – أن للقوم في التعليم سيرة بديعة ،وهي أن الصغير منهم إذا عقل ،بعثوه إلى المكتب(٥).

---

١ نور الدين محمود زنكي/شخصيته وعصره /دعلي محمد الصلابي /ص ٢١٨دار الأندلس الجديدة/١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

٢لاطريق غير طريق الجهاد لتحرير المسجد الأقصى،د.مجاهد بن مجد الدين ،الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٤م ./ص٣٣٥

٣ مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة (٣١٧/٢)

٤ الحياة العلمية في العهد الزنكي/دإبراهيم المزيني/ ص ١٧٠

٥ المصدر نفسه ص ١٩٣

- طلاب المرحلة العليا :يطلق على هذه الفئة من الطلبة في بعض الأحيان لقب الفقهاء وقد غلب إطلاق هذا اللقب في العهد الزنكي على طلاب المدارس ،ويمكن تصنيف هذا النوع من الطلبة إلى صنفين :طلبة عارضين ،وطلبة منتظمين ،فالصف الأول يشمل أعدادا كبيرة من أصحاب الحرف والعمال وغيرهم ممن يحضر الدروس بين حين وآخر ،ولاسيما مجالس الوعظ والإملاء وحلق التعليم العامة ،غير أنهم لايواصلون دراستهم ولا يواظبون على الحضور ،وهؤلاء يمثلون أضعاف أعداد الطلاب المنتظمين .
- الطلبة المنتظمون : وكانوا يقضون شطراًكبيراًمن حياتهم في طلب العلم وحده ،ولكن ذلك لايمنع اشتغالهم بكسب الرزق (١)،جدير بالذكر أن اهتمام الزنكيين بالتعليم الشامل للجنسين كان على درجة واحدة من الجهد إذ أشارت كتب التراجم والطبقات على النشاط العلمي الملموس لهذه الفئة في العهد الزنكي حيث ذكرت تلك المصادر أسماء العديد من المقرئات ،والمحدثات الفقيهات ،والأديبات ،والنحويات ،إلى غير ذلك من العالمات بالعلوم الأساسية الأخرى ،كما دأب الكثير منهن على التنقل بين الأقاليم الإسلامية مع محارمهن طلبا للعلم على أكابر العلماء والمحدثين،وقد حصلن على إجازات علمية من كبار مشايخ العصر في مختلف المدن ،(وحسبنا دليلا على نشاط المرأة في هذا الميدان أن الذين ترجموا لابن عساكر المتوفى ٥٧١هـ -١١٧٦م أجمعوا على أنه أخذا العلم عن بضع وثمانين امرأة)(٢) ،(أما ميادين العلوم ومجالاتها فقد كانت مرتكزة على العلم الشرعي ،والخاص بدراسة المذاهب السنية بسبب أن الغالبية العظمى من سكان الموصل كانوا من السنة على مذهبي الشافعي والحنفي ، والسبب الثاني أن المذهب الباطني الشيعي كان متمركزا في بلاد الشام ومصر ،الأمر الذي دفع نور الدين محمود لإنشاء المدارس السنية فأنشأ المدرسة الحلاوية في حلب عام ٥٤٣هـ- ١١٤٨م،وذلك لتدريس المذهب الحنفي وتبعتها أخواتها مما مكن لتوحيد جهود العلماء في محاربة الفكر الشيعي)([٣]) .

ولم يقتصر الأمر على التعليم الشرعي بل شمل الكثير من العلوم التاريخية والجغرافية والمتعلقة بأدب الرحلات ووصف المدن وتخطيطها،كما شملت التراجم والطبقات ،واشتهر في هذا المجال الحافظ ابن الأثير في كتابه تاريخ دمشق ،كما اشتهر أيضا العماد

---

١ الحياة العلمية في العهد الزنكي د.إبراهيم المزيني / ص ٢٠٠-٢٠١

٢ معجم الأدباء/شهاب الدين أبي عبد الله الياقوت الحموي/بيروت دار صادر ١٩٧٩/ص (٧٦/١٣)

٣ المرجع نفسه ص ٨٧

الأصفهاني ،الذي صنف الموسوعة المشهورة (خريدة القصر وجريدة العصر)الـــذي أرخ فيه لشعراء وأدباء زمانه في كافة الأقطار الإسلامية ([1]) .

كذلك ازدهرت العلوم الرياضية والفلك ،وعلم الجبر حتى قال (كاجوري):إن العقل ليدهش عندما يرى ماعمله العرب في الجبر ([2])نهضة شاملة ،حتى علوم الطب والصيدلة كان لها نصيب من هذه النهضة الشاملة وقد برع ابن البذوخ المغربي في هذا المجال ،فكان يبيـــع أدوية كثيرة يهيؤها للناس ،وينتفعون بها في علاجهم ([3]).

ويجد ربنا أن نذكر أن العهد الزنكي قد حفل بظاهرة أسهمت في ازدهار الحيـــاة العلميـــة وهي (انتشار المدارس الإصلاحية في إمارات الدولة المختلفة،بما تطلبته مـــن اســـتقدام العلماء والمدرسين مما أسهم في ازدهار الحياة العلمية كثيراً،ويقصد بالمدارس هنا تلـــك الدور النظامية التي يأوي إليها طلاب العلم ،وتدر عليهم الأرزاق ،ويتولى التـــدريس لهـــم فيها وتثقيفهم فئة صالحة من المدرسين والعلماء ،يوسع عليهم في الـــرزق ،ويختـــارون بحسب شروط الواقف ممن يحسنون القيام بالغرض الذي ندبوا للقيام به ،ويجـــازون بمـــا تعلموا من ضروب المعارف المختلفة)([4]) .

ولم تكن الحركة الأدبية وحركة التأليف والتصنيف بأقل نهضة من الحركة العلمية العامـــة ،بل شهد مجال الأدب والشعر نشاطا ملحوظا،فما أكثر ماقاله الشعراء إعجابا بشخصـــيتي عماد الدين ونور الدين مما نفى عن هذه الدولة ماتردد عن أن الشعر لم يكن كسابقه فـــي الدولة الأموية والعباسية،بدليل ظهور الكوكبة الكثيرة من شعراء ذلك العصر.

---

١ معجم الأدباء/شهاب الدين أبي عبد الله الياقوت الحموي/بيروت دار صادر ١٩٧٩/ص ٣٢٢

٢ تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك /ص٦١

٣ الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٤٦.

٤ الحياة العقلية /أحمد بدوي /ص ٣٠

المبحث الخامس

الواقع الاقتصادي

المشروعات الطموحة تحتاج للإرادات العالية ،والهمم الناهضة ،بيد أن العقبات أحياناً تحول بين الهدف الطموح وإمكانية تحقيقه ،والمال عصب الحياة به تقوم وعليه تتقدم ،والدولة الزنكية التي وضعت مشروعها مقاومة العدو ،وتأسيس النهضة على قواعد الوحدة والارتباط ،هي دولة ناشئة تحتاج أن تنفق على فتوحاتها ومشاريع نهضتها ،لذلك يبرز سؤال بدهي ،ماهي المصادر المالية التي كانت الدولة تنفق منها على أمورها وشؤونها ؟؟؟؟؟

الحقيقة أن الدولة الزنكية التي ولدت من رحم النظام السلجوقي ،قد تأثرت به تأثراًكبيراًفي أنظمتها الإدارية والمالية فاعتمدت في البداية على نظام صرف مرتبات نقدية مباشرة للجند ،لكن وبمرور الأيام وزيادة التوسع في الفتوحات ،أصبح من الصعب الاستمرار على هذا النظام ،ففكر نظام الملك في الاستعاضة عن المرتبات النقدية بالإقطاعيات من الأراضي لمختلف عناصر الجيش([1]) ،ونظام الإقطاع يقضي بأن يقوم الأمير المكلف بالإقطاع بتقديم العساكر وقت الحرب مجهزة بكامل عتادها وعدتها ،ولأنه إقطاع وراثي ،فقد كان يمنح لأولاده من بعده عند استشهاده أو فاته ،ولذلك كان أولاده من بعده يقولون :إنما هي أملاكنا نقاتل دونها ([2]) ولكم كانت هذه الفكرة ضابطة ومحفزة في آن واحد ،أما تحفيزها فإن المقطع كان حريصا على إقطاعه والمحافظة عليه ،وأما ضبطها فكانت تساعد في تقدم الجهاد والدفاع عن الدولة ،والدليل ما ذكر من أن نور الدين عندما سمع بأن بعض أمرائه تردد في محاربة الصليبيين والفاطميين في البابين بصعيد مصر ،هددهم بأخذ إقطاعياتهم ،وإعادة الموارد التي أخذوها منها ([3]).

ثمة مصادر آخرى للموارد المالية في العصر الزنكي وهي الزكاة والخراج والجزية ،والمجتمع الزنكي مجتمع في حالة حرب مع العدو لذلك تنشأ مجتمعات الجزية لتمثل رافداًمن روافد المال ،ثم المجتمع الجهادي الذي يلتزم أفرادها بالإسلام ،إذهم يتوقون لدفع مافرضه الله عليهم من زكاة واجبة،أما الثالث وهو الخراج فالأرض التي تملكها الدولة اشتهرت بكثافة

---

١ مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين زمن عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود ،د.عبد الله سعيد الغامدي ١٤١٤هـ . ص٢٦٨

٢ ودور نور الدين في نهضة الأمة/عبدالقادر أحمد أبو صيني /ص١٩٣.

٣ مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين زمن عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود/دعبدالله الغامدي ص٢٩

نشاطها الزراعي،بما عرف عنها من الخصوبة والتنوع في الزراعات ،وبذلك تشكل هذه المصادر الثلاثة ضماناً ثابتاً لموازنة مالية الدولة وحماية خزائنها من الإفلاس ([1]).

أما المصدر الثالث فهو الغنائم والأسرى،والتي كانت تمثل بحق أوسع موارد الدولة،لأنها في حالة حرب،غالباً ما تخرج منها منتصرة،فكل معركة كانت تدر من الغنائم ما يكفي لسد ثغرة أو تنفيذ مشروع ،يقول سبط الجوزي([2]):عاد نور الدين بعد فتح حارم عام ٥٥٩هـ إلى حلب بالأسرى ، وكان قداستفتى الفقهاء فيهم فقال قوم :يقتلون ،وقال آخرون :يفادى بهم ،فمال نور الدين إلى الفدية فأخذ منهم ستمائة ألف دينار معجلاً،وخيلاًوسلاحاًوغير ذلك ،فكان نور الدين يحلف بالله أن جميع مابناه من المدارس والربط والبيمارستانات من هذه المفاداة ،وجميع ماوقفه منها ،وليس فيها من بيت المال درهم واحد ([3])

ثمة مصادر أخرى تمثلت في سيادة الأمن والاستقرار ،ودعم الأثرياء،ومعاهدات الحروب ،ودعم الخليفة العباسي ،كان لهامن التأثير المالي الداعم ما أضاف لخزانة الدولة الكثير من المال .

أما المصادر الأساسية لخزانة أي دولة والمتمثلة في النشاط الزراعي والصناعي والتجاري فقد كانت مظاهر النهضة فيها كمايلي:

- امتازت الدولة الزنكية بتوافر المواد اللازمة للتصنيع ،خاصة صناعة المنسوجات وعلى الأخص ثياب الدمسك والموسلين ([4]) .
- ساهمت التوسعات في الفتوحات لتوسيع نطاق المنافذ التجارية- سيما بعد فتح الرها- مما زاد من ازدهار التجارة مع العالم الخارجي،والحدث الأبرز في زيادة حجم

---

١ نور الدين محمود الرجل والتجربة ،د.عماد الدين خليل،دار القلم –دمشق بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م./ص١٢٤

٢ سبط الجوزي هو : يوسف بن قز أوغلي ،وأمه رابعة بنت الشيخ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي الواعظ الشهير ببغداد،ولد سنة ٥٨٢هـ ، ببغدادونشأ فيها ،تحت كنف جده ،اشتغل بالوعظ في بغداد ،واشتهر بحسن الصورة وطلاقة الوجه ،وسرعة الخاطر ،وحدة الذكاء ،سافر على دمشق للوعظ ،واجتمع له الأشراف والأعيان والقضاة ،وكان يجلس كل سبت ،توفي سنة ٦٥٤هـ،أشهر كتبه كتاب مرآة الزمان في التاريخ ،وقد ألفه ليؤرخ للزمان من أول الخلق إلى أوائل عام ٦٥٤هـ (من كتاب الحياة الأدبية بمصر والشام عصر الحروب الصليبية /دأحمد بدوي ص٣٩٤

٣ المصدرنفسه /ص١٢٤

٤ فن الصراع الإسلامي الصليبي – السياسة الخارجية للدولة النورية ،د.محمد مؤنس أحمد عوض ،عين للدراسات والبحوث ،الطبعة الأولى ١٩٩٨م ./ص٤٢

التبادل التجاري مع الدولة الزنكية كان فتح مصر وبالتالي اتصلت تجاريا بالهند عبر البحر الأحمر والهند .

- **ازدهار التجارة الخارجية مع العديد من الكيانات السياسية في العالم المحيط ،مثل الإمبراطورية البيزنطية ،والقوى التجارية الإيطالية ،مثل جنوة ،والبندقية ،وبيزا ،وأمالفي ([1]).**

وغاية القول أن الدولة الزنكية بما وضعته على عاتقها من مشاريع الإصلاح والجهاد والوحدة،قد أوجدت جيلاً من المجتمع المتصف بالأمانة والاستقامة ،وذلك أمر يسهم في الاستقرار الشامل وفي القلب منه الاستقرار الاقتصادي .

---

١ فن الصراع الإسلامي الصليبي – السياسة الخارجية للدولة النورية ،د.محمد مؤنس أحمد عوض ،عين للدراسات والبحوث ،الطبعة الأولى ١٩٩٨م ./ص٢ ٤ص٤٥

المبحث السادس

الواقع الديني والمذهبي

لاشك أن الديانات تحتل مكانتها الرئيسية في حياة الأمم والجماعات الإنسانية منذ أقدم العصور ،ولكل أمة عقائدها الخاصة،تتفاعل مع الأيام والأقوام بين مد وجزر وتضييق ،وكلما أخذت نصيبا أوفى من الحضارة كثر التفاعل الديني،واحتدم الجدال مع أرباب الحكمة والفلسفات،وذلك إما سعياً وراء الجمع بينهما،وهذا بالطبع أمر مستحيل،وإما لتكييف العقائد الدينية مع المظاهر الحضارية المستجدة ،ويبقى هذا الصراع الأزلي مع جماعة المصلحين والمتحررين بله الصراع مع الزنادقة والإلحاد الذين يبدءون من حيث ينتهي دور الدين في هذا المجال .

على ضوء ما سبق نجد في بلاد الشام مظاهر دينية متباينة الاتجاهات ،تتضح لنا في المذاهب السنية الأربعة،والمذاهب الشيعية المختلفة،ومن خلال ذلك يتدفق تيار جارف من التصوف،فلاعجب أن رأينا في هذا التنوع الديني طائفة من رجال الدين المصلحين ،هم الثمرات اليانعة التي أبدعها هذا العصر[1].

المذاهب السنية :

حكم السلاجقة بلاد الشام في أواخر القرن الخامس ومستهل القرن السادس الهجريين ،وكانوا في الحقيقة يمثلون سلطة الخلافة العباسية إذ كان الدعاء والخطبة للخليفة،الذي (حصل له خلافة الله في أرضه)([2])

لم يستطع السلاجقة حفظ البلاد ،فتخلى تتش عن بيت المقدس،وأقطعه للأمير أرتق ،ومن بعده لولديه إيلغازي وسقمان ،واستطاع الفاطميون أخذه منه بالأمان سنة ٤٨٩هـ.

طمع الفرنج فيبيت المقدس حلمهم القديم /فحاصروه خمسة وأربعين يوماً،وملكوه في الشهر المبارك لسبع بقين من شعبان سنة ٤٩٢هـ،واستحر القتال أسبوعاً كاملاً،فاحتمى الناس بالمسجد الأقصى الذي بارك الله حوله ،فقتلوا فيه نيفاً وسبعين ألفاً من الذين اعتصموا ببيت

---

١ الأدب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك د.عمر موسى باشا،دارالفكرالمعاصر ،بيروت-لبنان ،ط ١ ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م./ص٧٠٧

٢ مفرج الكروب/ابن واصل ج/١/ص٧٠

الله الحرام فلم يرعوا حرمة إنسان،وفتكوا بالأئمة والعلماء والزهاد ممن أحب المجاورة لشرف الموضع ([1]).

تلك هي الحال في جنوب الشام ،أما في الشمال فليس الأمر بأحسن ،إذ إن الملك السلجوقي رضوان بن تتش صاحب حلب ،اعتمد على الشيعة في توطيد حكمه وتسيير أموره ،استمر هذا الوضع طوال حياته،فلما توفي ملك بعده ابنه ألب أرسلان ،وهو في السادسة عشرمن عمره فتحكم لؤلؤ الخادم فأبعد الشيعة عن الحكم ،وأمر بنهب بيوتهم ،وبذلك تعود الأمور إلى سيرتها الأولى .

هكذا كان الوضع الديني في هذه الفترة صراعاً بين العقائد المختلفة ،فالشيعة يزدادون عددا أكثر من السنيين ([2])الذين كانوا يحاولون الإبقاء على وجودهم أمام هذا التشيع بمختلف مذاهبه .

الوضع الديني في مرحلة حكم الزنكيين :

قام الزنكيون بعد ذلك ،واستطاعوا تطهير معظم البلاد المحتلة من الإفرنج ،وأحيوا المذهب السني عامة ،ونصروا المذهب الحنفي بخاصة،وجعلوه مذهب دولتهم الرسمي.

فلما تسلم عماد الدين زنكي المعرة من الفرنجة سنة ٥٣٩هـ،بعد احتلال دام نصف قرن من الزمان ،جاءه المعريون يطلبون إليه تسليم أملاكهم،فاستفتى عماد الدين الفقهاء فأفتوه بما نص عليه المذهب الحنفي وهو :

(أن الكفار إذا استولوا على بلد وفيها أملاك المسلمين ،خرجت تلك الأملاك من أصحابها ،بصيرورة البلد دار حرب ،فإذا عاد البلد بعد ذلك على المسلمين كانت تلك الأموال لبيت المال)([3])،لكن عماد الدين رفض الفتوى،وارجع كل أرض لصاحبها إذا أتى بكتاب يثبت أنه مالك الأرض .

أما في عهد نور الدين فقد عرف عنه أنه كان ضليعاً في الفقه على المذهب الحنفي، وكان ملوك الزنكيين جميعاً يدينون بهذا المذهب إلا واحداً منهم كان على المذهب الشافعي وهو نور الدين أرسلان شاه)([4])

---

١ تتمة المختصر /ابن الوردي /١١/٢

٢ رحلة ابن جبير /ابن جبير ٢٢٩

٣ مفرج الكروب /ابن واصل /٧٤/١-٧٥

٤ تتمة المختصر /ابن الوردي /١٣٠/٢-١٣١

وقد فضل آل زنكي وجود قاضي قضاة واحد في بلاد الشام فاختاروا كمال الدين الشهر زوري لتولي هذا المنصب ،كما أسندت إليه بالإضافة لذلك أمور الديوان،والوزارة وعلق عليه تنفيذا لأحكام .،وناب عنه في القضاء ابنه القاضي محي الدين أبو حامد محمد ،وأسندت إليه أيضاً أمور النظر في الديوان ،وناب عنه حماة وحمص قاضيان من بني الشهر زوري هما حاكمان متحكمان ،وبذلك يتبين لنا أن للدولة مذهباً واحداً،يمثله قاضي القضاة الأعلى يقوم بأمور القضاء والديوان معاً،ويمثله نواب في باقي البلاد .

المذاهب الشيعية والدولة العبيدية في بلاد الشام :

(أرسل ابن حوشب النمار ،داعي الإسماعيليين[1] في اليمن ،أبا عبد الله الشيعي إلى بلاد المغرب في عام (٢٨٨هـ/٩٠١م)لنشر الدعة العلوية في تلك البلاد ،بعد وفاة داعيا الإسماعيلية فيها وهما الحلواني وأبو سفيان ،ونجح أبو عبدا لله هذا في استقطاب جماعة من حجاج كتامة ،وصحبهم على بلاد المغرب حيث بث دعوته بين الناس ،وقوي أمره بما التف حوله من الأتباع ،واستولى على القيروان في عام(٢٩٦هـ/٩٠٩م)،وأزال دولة الاغالبة .

واستدعى أبو عبدا لله الذي آلت إليه أسرار الدعوة ،وكان في سلمية(٢) ،للحضور إلى أفريقية لتسلم الأمر رحب عبيد الله بالدعوة فغادر سلمية ،وتوجه إلى بلاد المغرب ،ووصل إليها في عام ٢٩٧هـ/٩١٠م)حيث بويع بالخلافة ،وتلقب(بالمهدي أمير المؤمنين)واضعاً بذلك الأساس الذي قامت عليه الدولة الفاطمية([3]) ،وأدرك الفاطميون بعد قليل من الوقت أن بلاد المغرب لاتصلح لأن تكون مركزا لدولتهم بسبب ضعف مواردها الاقتصادية ،فضلاًعن كثرة الاضطرابات فيها،لذلك اتجهت أنظارهم على مصر الغنية بمواردها

---

١ ظهرت دعوة الإسماعيلية في اواخر عهد دولة الخلافة الأموية عندما انضم عدد كبير من الزيدية إلى طائفة الإمامية من أنصار جعفر الصادق ،وبعد وفاته انقسمت الشيعة الإمامية إلى قسمين بفعل اختلاف الراي في كيفية تحديد الحق الوراثي لاختيار الإمام ،وهما الإمامية والموسوية ،وقد اطلق عليهما فيما بعد (الاثنا عشرية)،اعتقد أتباعهما بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق وهو عندهم الإمام السابع ،والأمامية الإسماعيلية الذين اعتقدوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق ،وهو أكبر أولاد أبيه ،ومع أن وفاته حصلت في حياة أبيه ،فقد حول أتباعه الإمامة إلى ابنه محمد المستور ،وهو عندهم الإمام السابع نومن ثم أطلق على هذه الطائفة اسم السبعة أو الإسماعيلية لتمييزهم عن الإثنى عشرية .

٢ سلمية :بليدة في ناحية البرية من أعمال حماة بينهما مسيرة يومين ،وكانت تعد من أعمال حمص ،الجموي :ج٣ص٢٤٠

٣ انظر فيما يتعلق بالدولة الفاطمية ،كتب تاريخ الدولة الفاطمية ،للدكتور حسن إبراهيم حسن ص١-٥٠

،بالإضافة إلى موقعها الهام بفعل قربها من بلا الشام ،مما يجعلها صالحة لإقامة دولة مستقلة تنافس دولة الخلافة العباسية على زعامة العالم الإسلامي.

وبعد موت الإمام جعفر الصادق افترقت الشيعة إلى فرقتين ممن نسبوا أنفسهم على جعفر الصادق ،فرقة ساقت الإمامة إلى ابنه موسى الكاظم ،وهؤلاء هم الشيعة الاثناعشرية،وفرقة نفت عنه الإمامة وقالت إن الإمام بعد جعفر هو ابنه إسماعيل،وهذه الفرقة عرفت بالشيعة الإسماعيلية([1])

شكلت الدولة الفاطمية تحدياً للزعامة الدينية السنية في بغداد ،وحتى تؤكد زعامتها على العالم الإسلامي ،ورغبة في تامين حدود مصر من ناحية الشمال الشرقي،والتصدي للصليبيين تحتم على الفاطميين بعد أن انتهوا من الاستيلاء على مصر ،واستقروا فيها ،أن يولوا وجههم شطر الشرق الإسلامي نحو بلاد الشام وجعلوا هذا الأمر هدفهم الرئيسي.

واستطاعوا بين أعوام (٤٣٠-٤٥٠هـ/١٠٣٨-١٠٥٨م)أن يوطدوا مركزهم فيها ،فبسطوا هيمنة سياسية على معظم أجزائها ،وبذلك أضحت مصر وملحقاتها في بلاد الشام حتى دمشق تابعة للفاطميين .

وهكذا قدر للعالم الإسلامي في الشرق الأدنى أن يظل طوال قرنين من الزمان (٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١٧١١م)منقسما على نفسه بين مذهبين مختلفين ،مما ترك أثراً خطيراً على قوة المسلمين ،ظهرت نتائجه في عهد الحروب الصليبية ([2]).

وقد ظهرت مظاهر هذا الانقسام واضحة على النواحي الدينية في هذا العصر،فلم يقبل الشيعة بقيام الحركة السنية في مقتبل الدولة الزنكية واشتداد عودها بعد تولي نور الدين محمود مقاليد الحكم ،والذي أبطل أذان الشيعة (حي على خير العمل ...محمد وعلي خير البشر)([3])خاصة في حلب التي كانت بيئة شيعية يمارس الشيعة فيها شعائرهم بحرية تامة،مما أشعل الفتنة بين السنة والشيعة، وزادها استيلاء نور الدين على مصر سنة ٥٦٤هـ الأمر

---

١ الدولة الفاطمية العبيدية /دمحمد علي الصلابي /دار البيارق/عمان – الأردن/الطبعة الأولى ٢١٩٩٩م/ص٣٥

٢ عاشور :سعيد عبد الفتاح :الحركة الصليبية ج١ ص٦٣.

٣ زبدة تاريخ حلب/ابن القلانسي (١٧٢/١).

الذي وطن للمذهب السني في بلاد الشام ومصر ،وجعل الشيعة يدركون بما لايدع مجالاً للشك أن نور الدين ماض في خطته ،وأنه عازم على استئصال هذا المذهب من مصر والشام([1])

١ نور الدين محمود /د.علي الصلابي/ص٨٣.

الفصل الثاني
قضايا المضمون في شعر الحماسة
في عصر الدولة الزنكية

المبحث الأول :الدعوة إلى الجهاد.

المبحث الثاني :التحذير من الخطر الصليبي .

المبحث الثالث:الأخذ بأسباب القوة والوحدة والدعوة إليهما ..

المبحث الرابع:الاستعانة بالحرب النفسية في المواجهة بالكلمة.

المبحث الخامس:استشراف المستقبل والانتقال من انتصار للمطالبة بآخر.

المبحث السادس :شخصية البطل في شعر الحماسة

المبحث السابع:الأثر الديني في القصيدة الحماسية.

المبحث الأول

الدعوة إلى الجهاد

تكتل الصليبيون في الغرب المسيحي ثم جاءوا إلى بلاد المسلمين ،طامعين في خيرات بلادهم ،سالكين أفظع السبل مرتكبين لأفدح الجرائم من القتل والذبح والتشريد ،ولم يكن الصليبيون ليتمكنوا من ذلك أو أقل منه إلا بتشرذم القوى الإسلامية وانشغالها بالخلافات الداخلية،حتى وصل الأمر ببعضهم للتحالف مع القوى الصليبية ليظل في مكانه محتفظا بملكه،مما مكن للصليبيين تأسيس حدودهم الطويلة على امتداد البقعة الأوسع من بلاد الشام وفلسطين ،والدليل على ذلك كما يقول ابن الأثير (وكانت مملكة الفرنج حينئذ – يقصد حين تولية عماد الدين زنكي مقاليد الحكم في حلب – قد امتدت من ناحية ماردين وشيجتان إلى عريش مصر لم يتخلله من ولاية للمسلمين غير حلب وحمص وحماه ودمشق)(١).

ومما سجله التاريخ من مظاهر هذا الضعف العام،والهوان الكبيرمالايمكن تحمله أوالسكوت عليه :

- قيام الحركات الباطنية والإسماعيلية بعرقلة الجهاد ضد الصليبيين ،بقتل المجاهدين واغتيال القادة المرابطين ،وكان أول ضحايا هذا الغدر الوزير السلجوقي نظام الملك عندما قتلوه غدرا عام ٤٨٥هـ ،مرورا بعماد الدين زنكي نفسه الذي قتل وهو يحاصر قلعة جعبر عام ٥٤١هـ .
- التعاون الخبيث مع الصليبيين ،وذلك عندما أقدم الوزير المزدقاني وزير تاج الملك بوري حاكم دمشق ،على التحالف مع الصليبيين بتسليمهم دمشق مقابل إعطائه هو والباطنيين مدينة صور بدلا منها ،وأبرمت الاتفاقية ،وحدد يوم الجمعة لتنفيذها ،بينما يكون المسلمون في المساجد ،تفتح أبواب المدينة للفرنجة بسهولة ،ولكن المؤامرة كشفت قبل موعد تنفيذها ،فقتل بوري وزيره الخائن ،وأحرق جثته ،وعلق رأسه على باب القلعة ،ونادى بقتل الباطنية ،فقتل منهم ستة آلاف شخص ،واستمر أهل دمشق يذبحون فيهم ،فأفنوهم تقطيعاً بالسيوف وذبحاً بالخناجر ،في منتصف رمضان عام ٥٢٣هـ (٢).

- ١ الحروب الصليبية والأسرة الزنكية /شاكر احمد ابو زيد /ص١١٣
- ٢ الكامل في التّاريخ ، عزّالدين ابن الأثير، دار صادر، بيروت ،١٩٧٩ج ٨ ص٦٦٨-٦٦٩.

- دور المسيحيين الواضح لدعم القوات الصليبية الزاحفة بدءاً من الحملة الأولى ،فقد قام مسيحيو أرتاح بمساعدة الفرنج في الاستيلاء على بيت المقدس وذلك بذبح الحامية الموجودة في أرتاح مما مكن للصليبيين الدخول بسهولة ،كما كان لهم دور داعم أيضا في تسهيل استيلاء الصليبيين على أنطاكية(١) ،وعندما اشتد الجوع والعطش بالصليبيين المحاصرين لبيت المقدس كان للنصارى دور المرشد لينابيع المياه والغابات ،كما أنهم ساعدوا صنجيل الفرنجي في حصار طرابلس (٢)
- تدهور الحياة الاقتصادية وانتشار المجاعات وغلاء الأسعار،فقد تكدست الأموال في يد المتنفعين ،الذين لاينكرون منكراً ولا يعرفون معروفاً،تاركين البلاد قاعاً صفصفاً يعانون شظف العيش بدون أن يتحرك لهم ضمير (٣)،مما تسبب في غلاء الأسعار وشح المؤن والتموين ،والدليل ما حكاه ابن تغري بردي :أن رجلاً بمصر باع بيتاً له وكان قد اشتراه بتسعمائة دينار ،باعه بعشرين رطل دقيق ،وبيعت البيضة بدينار ،وذلك عام ٤٢٨هـ (٤).
- كان من الطبيعي أن تستثير هذه الأوضاع النفوس والمشاعر،كما تحث كل طاقات الأمة أن يكون لها موقف ورد فعل ضد ما يحدث ،خاصة أن الحدث والأحداث حركا العواطف وألهبا المشاعر فترك كل قادر على القول فقال(٥) ولما كانت الكلمة الصادقة والتعبير المخلص من أدوات التغيير الفاعلة في تحريك الهمم وإثارة العواطف ،فقد انطلق الشعراء يدعون للجهاد والتوحيد والنهضة الشاملة لاسترداد الأرض ،وحماية العرض،بادر الشعراء للدعوة للجهاد والتحريض عليه ،وكان (ابن الخياط)(٦) أول من بادر للدعوة للجهاد فقد سمع بمجيء النصارى إلى بلاد المسلمين فثارت حميته،وقال قصيدة طويلة قدمها إلى عضب الدولة زعيم الجيوش في دمشق ،حثه فيها على الجهاد
-

- ١ الحروب الصليبية المقدمات السياسية د.علية الجنزوري ص ٢٨٤
- ٢ الكامل في التاريخ/ابن الأثيرج ٨ص٤٤٦).
- ٣ الجهاد والتجديد في القرن السادس/محمد حامد الناصر/مكتبة الكوثر /الرياض ١٩٩٨م . ص٧٢
- ٤ النجوم الزاهرة (٥-١٥-١٧).
- ٥ الغزو الصليبي والعالم الأسلامي ،دعلي عبدالحليم محمود/دار التوزيع والنشر الإسلامية /ص٣٧٣

٦ ابن الخياط هو :أبو عبد الله أحمد بن علي التغلبي،شاعر دمشقي مشهور ،له مدائح في آل منقذ ،وكان شيخاً لابن القيسراني ،ولد سنة ٤٥٠ بدمشق ،وتوفي سنة ٥١٧هـ)من كتاب شعر الصراع مع الفرنجة د.فيصل صلاح الدين أصلان ص ٢١

- ومطلع القصيدة :

فدتك الصوامل قباًوجرداَ

وشم القبائل شيماً وبرداَ

وذلت لأسيافك البيض قضباَ

ودانت لأرحامك السمر ملداَ

ثم يستمر في التحميس ويدعو للجهاد قائلاً:

وإني لمهدٍ إليك القريـــــضَ

يَطوى على النصِح والنصحُ يَهدىَ

إلى كم وقد زخَر المشركـــونَ

بســـــــــيل يهال له السيل مداَ

وقد جاش من أرض إفرنـــْجَة

جيوشٌ كمثـــــــــلِ جبال ترَدى[1]

وينطلق الشاعر مفصحاً عما في نفسه من ضرورة التحرك مـــن القـــادة والجيـــوش لمواجهة الإفرنجة فيقول:

أتوماًعلى مثل هد الصَفاةِ

وهزلاً وقد أصْبح الأمرُ جداَ

وكيف تَنـــامون عنْ أعين

وُترتُم فأسهر تُموهن حـــقداَ

وشرُ الضغائنِ ما أقْـــــبلتْ

لديهِ الضغائنُ بالكُفر تُحـــدىَ([2])

وتدور الأيام ويحدث المكروه ،ويقع المصاب الأعظم ،إذ يدخل الصليبيون بيت المقدس ويحتلوا المدينة المقدسة عام ٤٦٢هـــ، وقد تحدث ابن كثير عن هذه الفاجعة فقال :

(لما كان ضحى يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان من سنة اثنتـــين وســـتين وأربعمائـــة ،أخذت الإفرنج لعنهم الله بيت المقدس،وكانوا في نحو ألف مقاتل،وقتلوا في وسطه أزيـــد

- ١ ديوان ابن الخياط /ص ١٩٢
- ٢ نفس المرجع ص ١٨٢

من ستين ألف قتيل من المسلمين ،وجاسوا خلال الديار ،وتبروا ما علوا تتبيراً،فلما علم الخليفة بذلك نندب الفقهاء لدعوة الناس للجهاد ،ولكن لم يفد ذلك شيئاً)([1])

إلا أن الشعراء هبوا لهذا الحدث الجلل،ومن هؤلاء أبو المظفر الأبيوردي ، الذي قال القصيدة المشهورة :

مَزجنا دمَاءً بالدموع السواحمِ

فلم يَبق منا عرضـــــةٌ للمراجمِ

وشر سلاح المرء دمع يُفيضُه

إذا الحربُ شبَّت نارَها بالصوارمِ

فإيهاًبني الإسلام إن وراءكـــــم

وقائعُ يلـــْــــحقن الذُرى بالمَناسمِ

وفي نهاية هذه القصيدة يحاول الشاعر أن يستثير حمية المسلمين للدفاع عن المقدسات ،بنبرة يعلوها الأسى ،ويغلب عليها التوبيخ الشديد لهؤلاء المقصرين، فيقول :

فليْتهم إذْ لم يزودُوا حَميةً

عن الدين ضنّوا غيرةً بالمحارمِ

وإن زهِدوا في الأجر إذْ حمي الوغى

فهلاً أتَوْه رغبةً في الغَنـــــَائمِ ([2])

هكذ كانت الدعوة للجهاد واسترداد المقدسات ،في بداية الحروب الصليبية إبان الفترة السلجوقية ،أما في العهد الزنكي ،فقد ظهرعماد الدّين زَنكي ، الذي سيصبح محوراً لانتصارات عديدة ومصدراًلافراح كثيرة بما استهل عهده من قهر الإفرنج والتغلب عليهم تنطلق قرائح الشعراء لتسير في ركابه ولتبدأ مرحلة جديدة من مراحل مسايرة الأدب لحركة التحرر،ودعم المشروع الإسلامي الزنكي الرائد ،وسنرصد عدداًمن القصائد في ميدان الدعوة للجهاد :

- حين يعين عماد الدين زنكي صاحبَ شيزر (سنة٥٣٢/١١٣٨)([3])، ويدفع الروم عنها ينبري محمود بن نعمة الشيزريّ لتمجيد ذلك النصر بقصيدة أثبتها ابنه في كتاب "جمهرة الإسلام ذات النّثر والنظام " يقول فيها(١) :

- ١ البداية والنهاية /ابن كثير /ج١٢/ص١٥٦
- ٢ الكامل في التاريخ/ابن الأثير /ج١٠/ص ٢٨٥

٣ الاعتبار، أسامة بن منقذ، تحقيق فيليب حتّي، مطبعة جامعة برنستون،١٩٣٠.ص/١٤٥

سَحَبنا ذيولَ الفَاخِرِينَ على الشُّهب

فَمَن ْذا يُناوينا مِنَ العُجم والعُرْبِ

وعند هذه المرحلة يأخذ الشعراء بالتباري في تسجيل أعمال عماد الدّين زَنكي وانتصاراته، وكأنّهم وجدوا فيه "الرمّز" الّذي ينشدونه لحماية الإسلام والذّبّ عنه، فيظهر على مسرح الأحداث عدّة شعراء من أبرزهم ابن قَسيم الحمويّ(٢) وابن القيسرانيّ وابن منير الطّرابلسيّ؛ ولعلّ صورة تلك الانتصارت المتتالية أوضح ما تكون فيما وصل من شعر ابن القيسرانيّ وابن منير، فهما الشاعران المتنافسان في الحياة العامّة وفي تخليد الانتصارات على حدّ سواء، ولكلّ منهما قصيدة في فتح حصن بارين عام ٥٣٤هـ

أمّا قصيدة ابن القيسرانيّ فمطلعها(٣):

حَذارِ منّا وأنّى ينفعُ الحذر

وَهْيَ الصّوارمُ لا تُبقي ولا تَذَر

وأمّا قصيدة ابن منير فمطلعها(٤):

فَدَتْكَ الملوكُ وأيّامُها

ودامَ لنَقْضِكَ إِبْرامُها

وكانت نقطة التحول في انتصارات عماد الدين هى فتح الرُّها (٥٣٩/١١٤٤)(١). ولا ريب في أنّ فتح الرُّها استثار كثيراً من الشعر، في مقدّمته شعر لابن القيسرانيّ وابن منير؛ فمن قصائد ابن القيسرانيّ في هذه الحادثة(٢) :

- ١ جمهرة الإسلام ذات النّثر والنّظام١: ٥

٢ ابن قسيم الحموي هو : شرف الدين مسلم بن الخضر التنوخي ،توفي عام ٥٤٢هـ،وهو ثالث شعراء العصر بعد ابن منير وابن القيسراني ،وقد صاحب عماد الدين ونور الدين (من كتاب شعر الصاراع مع الفرنجة د.فيصل صلاح أصلان ص ٣٩

٣ شعرابن القيسرانيّ ص ٢٠٦.

٤ ديوان ابن منيرص ١٩٩.

هوَ السّيفُ لا يُغنيك إلاّ جِلادُهُ

وَهَلْ طوّقَ الأملاكَ إلاّ نِجادُهُ

ولابن منير فيها قصائد كثيرة منها قوله(٣) :

صِفاتُ مَجْدِكَ لفْظٌ جلّ معناهُ

فلا استردّ الّذي أعطاكهُ اللهُ

ولنتذكّر هنا أن فتح الرّها كان حصاراً، وكان الفتح عَنْوةً، ولهذا فلا غرابة في أن يستعيد الشاعران ذكر عمّورية والمعتصم، حتّى إنّ ابن القيسرانيّ سمّى هذا الفتح في قصيدة أخرى "فتح الفتوح"، تماماً كما قال أبو تمّام في عمّورية.وقد راوح الشاعر في قصيدته بين صورة المدينة وصورة البطل على التّساوي، ورسم للرّها صورة أنثويّة تقاطعت فيها الصّور الدّينيّة والحربيّة الّتي تصوّر مكانتها عند الفرنجة، وتصف حصانتها ومنعتها، وضراوة القتال الّذي دار حولها. يقول:

حديثُها نسخَ الماضي وأنساهُ

فافْتَرّ مبسِمُهُ واهتزّ عطفاهُ

فتحٌ أعادَ على الإسلامِ بهجتَهُ

مَنْ رامَها ليس مغزاهُ كمغزاهُ

إنّ الرّها غيرُ عمّوريّةٍ وكذا

يَهْذي بمعتصمٍ بالله فتكتُهُ

١التاريخ الباهر في الدولة الأتابكيّة بالموصل، عز الدين ابن الأثير ،تحقيق عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة ومكتبة المثنى، القاهرة وبغداد،طبعة ١٩٦٣ص ٦٦-٦٩.

٢ شعرابن القيسرانيّ ص١٤٥.

٣ ديوان ابن منيرص ١٩٥.

ولم يُغْنِ عند القوم عنه وِلادُهُ

على غيرماعند العلوج اعتقادُهُ

تَرقَّتْ إليه خان طرفاً فؤادُهُ

يَفُلُّ حديدَ الهندِ عنـــــها حُدادُهُ

بصيرُ بتــمرين الألدّ لدادُهُ

إلى أنْ ثَنـــــــاها مَنْ يعزُّ قيادُهُ

فما راع إلاّ سورُها وانهدادُهُ

شرارٌ ولكنْ في يديـــــــهِ زنادُهُ

لقد كان في فتْح الرّهاءِ دلالةٌ

وهيهات كان السّيفُ حتماً سِفادُهُ (١)

وعماد الدّين في القصيدة بطلٌ (مظفّر...يعاند أسباب القضاء عناده)، وهو(مصيب سهام الرّأي) ذو عزيمة مصمّمة، وهنا يلتفت الشّاعر إلى العظمة التّاريخيّة فيقرن عماد الدّين بذي القرنين، بل يجعله يربي عليه. ويميل الشّاعر إلى التّجريد في تمجيد البطل المسلم فيستعير له صورة(الصّبح)، ويجعل الصّراع بينه وبين الدّجى. وهو بطل يستمدّ قوّته من التّأييد الإلهيّ، لذلك لا تقف أمامه أيّة قوّة ولا يبعد عنه عنه هدف. وتشفّ القصيدة عن إحساس شاعريّ مرهف حين يربط الشّاعر عزيمة البطل بموارد الماء ورياض القسطنطينيّة في إشارة بليغة منه إلى أنّ هذه القوّة قوّة بناء ونماء لا قوّة قتل وتخريب وإفناء.يقول:

كذا عن طريق الصّبح أيّتها الدّجى

فيا طالما غَالَ الظّلامَ امتدادُهُ

فلو [بُرُجُ]* الأفلاك عنه تحصّنت

لأمْسَت صِعاداً فوقهنّ صِعادُهُ

---

١ ديوان ابن منير /ص ١٩٦

ومن كان أملاكَ السماوات جندُهُ

فأيّةُ أرضٍ لم ترُضْها جيادُهُ

ولله عزمٌ ماءُ سيْـــحان وِرْدُهُ

وروضةُ قُسْطَنطينِيَه مُستَرَادُهُ([1])

والقصيدة تعبّر بعد ذلك عن فرحة عارمة بهذا الظفر، ومن ثمّ سيطرت عليها الصّور المستعلية الّتي تشي بالإحساس بالانبعاث والنّهوض(سمت قبّة الإسلام فخراً بطوله)، (لِيهنِ بني الإسلام أمنٌ ترفّعَتْ رواسيه عزّاً)، (وأمستْ صِعاداً فوقهنّ صِعاده)؛ والجمل الشّعريّة الّتي تؤثر أسلوب التقسيم والتّوازي بحيث تصبح قراءة الأبيات ضرباً من التّرنّم؛ والصّور المستوحاة من الطّبيعة،كهذه الصّورة الّتي تمثّل رؤوس الأعداء المقطوعة وهي ما تزال في خوذها كمائم نبت على وشك التفتّح:

غداةَ كأنّ الهامَ في كلّ قونسٍ

كمائمُ نبتٍ بالسّيوف حصادُهُ ([2])

وفي عهد نورالدّين(٥٤١-/١١٤٦-١١٧٤) تتوالى الانتصارات وبعض الانتكاسات، ويكون أوّل انتصار استعادة الرّها(١١٤٦/٥٤١) بعد أن استردّها الفرنجة إثر مقتل عماد الدّين الشّهيد، وفي السنة الّتي تليها كانت منطقة حوران هي مجال عمليّات نور الدّين، فاستعاد صرخد وبصرى،كما استعاد العُرَيْمَة وحصن بَارَة وبَصْرَفُوث(بَسَرْفود) وكَفر لاثا من أعمال حلب، وتابع تحرّكاته في منطقة أنطاكية(١١٤٨/٥٤٣)، فاستنقذ باسوطا وهاب(٢٩). ويقف ابن القيسرانيّ وابن منير ليتحدّثا عن استعادة الرّها؛ الأوّل في قصيدته(٣):

أما آنَ أنْ يزهقَ الباطلُ

وأن يُنْجِزَ العِدَةَ الماطِلُ

---

١ ديوان ابن منير /ص ١٩٦

٢ المصدر نفسه ص ١٧١

٣ الروضتين: أبو شامة /ج١ص١٣٢،١٤٣.

وأمّا قصيدة ابن منير فهي(١):

مَلِكٌ ما أَذَلَّ بالفتحِ أرضاً

قطُّ إلاّ أعزّها إغلاقُهْ

وقد تحدّث ابن منير عن الانتصارات المتوالية في منطقة حوران وحلب وأنطاكية في قصيدة مطلعها(٢): أمينَ العِمادِ مكينَ القدَمْ

غدا الدّينُ باسْمِكَ سامي العَلَمْ

وقد بدت أعمال نور الدّين ، بتتابع الفوز والاستيلاء على القلاع والحصون، كأنّه مدّ إسلاميّ ما لبث أن واجهه مدٌّ صليبيّ بقدوم الحملة الصّليبيّة الثّانية(١١٤٨/٥٤٣)، وكانت دمشق هي الهدف الرئيس لهذه الحملة(٣).فقال العرقلة الكلبيّ في تلك المناسبة(٣٦):

بِنسيبِها وبذكْر سُعدى مُسْعِدي

عَرِّجْ على نجدٍ لعلّكَ مُنْجدي

واستمرّ المدُّ الصّليبيُّ يواجه المدَّ الإسلاميَّ فكانت هزيمة نورالدّين على يَغْرا في السنة نفسها،لكنّ انحسار المدّ الإسلاميّ لم يطُل إذ استطاع نور الدين أن يهزم الفرنجة على يغرا نفسها(٤)، وفي الإشادة بهذا النّصر قال ابن القيسرانيّ(٥):

أَو لا فليتَ النّومَ مردود

يا ليت أنّ الصدَّ مصدودُ

ثمّ نهض نور الدّين في السنة التّالية(١١٤٩/٥٤٤) إلى موقع يقال له إنِّب، وهو حصن من نواحي حلب، ودارت على الفرنجة فيه الدّائرة، وكان من صرعاهم في المعركة البرنس

---

١ ديوان ابن منيرص ٢٠٤.

٢ المصدر السابق ص٢٥٨

٣ ذيل تاريخ دمشق/ابن القلانسي ص ٤٦٢

٥ شعر ابن القيسرانيّ ص ١٤٩

صاحب أنطاكية مقدّمهم(١). وقد هنّأه ابن القيسرانيّ بهذا النّصر بقصيدة أنشده إيّاها عند جسر الحديد الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية، يقول فيها(٢):

هذي العزائمُ لا ما تدّعي القُضُبُ

وذي المكارمُ لا ما قالتِ الكتبُ

وله قصيدة أخرى في هذا الانتصار وهي(٣):

تَفِي بضمانِها البيضُ الحِدادُ

وتقضي دَيْنَها السّمْرُ الصّعادُ

ولابن منير قصيدتان في وقعة إنّب، مطلع إحداهما(٤):

أقوى الضّلالُ وأقْفَرَتْ عَرَصاتُهُ

وعَلا الهُدى وتَبَلّجَتْ قَسَمَاتُ

ونختتم هذه السلسلة من الأحداث بما تمّ عام (١١٥١/٥٤٥)، وأوّلها أسر جوسلين" وكان أسره من أعظم الفتوح"(٥)، ولابن منير عدد من القصائد في هذا الأسر، ولابن القيسرانيّ مطوّلة فيه. ثمّ تلا ذلك في العام نفسه فتح عزاز شماليّ حلب عنوة، ثمّ فتح أفامية من كور حمص، ثمّ الانتصار عند دلوك من نواحي حلب(٦).

ولا يذهبنّ الظنّ إلى أنّ سلسلة الأحداث بعد هذا العام (٥٤٥ هـ) قد توقفّت، فإنّ المصادر التاريخيّة حافلة بذكر أحداث أخرى تتراوح بين النصّر والهزيمة، ولكنّ الاستمرار في رصد

---

١ الروضتين/أبو شامة ج ١ص١٥٢)

٢ شعر ابن القيسرانيّ ص: ٦٥

٣ المصدر السابق ص ٦٥

٤ شعر ابن منير ص٢٠٨

٥ المصدر نفسه ص ٢٠٨.

٦ وفي المعارك والفتوحات المذكورة انظر: ذيل تاريخ دمشق: ٢٨١؛ مفرّج الكروب ج١ص ١٢٣؛ الكامل ج١١ ص ١٤٩

الشعر المتّصل بالحوادث الكبيرة ــ وبخاصة معارك الجهاد ــ يتّحول إلى قائمة إحصائية ، تفيدنا حقيقة بدهيّة، وهي أنّ الشعر لم يتوانَ عن مواكبة كلّ حادث. فقد كان الشعراء كثيرين وكانت الحركة الجهاديّة الصّاعدة -على الرغم من بعض الانتكاسات- تغري بالقول، وتبعث على الازدهاء، وتستشرف المستقبل الّذي يشهد نهوض المسلمين من كبوتهم.

وإذا كان نور الدّين قد سهّل عمليّة الجهاد بعد أن كانت صعبة، فإنّه سهّل على الشعراء سبل القول، لا بتفرّد سجاياه وحسب، بل بتتابع الانتصارات واحدة إثر أخرى، حتّى لأصبح الشاعر قادراً في أكثر الأحوال على أن يتحدّث عن الانتقال من ذروة- في سياق الحرب- إلى ذروة، وغدا كأنّ الشّاعر حادٍ لقافلة من الانتصارات، لذلك لم تَعُدْ القصيدة وصفاً لمعركة واحدة، وإنّما أصبحت استرجاعاً لسلسلة من الأمجاد المتوالية، وأصبح الشّاعر يكتفي بذكر أسماء المعارك لأنّها أصبحت رموزاً خالدة، يكفي أن يذكر اسم الواحدة منها حتّى تهشّ ذاكرته إلى النتائج الباسمة الّتي تمثّلها.

ومن ذلك قول ابن منير(١):

ولمّا هَبَبْتَ بِبُصرى سَمَلْت
بِأهباء خيلِكَ أبصارَها
ويَوْمٍ على الجَوْنِ جَوْنِ السرِا
ةِ عزّ فَسَعَّطَهَا نارَها
صَدَمْتَ عُرَيْمَتَها صدْمةً
أذابَتْ مع الماءِ أحجارَها
وإنْ دالَكَتْهُمْ دلوكٌ فقد
شَدَدْتَ فصدَّقْتَ أخبار

ولو جُعِلَتْ قصيدة ابن منير في وقعة إنّب نموذجاً لتبيان صورة نور الدّين لظهر أنّ الإلحاح على النّاحية الدّينيّة قد تعمّق كثيراً عمّا كان قبلاً،

١ ١ ديوان ابن منير: ٢٠٨.

فالحديث عن الدّين ونصرته أصبح فاتحة القصيدة(١) :

أقوى الضّلالُ وأقْفَرَتْ عَرَصاتُه

وعَلا الهُدى وتَبَلّجَتْ قَسَمَاتُهُ

وهذه الفاتحة تؤازرها عدّة أبيات تتحدّث عن استنقاذ الدين، وردّ عصر الشباب على الإسلام، وإرساء قواعده ،وإعلاء عموده، وتشييد سوره، وإزاء هذه الصور للدّين يقف حامي الدّين (نور الدين). ويمعن الشّاعر في إسباغ الصّفات الحميدة عليه بما يتّفق وروح الإسلام، فهو ناسٍ لِلَذّات الحياة الدنيا كحثحة الكؤوس، ولمى الثغور، لأنّه منهمك في حثحثة اليراع، وثغور العدى، وخمر الطُّلى، وقطف النفوس؛ كلّ ذلك تفانياً في خدمة الإسلام وردّ أعدائه.

ويظلّ الشاعر يمعن في توليد صفات بعد أخرى ليسبغها على هذا الممدوح:

ما ضرّ هذا البدر وهو محلّقٌ

أنّ الكواكبَ في الذرى ضرّاتُهُ

في كلّ يومَ تَستطيلُ قناتهُ

فوقَ السماء وتَعتْلَي دَرَجَاتُهُ

وتُرى كشمسٍ في الضحى آثارُهُ

مجداً، وألسنةُ الزمّانِ رواتُه

١ ديوانابن منير ص ٢٠٨.

أيْنَ الأُلى ملأوا الطّروس زخارفاً

عَنْ نَزْفِ بَحْرِ هذهِ قَطـــــراتُهُ

لو فَصّلوا سمطاً ببَعْضِ فتوحِه

سَخرْت بما افتعلوا لهم فِعْلاتُه

لو لاح للـــــطائيّ غرّةُ فتحِه

باءتْ بِحَمـــــــــلِ تَأَوّهٍ باءاتُهُ

أوْ هبّ للطبريّ طيبُ نسيمِها

لاحْتُشّ من تاريـــــــخِه حشواتهُ([1])

هنا يقف الشاعر في مواجهة "البطل" على نحو مباشر، فلا يلتفت إلى الخيل ولا إلى الجـيش ولا إلى حركة المعركة، ولعلّ السبب في ذلك طبيعة المعركة نفسها، أو طبيعـة الشـاعر، أو طبيعة الممدوح، أو هذه كلّها مجتمعة؛ ولكن الشاعر أحسّ أنّه بعد أربعين بيتـاً لا بـدّ مـن التنويع. وممّا يدل على قدرته الشعرية أنه لجأ إلى "وسيلة" قد تُعدّ جديدة، وإن كان اعتمـاده عليها ضرباً من المغايرة، حين وضع صورة البطل الإفرنجيّ (البرنس صاحب أنطاكية الـذي قتل في المعركة) بإزاء صورة البطل المسلم؛ وهذا البطل الآخرالذي أصبح ذليلاً حقّاً كان مـن قبل أسَداً يتبوّأ العرين، وكانت قناته تنظم مدار النيّرين،وقبل نورا لدين لم يُقَدْ أنفُه بخزامه.

ولست أقول إن إعجاب الشاعر بالبطلين متساوٍ، ولكنّ ابن منير يتّبع المأثور الشعريّ الّذي يعلي من شأن العدوّ ولكي يمنح البطل الإسلاميّ مزيداً من الرفعة، وذلك مذهب متّبع منذ أيام عنترة حين يقول في وصف خصمه:

ليس الكريمُ على القنا بمحرّمٍ

فَشَكَكْتُ بالرّمحِ الأصمّ ثيابَه

وقد كادت عناية ابن منير بتصوير نور الدين ينصر الإسلام تصبح أهّم محور في قصائده، في الفاتحة وغير الفاتحة؛ يقول ابن منير مهنّئا نور الدين بما ناله من انتصارات فـي الأعمـال الحورانيّة:

---

[1] ديوان ابن منيرص ٢٠٩.

لقد أوطأتَ دينَ اللّه عِزّاً

أديمُ الشّعريينِ لـــــه رغامُ

دعاك وقَدْ تناوشت الرّزايا

له أُهباً توزّعها الـــــعذامُ

فَقُمت بنصره والناسُ فوضى

فِئامُ ذمّ ما اقترفـــــتْ فِئامُ

جذبتَ بضَبعهِ من قعرِ يمٍّ

له من فوق مقسمهِ التطامُ([1])

فالدّينُ قد دعا "نوره" لنصره بعد أن مزّقت المصائب أديمه، وافترق النّاس فرقاً، فقـــام نـــور الدين بتلبية الدّعوة، وجذب الدّين الغارق في بحر لجيّ تلتطم أمواجه، وهكذا تمّ إعزازه لـــه. ومن ثمّ نجد الشّاعر يتعمّق في تصوير حال الإسلام مستخدماً صوراً مختلفـــة لينقـــل للنـــاس الفرق بين حاله قبل ظهور نور الدين وبعده.

وغدا الشّعر يحوم حول انبعاث المثل العليا من جديد بظهور نور الدين، وقد كان ممّـــا ســـهّل على الشّاعر الإلحاح اقترانُ الصدق الشعريّ بالصدق التّاريخيّ، ولعلّنا لا نجد إجماعـــاً علـــى الخصال الحميدة في بطل مجاهد كالّذي نجده لدى الشعراء الّذين يمدحون نور الدين، فهو عند ابن القيسرانيّ ذو جهادين: جهاد العدوّ وجهاد النفس(٢). ومن أجمل ما لدى الشـــعراء فـــي مدحه تلك المعاني الجهاديّة المولّدة الّتي اهتدوا إليها،

---

١ ديوان ابن منير ص ٢٠٩

٢ شعر ابن القيسرانيّ ص٥٨

كقول ابن القيسرانيّ أنّ نور الدين جعل الجهاد سهلاً بعد أن كان صعباً لأنّه حطّم الحاجز النّفسيّ – كما يقال اليوم– بين المحاربين وبين النصر، حيث يقول(١):

رَدَدتَ الجهادَ الصّعبَ سهلاً سبيلُهُ
ويا طالما أمسى ومسلكُهُ وعْرُ
وأطمعْت في الإفرنج مَنْ كان بأسُهُ
تَخــوّفَ أنْ يعتادَهُ منهمُ فِكْرُ
وأَقْحَمْتَ جُرْدَ الخيل أعلى حصونِها
ولولاك لم يَهجمْ على كافرٍ كُفْرُ

ويجعل العماد الأصفهانيّ(٢) هذا الإخلاص في الجهاد "قصّة حبّ" جديدة لا يعيشها إلاّ بطل مثل نور الدين؛ يستخلص من جحيم الحرب أماناً، ومن الحرب العوان فتوحاً بكراً. يقول(٣):

يا واحداً في الفضل غيرَ مدافَعٍ
أقسمت ما لكَ في البسيطة ثانِ
أحلى أمانيكَ الجهادُ وإنّه
لك مُؤذِنٌ أبَداً بكلّ أمانِ
كم بكرِ فتْحٍ ولّدْتْهُ ظُباكَ منْ
حربٍ لِقَمْعِ المشركينَ عَوانِ

---

١ شعر ابن القيسراني ص١٩٥

٢ العماد الاصفهاني هو :محمدبن محمدبن حامد ،ولد باصفهان سنة ٥١٩هـ،هاجر دمشق بعد المعاناة في بغداد،فاتصل بنور الدين زنكي ،فولاه الديوانوكان يكتب بالفارسية والعربية ،ثم قصد مصر وتبع صلاح الدين ،ولازمه في حله وترحاله ،وسجل كل انتصاراته ،كما فعل مع نورالدين تماماً،ترك للأدب ذخيرة كبيرة منها كتاب الخريدة والفتح القسي وترك ديوانا من لشعر من أربعة مجلدات،وتوفي سنة ٥٩٧هـ(من كتاب الحياة الأدبية بمصر والشام عصر الحروب الصليبية د.احمد بدوي ص ٣٦٤-٣٧٢ بتصرف)

٣ ديوان العماد ص ٤١١

كم وقعةٍ لكَ في الفرنجِ حديثُها

قد سار في الآفاق والبلـــــدانِ

ويحدّثنا أسامة بن منقذ بميزة في نور الدين انفرد بتصويرها، أعني حديثه عن أناتـــه الّتـــي يحسبها الجهول إهمالاً، ولكنّها تؤتي ثمرتها المرجوّة لأنّها مؤسسّة على دراسة الاحتمـــالات المختلفة(١):

ذَو أَناةٍ يَخالُها الغِرُّ إهمـــــا

لاً وفيها حتْفُ الأعادي المحيقُ

وكثيراً ما يشبّه الممدوح بالسيف، ولكنّ تشبيه أسامة لنورالدين بالسيف فريد في قوله(٢):

هـــــو مثْل الحسامِ صــَدْرٌ ثقيلٌ

ليّنٌ مسّهُ وحدّ ذلـــــــــيقُ

وفي الجملة: كان حظّ نور الدين من ثناء الشعراء أكثر من حظ أبيه عماد الدين لأسباب مختلفة، منها أنّ ما أحرزه نور الدين من انتصارات واكبها الشعر أكثر مما أحرزه أبوه، وأنّ الخلال المتميزة في نور الدين، ــ وفي مقدّمتها السماحة والتقوى ــ كانت أقوى بروزاً لديه ممّا كانت لدى عماد الدين، فقد كان الأب يمثّل شخصية القائد العسكريّ والحاكم الحازم الّذي يبثّ الهيبة في نفوس دون أن يستهوى الأفئدة؛ وقد قضى عماد الدين شطراً كبيراً من حياته وهو يخوض المصاعب قبل أن يثبّت أركان العدالة بين الناس.

---

١ ديوان أسامة ص ٩٨

٢ المصدر نفسه ص ٨٩

المبحث الثاني

التحذير من الخطر الصليبي

وممّا يرتبط بالدّعوة للجهاد وحثّ المسلمين على مواجهة الغزاة التّحذير من الخطر الّذي يمثّله الوجود الصّليبيّ على الإسلام: عقيدة وإنساناً وأرضاً. فقد دقّ ابن الخيّاط الدمشقيّ ناقوس الخطر في قصيدة قالها يمدح عضب الدّولة أمير الجيوش في دمشق، وصوّر الخطورة الّتي يمثّلها الفرنجة على المسلمين، والحقد الّذي يملأ قلوبهم عاى الإسلام :

أنَوْماً على مثْل هَدّ الصّفاة

وهَزْلاً وقد أصبح الأمرُ جدّا

وكيف تنامون عن أعينٍ

وتَرْتُمْ فَأَسْهَرْتُموهنّ حقدا

وشَرُّ الضّغائنِ ما أقْبَلَتْ

لديهِ الضّغائنُ بالكفرِ تُحْدا

بنو الشّرك لا يُنكرونَ الفسادَ

ولا يتركون مع الجَوْرِ قصْداَ([1])

وكان ابن القيسرانيّ على وعي تامٍّ بالعداوة المتأصّلة في نفوس حملة الصّليب على الإسلام وأهله، فصوّر تحفّزهم على قتل المسلمين وامتلاك أموالهم عندما غزوا دمشق سنة ١١٢٩/٥٢٣([2])قتلاً، ويغْتَنِموا الأموالَ فاغتُنِمُواسَروا ليبَتهبوا الأعمارَ فانتُهبواووجّه ابن قسيم الحمويّ الأنظار إلى أطماع ملك الروم في امتلاك بلاد الشّام كلّها عندما هاجم شيزر، وحاول احتلال حماة سنة ١١٣٨/٥٣٢([3]):

وما جَاءَ ملْك الرّوم إلا ليحتوي

حماةً، وما يسطو على الأسد الكلبُ

أراد بها أنْ يملكَ الشّام عنوةً

وقد غُلِبَتْ عنه الضراغمةُ الغُلْبُ

---

١ ديوان ابن الخيّاط الدمشقي ، تحقيق خليل مردم بك ،المجمع العلميّ العربيّ ،دمشق ،١٩٥٨.ص ٣٤

٢ تاريخ ابن عساكر ج١٦ ص٢٣٣

٣ شعرابن القيسراني ص ٣٥٨

ويصوّر ابن منير الطرابلسيّ خطورة هؤلاء الغزاة الوافديّن على جماعة المسلمين، حتى كادت البلاد تخلو من أهلها لولا دفاع نور الدّين عنها([1]):

لو لمْ يقمْ مُنْصَلِتاً دونَه

لمْ تَلْقَ في أقطارهِ مُسْلما

وإيماناً من ابن منير بوحدة الأرض الإسلامية، لم ينفكّ عن تبصير المسلمين بأنّ هذا العدوّ سيدهم العراق، وأنهّ يشكلّ خطراً على الديار الحجازيّة([2]):

لو لمْ يَكُنْ دون مِنىً فات المُنى

وأُقْعِدَ الفائزُ مِنْ قوّامِها

وامْـــــــتَكّ ماءَ مكّةٍ رَواَضعٌ

يقصرُ باعُ الدَّهر عن فطامِها

وصارَ كالجمرِ الجمارُ وخلا

منْ أهله الأشرفُ من مَقَامِها

وصدقت توقّعات ابن منير، فقد طمع الغزاةُ في غزو الديار المقدّسة، وعقدوا العزم على قصد المسجد النبويّ الشريف، إلا أن ّوقوف صلاح الدين في وجوههم، وتصدّيه لهم قد وضع حدّاً لأطماعهم، وفي ذلك يقول ابن السّاعاتيّ([3])([4])

لولاكَ أمَّ البيتَ غيرَ مُدافعٍ

وأسالَ سَيْل نداه في بطحائهِ

---

١ ديوان ابن منيرص ٢٥٨

٣ ابن الساعاتي هو : علي بن رستم بن هردوز،خراساني الأصل مواليد ٥٥٣هـ ،عرف بابن الساعاتي ،لأن والده عندما انتقل إلى الشام عرف بصناعة الساعات، وهو الذي صنع الساعات التي كانت على باب الجامع الكبير بدمشق،وكان ابن الساعاتي مولعاً بالحمال ،وشعره يدل على ذلك التحق بالدولة الأيوبية ومدح قائدها صلاح الدين ،وحضر فتح القدس وقال قصيدة طويلة (أعيا وقد عاينتم الآية العظمى – لأية حال تذخر النثر والنظما) توفي عام ٦٠٤هـ (نقلاً من كتاب الحياة الأدبية بمصر والشام عصر الحروب الصليبية /د.أحمد بدوي ص١٨٩

٤ الروضتين ٢٠٤/٢

وقد عبّر عبد المنعم الجلياني تعبيراً صريحاً عمّا كان يضطرم في نفوس الغزاة من كراهية شديدة للمسلمين ،حتّى إنّهم طمعوا في أسرهم وسبيهم، فاصطحبوا معهم التّجّار ليبيعوهم في أسواق النّخاسة، كما صوّر الشّاعر مطامعهم الّتي لا حدود لها في امتلاك الديار الإسلاميّة،وانتهاب خيراتها، وذلك إذ يقول(١):

أتَوْا بحبالٍ أُبْرَمتْ لإسارِنا

فسقناهمُ فيها قطـــــــيناً مجدَّدا

وَسَاموا تِجاراً تشترينا غواليا

فَبْعناهمُ بالرّخْصِ جَهْراً على النّدا

وقد أُقطعَ الكندُ العراقَ موقّعاً

فَأُودِعَ سجناً وسْطَ جلــّق مؤصَدا

وأَقْسَم أنْ يَسقيْ بدِجلة خَيْلَه

فما وَرَدَ الأردنَّ إلاّ مُصَـــــــفَّدا

---

١ ديوان ابن الساعاتي ج ٢ص ١١٧

المبحث الثالث

الأخذ بأسباب القوة والوحدة والدعوة إليهما

أدرك الشّعراء الشّاميّون أنّ ضعف المسلمين وتفرّقهم كان هو الباب الّذي ولج منه الغزاة إلى ديار الإسلام، ومن ثمّ تعالت دعواتهم إلى الأخذ بأسباب القوّة والوحدة، إيماناً منهم بأنّ ذلك هو السبيل الوحيد لصدّ المعتدين، وتحرير البلاد منهم. وقد اتّخذت هذه الدّعوات مظاهر شتّى ،منها استهلال القصائد الجهاديّة بمطالع تمّجد القّوة ،وتتغنّى بها. فعندما فتح عماد الدّين زنكي الرّها سنة ١١٤٤/٥٣٩ مدحه ابن القيسرانيّ بقصيدة افتتحها ببيتٍ مجّد فيه الاحتكام إلى السّيف في مقارعة الأعداء، وتأسيس الدّول فيقول(١):

هو السّيف لا يغنيك إلاّ جلادُهُ

وهل طوّق الإملاك إلاّ نجادُهُ

ويستوحي فتيان الشّاغوريّ أجواء الانتصارات الّتي أحرزها المسلمون بقيادة صلاح الدّين سنة ١١٨٧/٥٨٣، فيستهلّ قصيدة قالها في تلك المناسبة بمطلع يوحي بشعور الغلبة، وبالأيمان بالقّة سبيلاً إلى بناء الممالك واحتيازها(٢):

تُبنى الممالكُ بالوَشيج الأسمرِ

والبيض تلمعُ في العجاج الأكدَرِ

ورصد الشّعر الجهود الّتي بذلها نورالدّين لتوحيد بلاد الشّام(٣)، وعبّر عن ابتهاج الأمّة بانضواء هذه البلاد تحت لوائه، وكيف أنّ مبدأ الوحدة صار محور الآمال العامّة للنّاس. وكان من بعد نظر نورالدّين أن ترك للشعراء يتغنّون بالوحدة، ويجمعون قلوب الشعب حولها

---

١ ديوان ابن القيسراني ص ١٤٥

٢ ديوان فتيان ص ١٤٠

٣ انظر في ذلك: ديوان ابن منير:٢٢١، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٦٠؛ شعر ابن القيسرانيّ: ١٧٧؛ ديوان العماد: ١٠٢؛ الروضتين ٢/١

حتّى تخرس أصوات الشعراء كلَّ نغمة(فئويّة) تناصر الحكّام المحلّيين؛ فعندما دخل سنجار والرّحبة والأعمال الفراتيّة من أخيه قطب الدّين مودود صوّر ابن القيسرانيّ ترحيب الدّيار الّتي استولى عليه نورالدّين به، فسنجار سعيدة به حتّى تمنّت كلّ مدينة أنّها سنجار، والفرات مرحّب به، ورحبة مالك تبرّجت له لابسة حلل الربيع ونشرت على نور الدّين هوى القلوب محبّة([1]):

وَملكتَ سنجاراً وما مِن بلدةٍ

إلاّ تمنّى أنّها سنـــــجارُ

وَثنى الفراتُ إلى يديك عِنانَهُ

والبحرُ ما اتّصَلتْ به الأنهارُ

منها لعينكَ كاعبٌ مِعْـــطارُ

قبلَ الرّبيعِ شقائـــــقٌ وبَهارُ

وملكتَ رحبةَ مالكٍ فَتَبَرَّجــتْ

منها لعينكَ كاعـــــــبٌ مِعْطارُ

جاءتْكَ في حُلَلِ الرّبيع وحَلْيها

قبلَ الرّبيعِ شقائـــــــقٌ وبَهارُ

نَثَرَتْ عليك هوى القلوب محبّةً

وتودّ لو أنّ النّـــــــــجومّ نِثارُ

---

١ شعر ابن القيسرانيّ ص ٣٧٦.

وهذه الاستجابة التلقائيّة تمثّل تسارع المدن إلى الوحدة الكبرى، وتصوّر محبّة نورالدّين الّتي أُلقيت في القلوب بما لا يجاوز ما كان عليه الحال في الواقع، كما عبّر عن ذلك ابن القيسرانيّ في قوله([1]):

فَلا قلبَ إلاّ قد تملّكْتَهُ هوىً

ولا صدْرَ إلاّ قد جلاهُ لكَ النُّصْحُ

وما الجودُ في الأملاكِ إلاّ تجارةٌ

وَمنْ فاتَهُ حَمْدُ الورى فاتَهُ الرّبْحُ

وعلى الرّغم من ماديّة الصّورة في البيتين السّابقين فقد جاء الشاعر بها محكمة، مشيراً إلى مكارم نورالدّين في إغاثة المحتاجين، ولكنّ الشّاعر حين يرسم معنى وقوف أهل حلب ودمشق يداً واحدة

فإنّه يرتفع بالتّصوير إلى مستوى معنويّ سامٍ:

متى الْتَفَّ نَقْعُ الجحفلينِ على الهُدى

فلا مهْمَهٌ يحْوي الضّلالَ وَلا سَفْحُ

وقد أخذ الشعراء الشّاميّون يقارنون بين أحوال بلاد الشّام، وهي ضعيفة مفكّكة، وأحوالها بعد أن تحصّنت بالقّوة، ويوجّهون أنظار الأمّة إلى المكاسب الّتي تحقّقت لهم جرّاء الأخذ بأسباب القوّة. فحين أشاد أبو المرهف النمري سّنة ١١٩٢/٥٨٨ بصلاح الدين، رسم صورة زاهية لما آلت إليه الشّام بعد أن تولّى هذا القائد أمرها، وشد عراها، وحصّن نواحيها([2]):

ولّما ملكتَ الشّام عزّت ربوعه

ونال المنى سكّانُهُ والمؤمَّلا

---

١ شعر ابن القيسرانيّ ص ١٣١

٢ الخريدة (العراق) ج ٣ ص/٤٦٧

أَزَلْتَ به التّكديرَ من كلّ مورد

وأَخْصَبتَ منه كلّ ما كان أَمحــلا

وحصَّنْتَ منه كلّ ما كــان منْهُم

كأنّ له فوق المــجرّة مُعتلى

وأضحى بك الإسلاُم عزَّةَ جانبٍ

كأنّ له فوق المــــــجرّة مُعتلى

غير أنّ الشّعراء الشّاميّين رأوا أنّ هذه القوّة لا تُستكمل بغير الوحدة الجامعة بين أنحاء بلاد الشام وغيرها من البلاد الإسلاميّة، لذلك لم يفتأوا يحثوّن الأمّة على ضمّ صفوفها، وحشد قواها لمواجهة العدوّ المشترك. فقد أدرك طلائع بن رزّيك بحسّه اليقظ خطورة العدوّ المشترك، فأخذ يكاتب أسامة بن منقذ متطلّعاً إلى التعاون مع نورالدّين لمواجهة الغزو الصّليبيّ، وأسامة يردّ عليه بحقيقة اعتزام نور الدّين على الجهاد، وأنّه يستحقّ أن يشدّ بودّه يديه([1]):

واشدُدْ يَديْك بودّ نور الد

ّين، والْقَ بِهِ الرّجــالا

فهْوَ المحــــامي عنْ بلا

د الشّام جــمعاً أنْ تُذالا

وقد حثّ العرقلة الكلبيّ ([2]) نور الدّين على قصد مصر، ولم ير أنّ ثمةّ مجالا للتباطؤ عنها([3]):

---

١ ديوان أسامة ص ٢١٥

٢ العرقلة الكلبي هو :حسان بن نمير أبو الندى الكلبي ،الدمشقي المعروف بعرقلة ،كانمن أهلدمشق ،وكانت وفاته سنة ٥٦٧هـ،وقد قارب الثمانين) من كتاب نور الدين في الأدب العربي /د.محمود فايز السرطاوي ص ٢١٤)

٣ ديوان العرقلة ٣٢.

إلى كمْ ذا التّواني في دمشقِ

وقد جاءتكمُ مصرٌ تَهادَى

عروسٌ بعلُها أسدٌ هصورٌ

يصيدُ المعتدين ولنْ يُصادا

ألا يا معشرَ الأجـــنادِ سِيروا

وراءَ لوائهِ تَلْـــــــقَوا رشادا

غير أنّ نورالدّين أحجم عن التعاون مع ابن رزّيك، ولو تساءلنا عن علّة ذلك لوجـدنا أسباباً كثيرة من أهمّها تقدير نورالدّين –في الأرجح– أنّه لم يحرز الاستعداد الكـافي؛ ثـمّ إنّ نورّالدين تابع للخلافة العبّاسيّة، ورَبْطُ مصر والشام في عمل مشترك قد يسيء إلى الخلافـة العبّاسيّة، ونور الدّين مناوئ للإسماعيليّة، ولذلك فإنّ التعاون بينه وبين الفـواطم سـيكون آنيّاً، محدود الفائدة، لأنّ الفريقين لا يوجد بينهما شيء بعد التخلّص من العدوّ المشترك.

ولكنّ سياسة نورالدّين تغيّرت بعد مصرع أبي الغارات، فأخذ يسعى إلى الاستيلاء علي مصر، وإسقاط الفاطميّين، فأرسل لهذه الغاية عدّة حملات، وقد واكب الشعر الشّـاميّ تلـك الحملات، وعبّر عن ابتهاج الأمّة بهـذه الوحـدة الجامعـة، علـى شـاكلة قـول العمـاد الأصفهانيّ([1]):

في عقد عزّ من الإسلام منتظمِ

وعاوَدَتْ دولة الإحسان والكـــــــــرمِ

فَمُلْكُ مصرَ وَمُلْكُ الشّامِ قد نُظِما

والسنّةُ اتَّسَقتْ ، والبدعةُ انمـــــــحقتْ

ولم يقف الشعر عند مرحلة الابتهاج بالنصر والدعوة المجردة للوحدة ،والنشوة بنتائجها بعد فتح مصر بل تعدت ذلك كله للفت نظر القادة وعلى رأسهم نور الدين لبقية أركان مشروع

[1] ديوان العماد ص٣٨٠

الإصلاح العظيم الذي بدأت ثمراته تنضج ونتائجه تظهر ، فهذا العماد يلفت أنظار نور الدين إلى أركان مشروع الإصلاح وهي العدل والأفضال والنعم فيقول :

اغزُ الفرنج فهذا وقتُ غزوُهم

واحطِم جموعَهم بالذابل الحطمِ

فمُلك مصر ومُلك الشام قد نُظما

في عِقد عزٍ من الإسلام منتظمِ

محمودٌ الملكُ الغازي يسوسُهُما

بالفضل والعدل والأَفضال والنعمِ (١)

ثمة بعد آخر يبرز لنا من خلال القراءة المذهبية لهذه الفترة حيث كانت الدولة العبيدية ذات المذهب السني ،والدولة العباسية ،وهي دولة الخلافة حارسة المذهب السني في صراع اشتد أواره بعد انضمام البيت الزنكي للدولة العباسية ،وانطلاق نور الدين في حملته الجهادية لتثبيت المذهب السني ،والقضاء على الدولة العبيدية ، ولذلك رأى أنه لابد من إقامة وحدة إسلامية قوية شرعية في توجهها ،وتضم أرض الكنانة مع بلاد الشام ،من أجل توحيد البلاد على منهج السنة وإزالة البدع والرفض)(٢)، ليتجاوب الشعراء مع مافعله نور الدين في هذا الصدد إذ أبطل الآذان الشيعي(حي على خير العمل)وأقر الآذان الشرعي،فوجد ابن القيسراني يضع ذلك علامة على طريق توحيد المسلمين على طريق الجماعة والسنة فقال مادحاً إياه :

هذا وكم من سنة بدعةٍ

أعْدمتها مِن بعد إيجَادها(٣)

---

١ ديوان العماد ص٣٨٠

٢ كتاب نور الدين محمود /دعلي الصلابي ص٤٩٥.

٣ كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٢٠٨

المبحث الرابع

الاستعانة بالحرب النفسية في المواجهة بالكلمة

وقد تـــنبّه الشّعراء إلى ما قد يسمّى اليوم" الحرب النّفسيّة" طرداً أو أنّها حرب عكساً– أعني أنّها حربٌ نفسيّة على الأعداء بتوهين شوكتهم ودسّ التخاذل في نفوسهم، وهي حـــرب من أجل الجيوش الإسلاميّة لزرع الحماسة والثقة والتفاؤل في نفوس جندها. وقد اســـتوحوا في ذلك قوله عليه السلام "نُصِرَتْ بالرعب مسيرة شهر"،([1]) ولهذا أكثروا من تصوير الفـــزع الذي تثيره سمعة الجيوش الإسلاميّة حيثما اتّجهت.

والحرب النفسية أمر اتخذته الدولة الزنكية في مهد قيامها،ومبدأ نشأتها ،فقـــد أرســـل عماد الدين زنكي إلى الإمبراطور البيزنطي يقول له :

إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال،فانزلوا منها إلى الصحراء حتى نلتقي ،فإن ظفـــرت بكم أرحت المسلمين منكم ،وإن ظفرتم بي استرحتم وأخذتم شيزرر وغيرها ،ولم يكن لهم به قوة ،وإنما أراد أن يرهبهم بهذا القول وأشباهه ،ولذلك لما أشار الفرنجة علـــى الإمبراطـــور لمنازلة عماد الدين قال لهم :أتظنون أن معه من العساكر من ترون وله من الـــبلاد الكثيـــرة ،وإنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا فيه ،إنما يريد ان تلقونه فيجيئه من نجدات المســـلمين مالاحد له([2]) ،وتمر الأيام وتتوالى الانتصارات ،وتزيد على ايام نور الدين ،فيستمر الشـــعراء في إبراز سيوف تلك الحرب لأنها حرب يلعب فيها الإعلام دوره الكبير فهـــذاابن القيســـرانيّ يجرد من الذّعر والخوف سرايا تنهض لأرض العدوّ، بعد أن تكـــرّ ســـرايا خيـــل نورالـــدّين راجعة([3]) :

وإذا سرايا خَيْـــــــــلِهِ قَفَلَتْ

نَهَضَتْ سرايا الخوفِ والذّعـــــــرِ

---

١ الحديث في مصنف ابي شيبة /الحديث رقم ١٠

٢ كتاب عماد الدين زنكي /د.محمد علي الصلابي /ص١٣٣

٣ شعر ابن القيسراني ص ٢٣٩

أمّا سرايا صلاح الدين فإنّها تبعث أمامها "جيوشاً من الرّعب" في قول العماد([1]) :

سَراياك تَبعَث قدَّامهـــــــا

من الرّعب نَحوَ الأعادِي جيوشــا

والحقيقة أنّ تصوير الرعب والخوف وهما يستبدّان بجيوش الأعداء، إن لــم يكــن يعني تصوير الواقع، فإنّه في حالتيه الطرديّة والعكسيّة كان تشجيعاً للمســلمين، وترســيخاً للاعتقاد بأنّ عناية الله تحوطهم حيثما توجّهوا، وإيماناً بأنّ الرّعب الّذي نُصِرَ بــه الرَّســول عليه السلام، إنّما هو رعب مستمرّ لكلّ من يعادي الإسلام والمسلمين. وليس الأمر غير ذلك، لأنّ هؤلاء الصليبيّين لم يكونوا يتأثّرون بهذه الأشعار لأنّهم لم يكونوا يفهمونها، وربّما لــم تعنهم ،ويشبه ما تقدّم التخويف بالتهديد، وهو أيضا حديث نفسيّ يسمعه المحــارب المســلم فيزداد ثقةً بقائده وبنفسه كقول ابن القيسرانيّ([2]):

إلى أينَ يا أَسرى الضّلالةِ بَعْدَها

لقد ذلّ غاويكمْ وعزَّ رشـــــادُهُ

رويدكمُ لا مانعٌ لكمْ مِنْ مظَفَّـــــرٍ

يعاندُ أسبابَ القــضاءِ عِنــادُهُ

وتتصاعد نغمة التهديد إثر كل انتصار يحرزه المسلمون، كما يقول ابن منيــر بعــد فتح عَزاز([3]) :

حَذارِ فعندَ ابتسامِ الغيــــــــوثِ

يُخْشَى صواعقُ ألهابِهــــــــــا

---

١ ديوان العماد ص ٢٤٢

٢ شعر ابن القيسراني ص١٤٧

٣ ديوان ابن منيرص٢٢٣

ولا تُخْدَعوا بافتـــــرارِ الليــوثِ

فالنّار في برْدِ أنيابِهـــــــــــا

وأحيانا يجيء التّهديد في قالب نصيحة، ولا نصيحة هنالك، وإنّما ذلــك وجــه مــن تشقيق القول ينوّع به الشاعر نظرته إلى الممدوح وإلى أفعاله، كقول ابن القيسرانيّ([1]) :

فَقُلْ لملوكِ الخَافِقَيْنِ نصيحـــــــــةً

كذا عنْ طريق اللّيث يزأر غلبهُ

وَخَلّوا عن الآفاق فالشّرقُ شرقهُ
بحكمِ الرّدَيُنِّيات والغَرْبُ غربــهُ

ولا يعْتَصِمْ بالدّرْبِ طاغٍ على القنا
فإنّ القـــــنا في ثُغْرةِ النّحْر درْبُهُ

وثمّة طريقة أخرى لترسيخ الاطمئنان في نفــوس المســلمين وهــي تعظــيم شــأن الانتصارات، وتوشيتها بألق وضّاء، ومنحها غلالة الفرح والاستبشار، وهــذا أقــرب إلــى الواقع ممّا ذكرته عن تهديد الأعداء أو نصيحتهم، لأنّ إخراج الانتصارات بهذه الصــورة لا يملأ قلوب الجند ثقة وحسب، بل يبسط ظلّ المشاركة بالفرح عليهم وعلى أبناء الشعب الذين يحاربون من أجله؛ وهذا هو الجوّ الذي يصوّره ابن القيسراني بقوله([2]):

وفتحٌ حديثٌ في السَّماع حديثــــه

شَهِيّ إلى يوم المعادِ مُعـــــادُهُ

أراح قلوباً طِرُن عن وَكناتهـــــا

عليها فوافى كلّ صدرٍ فـــؤادُهُ

---

١ ديوان ابن القيسراني١٤٧

٢ شعر ابن القيسراني ٧٩

فيا ظفراً عمَّ البلادَ صلاحُـــــــهُ

بمنْ كانَ قد عمَّ البلادَ فســـادُهُ

وتفنّن الشعراء في تقويم هذا الفتح أو ذاك؛ فهذا "فتح الفتوح"، وذاك "فــتح أعــاد علـــى الإسلام بهجته". ويُعلي الشاعر من قيمة الفتح حين يقرن البهجة به بتجلّي جمـــال الطبيعـــة، فيغدو والفرحون به وكأنّهم شَرْبٌ نشاوى يتمايلون نشوةً وطرباً،

كما في قول ابن منير([1]):

نَشَرَتْ على حلبٍ عقودُ بنودهِـــمْ

حُلَلَ الرّبيعِ تناسقــتْ زهراتُـــهُ

روضٌ جناه لها مَكَرّ جيـــــــــادِهِ

واسْــتَوْأَرَتْ حَــمّالةً حملاتُـــهُ

متساندين إلى الرّحال كأنمـــــــا

شرْبٌ أمالتْ هامَهُ قهواتُـــــــهُ

وقد يصبح الفرح خير ما تفتتح بتصويره قصيدة تتحدّث عن النصر كقول الرّشيد النابلسيّ([2]):

هذا الّذي كانت الآمالُ تنْتَظـــرُ

فلْيوف للّهِ أقوامٌ بما نَــذَروا

بمثل ذا الفتح لا والله ما حُكيـــتْ

في سالف الدّهر أخبارٌ ولاسِيَــرُ

الآن قَرَّتْ جنوبٌ في مضاجِعهـــا

ونامَ من لمَ يَزَلْ حِلُفاً لهُ السَّهرُ

---

١ ديوان ابن منيرص ٢١٠

٢ الروضتين/ابو شامة ج ٢ص١١٨

وكأنّ الفرحة بفتح القدس قد عقدت لسان ابن الساعاتيّ، فهو يعنّف نفسه لأنّ لسانه لم ينطلق لدى تلقّي النّبأ السارّ بشعر أو نثر، بينما حلا ترديد "فتح القدس" على كلّ لسان، ونفذ صوته إلى كل مسمع، حتّى أسمع الرّماح الصمّ؛ ومن عجائب ذلك الفتح أنّه يحمل في الوقت نفسه معنيين لا يلتقيان، أحدهما السّرور الغامر، وثانيهما الغمّ الغامر ([1]):

أَعِـيّاً وَقدْ عاينتمُ الآيةَ العظمـــــى

لأَيّةِ حالٍ تذْخَرُ النّثرَ والنَّـــظما

وقد ساغَ فتحُ القدسِ في كلِّ مَنْطِقٍ
وشاع إلى أن أسمع الأسَــلَ الصّما

تَحلُّ بهِ الأضدادُ واللّفظُ واحـــدٌ
فكمْ سَرَّ قلباً في الأنامِ وكمْ غمَّـــا

والتّغني بالانتصار وتمجيده يقابله الاعتذار عن الهزيمة والتّهوين من شأنها، وقد تمثّل ذلك في قصيدة ابن الدهّان الحمصيّ الّتي أوّلها([2]):

ظُـبا المواضي وأطرافُ القنا الذُّبُلِ
ضوامنٌ لكَ ما حازوهُ مِنْ نَفَلِ

وقد قالها عندما كُسِرَ نورالدّين بحادثة البقيعة سنة١١٦٢/٥٥٨، وأصيب المسلمون فيها إصابة فادحة قتلاً وأسراً، ونجا نور الدّين نفسه بتضحية كرديّ لقي مصرعه. وحاول الشّاعر أن يعزّي المسلمين فيها عمّا حدث، متكئاً على أساليب شتّى في الاعتذار؛ فقد كان أَخْذُ المسلمين على غرّة أرادها الله نفاذاً للقدر المحتوم، والرماح ملقاة، والقسّي على غير استعداد، والخيل سائمة في مراعيها، ويحاول الشاعر أن يهوّن من انتصار الفرنجة، فهو نصر مبنيّ على الحيلة، والحيلة عدّة الجبان؛ مبنيّ على المكر، والمكر أخو الفشل؛ ولم يأسر الفرنجة إلاّ أصاغر وأتباعاً، وأين الشجاعة في أخذ الخيل وهي في شكال من أخذ الخيل

---

١ الروضتين/أبو شامة ج ٢ص١٠٦

٢) ديوان ابن الدّهان الحمصيّ ، تحقيق عبد الله الجبوري ،مطبعة دار المعارف ،بغداد ،١٩٦٨ ص ٧٠

بعد مواجهة فوارسها ؟ وما جيش نور الدّين إلاّ جيش أصابته "عين الكمـــال" ولا عجـــب أن يحدث ذلك، فإنّ لهم أسوة بما أصاب الرّسول –عليه الصلاة والسلام– في يوم حنين :

وإنّما أَخلدُوا جبناً إلى خُدَعٍ
إذْ لم يكنْ لهمُ بالجيش من قِبَلِ

واستيقظوا وأراد اللهُ غفلتكمْ

لِيَنْفُذَ القدرُ المحتومُ في الأزل

قناً لَقىً وقسيٌّ غيرُ موتَرَةٍ

والخيلُ عازبةٌ ترعى مَع الهملِ

حتّى أتَوْكمْ ولا الماذيّ مِنْ أَمَمٍ
ولا الظبّى كثبٌ من مرهقٍ عَجِلِ

بني الأُصيفرِ ما نلتمْ بمكركمُ
والمكرُ في كلّ إنسانٍ أخو الفشلِ

وما رجعتمْ بأسرى خابَ سعي
غيرِ الأصاغرِ والأتباعِ والسّقـــلِ

سَلَبتمُ الجردَ معرّاةً بلا لُجمٍ
والسّمرُمركوزةٌوالبيضُ في الخِلَلِ

هلْ آخذُ الخيلِ قد أَرْدَى فوارسَها
مثالُ آخذِها في الشّكلِ والطّوَلِ

جيشٌ أصابتهمُ عينُ الكمالِ وما
يخلو منَ العينِ إلاّ غيرُ مكتملِ([1])

---

١ ديوان ابن الدّهان الحمصيّ ، تحقيق عبد الله الجبوري ،مطبعة دار المعارف ،بغداد ،١٩٦٨ ص ٧١

لهمْ بيومِ حُنينٍ أسوةٌ وهـــمُ
خيرُ الأنامِ وفيهمْ خاتمُ الرّسلِ([1])

وحين يوجّه ابن الدّهان الخطاب إلى الهاربين فإنه يقرّعهم لأنهم طلبوا "السّهلَ" ليـــاذاً بالفرر، ولو لجأوا إلى"الجبل" – قائدهم وملكهم – لنَجَوا، فهم الملومون لأنهم أسلموا قائـــدهم وهربوا، وذُهِلوا عن استعمال الكنائن والرماح والسّيوف، بينما قام نور الدّين وحيداً وســـط الأعادي ثابت الجنان لا يروعه شيء. وبالفصل بين نور الدّين والجيش برّأه الشّـــاعر مـــن عار الفرار وأنحى باللائمة على العساكر:

قُلْ للمولّين كفّوا الطّرفَ مِنْ جُبُنٍ
عند اللِقاء وغُضّوا الطّرْف من خَجَلِ

طلبتمُ السَّهلَ تَبغونَ النّجاةَ ولوْ
لُذتُمْ بمَلْكِكمُ لذتمْ إلى الجبلِ

فقام فرداً وقد ولّت عساكرُهُ
فإنّ مِنْ نفسِهِ في جحفلٍ زَجِلِ

ثَـــباتُهُ في صدورِ الخيل أنقذَكُمْ
لا تَحْسَبوا وَثَبَاتِ الضمّرِ الذّلُلِ([2])

إنّ قصيدة ابن الدّهان تدلّ على براعة في الاعتذار وتلمّس وجوهه، ولكنّ القـــارئ – لإيمانه بأنّ الهزيمة حادثة تاريخيّة– لا يستطيع أن يعيش المفارقة القائمة بين التخيّل والواقع فإنْ كان الشاعر يريد "بالتبرير" إقناعاً فذلك يقصّر دون مبتغاه .

---

١) ديوان ابن الدّهان الحمصيّ ، تحقيق عبد الله الجبوري ،مطبعة دار المعارف ،بغداد ،١٩٦٨ ص ٧٣

٢ المصدرنفسه ص٧٤

المبحث الخامس

استشراف المستقبل والانتقال من انتصار للمطالبة بآخر

تمكن الصليبيون خلال الحملة الأولى من تأسيس أربع إمارات بالمشرق الإسلامي هي على الترتيب (إمارة الرها٤٩١هـ-١٠٩٨م) (إمارة إنطاكية ٤٩١هـ-١٠٩٨م) (مملكة بيت المقدس ٤٩٢هـ-١٠٩٩م) (إمارة طرابلس ٥٠٢هـ-١١٠٩م)،وكان الهدف الصليبي من هذا الغزو واضحاًوهواحتلال المشرق الإسلامي وتحويله إلى وطن أوروبي فيما وراء البحار([1])،وأفظع ماراتكبه الصليبيون من جرائم كانت يوم السيطرة على مدينة القدس ،حيث يصف إفرنجي([2]) عاصر الغزو تلك المذبحة الرهيبة التي ارتكبها الصليبيون فيقول :

(كان رجالنا يخوضون حتى كعوبهم في دماء القتلى واستمر الصليبيون في القتل والنهب لمدة اسبوع) ،لكن الله رزق الأمة قادة شجعان لم ينتظروا كثيراًفأعلنوا الجهاد نواستطاعوا أن يحققوا انتصترات عظيمة ،وقف لها شعراء العصر تمجيداًوتخليداً،إلاأن الهم الأكبر لهؤلاء الشعراء كلما اشادوا بنصر كان التفكير في النصر الأكبر وهو استرداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين ، ففي عام ٥٤٥هـ قاتل نور الدين جوسلين الذي كان يحكم البلاد التي تقع شمالي حلب ،وكان داهية ،لكن نر الدين اسره ،واخذ منه بلاده وكثيراًمن البلاد الأخرى بجواره ،فاستبشر المسلمون بهذا الفتاح ،وانبرى ابن القيسراني يقول :

دعا مادعى من غره النهي والأمر

فما الملك إلا ما حباك به الأمر

ثم انطلق يحث نور الدين على مواصلة الجهاد،حتى يتم تحري بيت المقدس فقال :

كأني بهذا العزم لافل حدهُ

وأقصَاه بالأقصى وقد قضي الأمرُ

وقد أصبح البيتُ المقدسِ طاهراَ

وليسَ سوى جاري الدمَاء له طهرُ ([3])

وعند فتح- نور الدين حصن- حارم وبارين،يمدحه ابن القيسراني أيضاً،لكنه ليس مدحا فقط بل إثارة همته نحو بيت المقدس فيقول :

---

١ تاريخ الدولة الزنكي /دعلي الصلابي ص٥١٧

٢ القدس عشية الغزو الصليبي/عباس الشهاوي /رسالة ماجستير /ص ١٢٢،١٢٣

٣ الروضتين ج١ ص٧٣.

فانهَضْ إلى المسجدِ الأقصى بذِي لجبٍ

يوليك أقصَى المُنى فالقدسُ مرتقِب

وائْذن لمَوجك في تطهير سَاحله

فإنما أنْت بَحر لجُه لجبُ ([1])

وهذا ابن منير الطرابلسي في قصيدته التي يمدح فيها نور الدين يظهر منه نفس ما سبق من ابن القيسراني فهو يدعو الله أن يحفظه ،وأن يطيل في عمره حتى يفتح بيت المقدس فيقول:

أبقَاك للدنْيا وللدينِ من

خلال في ليلـــــها نيراَ

حتَى ترى عِيسى من القدس قد

لجَا إلى سَيفك مُنتصراَ([2])

هكذا وبكل وضوح يظهر أن الأدب – والشعر الجهادي منه بخاصة – وقف طوال نصف قرن من الزمان يصدح بالنصر ثم يعقبه بما يجب أن يأتي بعده من انتصار تنتظــره الأمـــة فـــإذا بالقادة وهم في ثغور الجهاد تتشوق نفوسهم لنصر آخر،حتى إن نشوة الفتوح المتوالية جعلت نورا لدين يأمر الاختريني بعمل منبر جميل لينصب في بيت المقدس يوم الفتح المرتقب – هذا طبعا قبل أن يفتح– وذلك من شدة الاستثارة والتحريض من الشعراء (٣)

ولم يغفل الشعراء عن هذا الأمر ،حتى في الحروب التي كان يخوضها المســلمون لتوحيــد الصفوف وتأديب المتعاونين مع الصليبيين ،ومن ذلك ما قاله العماد اللأصفهاني في مدح نور الدين يوم أن أخذ قلعة (منبج)من يد صاحبها ابن حسان :

بشرى الممالك فتح قلعة مِنبج

فلين هذا النصر كل متوجِ

أُعطيت هذا الفتح مفتاحاًبه

في الملك يُفتح كل بابٍ مرتجِ

وافَى يبشرُ بالفتوح وراءه

فانهض إليها بالجيوش وعرجِ

---

١ الروضتين/ابو شامة / ج١ ص٥٩ .

٢ المصدر نفسه ج١ص٥٧.

٣ تاريخ الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك /دعمر موسى باشا /ص٤٨٢

أبشر فبيت القدس يتلو منبجاً

ولمنبج لسواه كالأنمـــــــوذجِ ([1])

ثم أنشد يقول وقد جعل تحرير بيت المقدس هدفه الأسمى :

فانهض إلى البيت المقدس غازياَ

وعلى طرابلس ونابلس عج([2])

ومن طريف ما يذكر أن نور الدين كان قد أعفى أهل دمشق من مطالبتهم بالخشب([3]) فرحاًبمناسبة استيلاء عسكره على مصر ،فاستغل أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله الدمشقي- والملقب بابن عساكر- ذلك لتذكير نور الدين بضرورة مواصلة الجهاد ،وأن تحرير بيت المقدس واجب إسلامي،غير ملتمس له لأي عذر عن تحقيق ذلك فقال :

لما سمحت لأهل الشام بالخشبِ

عوضت مصر بما فيها من النشبِ

وإن بذلت لفتح القدس محتسباً

للأجر جوزيت خيراص غير محتسبِ

إلى أن قال :

ولستَ تُعذر في ترك الجهاد وقدْ

أصبحتَ تملكُ من مصر إلى حلبِ ([4])

وفي سنة ٥٤٧هـ نزل نور الدين على حصن انطرسوس،وقاتل من فيه من الفرنج ،واحتل الحصن ثم ملك حصون أخرى ،فقال ابن منير – يمدحه ويحثه على مواصلة الجهاد :

أبدا تباشير وجه غزوك ضاحكاً

وتؤوب منه مؤيدا منصوراَ

تُدني لك الأمل البعيد ســـواهم

محقت أهلتها وكن بـــدوراَ([5])

---

١ الروضتين/أبو شامة / ج١ ص١٥٠.

٢ المصدر نفسه ج١ ص ١٧٤

٣ شعر الجهاد في عصر الحروب الصليبية/دمحمد الهرفي /١٤٧

٤ الروضتين/ابو شامة / ج١ ص١٧٥

٥ المصدر نفسه ص ١٧٥

ثم يدعوه لمواصلة الجهاد وبطريقة مباشرة دون اللجوء لبديع اللفظ ،أو تكلف الصور ،فيقول :

القِ العصى فيمَن أطاع ومن عَصَى
منهُم ودمر أرضَهم تدمِيراَ
لايلهـــــــــهم أن قدمننت وشنها
شعْواء تُصلي الكافرينَ سعيراَ
باكر بركز قناً تنسف أسها
والخيل صـــور كي تزيدَك صوراً
وتريك لامعةَ التريك بساحة ال
أقصى مطهرة لها تطـــــهيراً([1])

وهذا العماد الأصفهاني يمدح نورالدين عندما أخذ قلعة منبج من صاحبها ابن حسان عام ٥٦٣هـ فيقول مادحاً ومذكراً بالجهاد ،وان بيت المقدس ينتظر ما حدث لمنبج من الفتح:

بشرى الممالك فتح قلعة منبج
فليهن هذا النصر كل متوجِ
أعطيت هذا الفتح مفتاحاً به
في الملك يفتح كل باب مرتجِ
وافـى يبشر بالفتوح وراءه
فانهض إليها بالجيوش وعرجِ
أبشر فبيت المقدس يتلو منبجاً
ولمنبج لســـــواه كالأنموذجِ
ما أعجزتك الشهب في أبراجها
طلباً فكيف خـوارج في أبرجِ
فانهض على البيت المقدس غازياً
وعلى طرابلسٍ ونابلـس عجِ([2])

---

١ الروضتين/ابو شامة / ج١ ص ٨٧

٢ المصدر نفسه ج١ ص ١٥٠

وإلى بعدٍ آخر من أبعاد استخدام الشعر كأداة من أدوات المعركة،ووسيلة فعالة من وسائل التخطيط – حتى للقادة– ولفت أنظارهم إلى ما يجب أن تكون عليه الخطة المستقبلية ، فهذا ابن القيسراني يستعجل بأسلوب قوي التوجه إلى بيت المقدس والساحل،ويرى أن فتح الرها ليس نهاية المطاف ،وهو لايستقيم إلا بتحرير القدس والساحل فيقول :

أما آنَ أنْ يزهقَ الباطلُ

وأن يُنْجِزَ العِدَةَ الماطِلُ

فلا تحفلن بصول الذئاب

وقد زار الأسد الباسلُ

فإن يك فتح الرها لجةً

فساحلها القدس والساحلُ

فهل علمت علم تلك الديار

أن المقيم بهاراحلُ([1])

،ففي ذكر الرها مقرونة بذكر القدس وعي بالجانب المادي للصراع مع الفرنجة ،فالثغور الساحلية المحتلة تمد القواعد الداخلية،والرها منها ،وفيه وعي بالجانب المعنوي أيضاً،فالرها أخت القدس في المكانة عند الفرنجة،وتحريرها يذكر بوجوب تحرير القدس ،وبذلك يكون الشعراء قد شاركوا في صناعة وعي كامل بالنهضة المطلوبة([2]) .

---

١ الروضتين أبو شامة /ج١ ص٤٩ .

٢ شعر الصراع مع الفرنجة /دراسة تحليلية /د.فيصل صلاح الدين أصلان /ص ٤٣

المبحث السادس

شخصية البطل في شعر الحماسة

رواد التغيير وقادة الإصلاح هم أمل الأمم ،ومبعث آمالها من بعد آلامها ،ولما تجرعت الأمة من الآلام الكثير ،كان لابد لها أن تبحث عن قادة مخلصين ورجال أكفاء يصنعون الغد المشرق ،ويعيدون الحقوق المسلوبة ،ولأن فترة الدولة الزنكية فترة حروب وجهاد كان قواد هذه الفترة من القوة والشجاعة ما تجاوز مجرد التخطيط لمعركة إلى المشاركة الفعلية في القتال ،فظهرت صورة البطل في أراجيز الشعراء ،وكانت تلهمهم بالمعاني العظيمة، ولامراء أن عماد الدين زنكي كان أول من تزعم ردة الفعل الإسلامي القوية للغزو الصليبي ،وانه هو الذي بعث الآمال الخابية في نفوس المسلمين ،ولكن عماد الدين بقي في الدرجة الأولى ،القائد العسكري ،والحاكم الحازم ،يبث الهيبة ،دون أن يستهوي الأفئدة ،في حين أن ولده نور الدين قد جمع إلى شجاعة والده وحسن إدارته ،السمات التي يتطلع الإنسان المسلم إلى توافرها في الحاكم ،من عدل وتقوى وحدب ورأفة وحزم وحسن سياسة وقيادة ،وعلم واستشارة ،من أجل ذلك كان نور الدين يمثل أمل أمة ،وتطلعات جماعة ،وربما يرى البعض أن في التركيز على هؤلاء القادة بالإشادة بهم نوعاًمن عبادة الفرد وتقديس الحاكم ،ومن ثم الاستهانة بالشعب والأفراد العاديين،الذين يضطلعون فعلاً بالأعباء في الحرب والسلام على حد سواء ،والرد على ذلك أن تسخير الطاقات ،وتوظيفها بما ينفع المصلحة الكبرى هو من صميم دور القائد الصالح،وهذا القول لاينطبق على شرق دون غرب أوغرب دون شرق ،بل على الناس جميعاً في كل مكان ،والتمثيل على ذلك من التاريخ من نافلة القول (١)

وعلى هذا فقد انطلق الشعراء يصورون قادة زمانهم تصويرا يليق بمكانتهم من الأحداث باعتبار أنهم صناعها ،فتجد ابن القيسراني يصور نور الدين بأصفى الصور وأنقاها فيقول:

لك المساعي الغر ياجامعاً

من طرفيها بين أضدادها

يغشى الوغى أفرس فرسانها

وفي التقى أزهد زهادها

فأنت نسكاً غيث أبدالها

وأنت فتكًا ليث آسادها

---

١ صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني/د.محمود ابراهيم / ١٥٦

في أمة أنت حمى دينها

حيناً وحيناً شمس عبادها

يطوي بك العمر إلى غاية

حسبك تقوى الله من زادها (١)

وابن القيسراني نفسه يقارن بين نور الدين كحاكم غيور يسجل الانتصار تلو الآخر ،وغيره من المتخاذلين المتاجرين بالأرض والعرض فيقول:

ياساهد الطرف والأجفان هاجعة

وثابت القلب والأحشاء تضطربُ

من كان يغزو بلاد الشرك مكتسباً

من الملوك فنور الدين محتسبُ

كنا نعد حمى أطرافنا ظفراً

فملكتك الظبا ماليس تحتسبُ (٢)

ومن الطريف أن ابن القيسراني وهو يشيد بالبطل نور الدين حاول أن يتجاوز (تركية) ممدوحه بلباقة عالية فيقول:

شيم الصالحين في جتر الترك

وكم من سكينة في قباء

صاغك الله من صميم المعالي

حيث لانسبة سوى الآلاء

وكأن القباء منك لما ضم

من الطهر مسجد لقباء (٣)

وهذا ابن منير الطرابلسي يمدح عماد الدين زنكي بعد فتح الرها ،مظهراً خصال التقى والعفاف ،والجود والكرم فيقول :

أصبحت دون ملوك الأرض منفرداً

بلاشبيه إذا الأملاك أشباه

---

١ كتاب الروضتين/ابو شامة / ج١ ص٢٠٩

٢ المصدر نفسه ج١ ص ١٥٣-١٥٤

٣ المصدر نفسه / ج١ص٤٥

ملك تنام عن الفحشاء همته

تقى وتسهر للمعروف عيناه

وقد روى الناس أخبار الكرام مضوا

وأين ممـــــاروووه ما رأيناه

يامحيي العدل إذ قامت نوادبه

وعامر الجــود لما مح مغناه

أبقاك للدين والدنيا تحوطهما

من لم يتوجك هذا التاج إلاه ([1])

مماسبق يتبين أن مدح البطل كان تلخيصاً وإظهاراًللجانب البارز في أخلاق البطل ،والتي كانت صانعة الانتصار ،فهذا أسامة بن منقذ يمدح معين الدين أنر بعدانتصاره على الفرنج فيقول :

كل يوم فتحٌ مبينٌ ونصرُ

واعتلاءُ على الأعَادي وقهرُ

قد أتاك الزمان بالعذروالإعتاب

مما جـــــــناه إذهو غـــــرُ

صدق النعت فيك أنت معين

الدين إن النعوت فأل وزجــرُ

أنت سيف الإسلام حقاًفلا فُل

غراريك أيها السيف دهـــــرُ

بك زاد الإسلام يا سيفه المخدم

عزاً وذل كـــــــــفر وكفــرُ ([2])

مما سبق يظهر واضحً أن شخصية البطل كانت موضوعاً من موضوعات الشعر في ذلك الوقت،لأن الواقع الذي شهدته هذه الفترة كان يتطلب البحث عن قيادة راشدة تلم شعث الأمة من جديد ،فتوحد الصفوف ،وتوظف الطاقات ،لمواجهة العدو المشترك ،فلما يظهر هذا القائد ويكون مثالا للشجاعة والإقدام كعماد الدين زنكي،أو نور الدين محمود فيجمع في شخصية واحدة عددا من الخصال قلما يأذن الله أن تجتمع في شخص واحد ،فكيف يكون احتفاء الشعراء به ،بل كيف تكون فرحة الأمة به؟

---

١ الروضتين ج١ ص٣٦

٢ ديوان أسامة ص١٧٠

ولذلك جد الشعر في تصويرهم وآثارهم أحياء كما جد أكثر في رثائهم والبكاء عليهم بعد موتهم ،فهذا الشاعر ابن القلانسي يرثي عماد الدين بعد وفاته بقلعة جعبر عام ٥٤١هـ فيرثيه بقصيدة طويلة جاء فيها :

كذاك عماد الدين زنكي تنافرتء
سعادته عنْه وخرت دعائمهْ
ودانت ولاةُ الارضِ فيها لأمرهِ
وقد أمنتهم كتبه وخواتـمهْ
وأمن من في كل قـطرٍ بهيبةٍ
تراع بها أعرابه وأعاجـمهْ
وظالم قوم حين يذكر عدلـهُ
فقد زال عنهم ظلمُه وخصائمهْ
فمن ذا الذي يأتي بهيبة مثله
وتنفذ في أقصى البلاد مراسمـهْ (١)

ولاريب أن عماد الدين زنكي قد أرسى الدعائم الأولى لهذا العصر من الناحية العسكرية ،فقد دانت له الولاة ،واستقر الأمن في عصره،لأجل هذا كان البكاء وكان الرثاء ،فهو ليس شخصا عاديا،لم يترك أثرا بعد موته،بل كان قائداً وبطلا ترك أثرا بناه من بعده ابنه نور الدين محمود(٢).

وإذا كان موت الشهيد عماد الدين قد ترك هذه الآثار على الشعر العربي في هذا الوقت فإن موت ابنه الملك العادل التقي الشجاع نور الدين ،والذي كانت وفاته في شهر شوال عام ٥٦٩ هـ ،فاجعة كبرى على العالم الإسلامي بأسره آنذاك ،(فقد طبق الأرض ذكره لحسن سيرته وعدله ،ولم يكن مثله إلا الشاذ النادر رحمة الله تعالى عليه)(٣)،

---

١ تاريخ ابن القلانسي /٤٤٧ نقلاًعن كتاب الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري /د.شفيق محمدعبد الرحمن الرقب ٩٠/٩١

٢ الحروب الصليبية وأثرهاعلى الشعر العربي /د.محمد الهرفي /النادي الأدبي /الرياض/١٤٠٠/١٩٨٠م /ص١٧٨

٣ الروضتين /أبوشامة /ج١ /ص٢٢٩ .

فقد كان حريصا على الشهادة

،وكان يقول :

(طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها ،وقال الذهبي :نور الدين الشهيد([1]) ، وقد رثاه العماد بقصيدة رائعة كان مطلعها([2]) :

الدين في ظلم لغيبة نوره

والدهر في غمم لفقد أميرِه

فلينذب الإسلام حامي أهله

والشام حافظ ملكه وثغورِه

ثم يتساءل الشاعر مندهشاً في حيرة وفي تسعة أبيات متتالية توضح ما كان من نور الدين من آثار خيرة وبطولات رائعة ،وانتصارات مشرقة على الأعداء ،علاوة على الصفات الشخصية والشمائل الكريمة التي يرثيها الشاعر بتأثر كبيرفي قوله :

من للمساجد والمدارس بانياً

لله طوعاًمن خلوص ضميرهِ

من ينصر الإسلام في غزواته

فلقد أصيـــب بركنه وظهيرِه

من للفرنج ومن لأسْر ملوكها

من للهدى يبغي فكَاك أسيرهِ

من للخطوب مذللاً لجِماحها

من للزمـــان مسهلاً لوعورهِ

من كاشـــف لمعاضلات برأيه

من مشرقٍ في الداجياتِ بنورهِ

من للكريم ومن لنعش عثاره

من لليتيم ومن لجَبر كَســـــيرهِ

من للبلاد ومن لنصر جيوشها

من للجهاد ومن لِحفظ أمـــــورهِ

---

١ سير أعلام النبلاء /٢٠/٥٣٧/نقلاًمن كتاب نورد الدين محمود /د.علي الصلابي ص٤٧١

٢ كتاب الروضتين //أبو شامة /ج٢ ص ٣٦٩.

من للفتوح مـــحاولاً أبكارها

برواحشـــــه في غزوه وبـــُكورهِ

من للعلا وعهودها من للندى

ووفوده من للحِـجا ووفـــُــــورهِ

ثم ينبري الشاعر فيذكر أمل نور الدين في حياته وهو تطهير بيت المقدس وتحريره ،فيقول في نبرة كلها أسى وحسرة :

أو ما وعدت القدس انك منجز

ميـــــعاده في فتحه وظهورهِ

فمتى تجير القدس من دنس العدى

وتقدس الرحـــمن في تطهيرهِ

إلى هذا الحد وصلت صورة البطل أن يسأله الشاعر حتى بعد مماته عن الأمل والطموح ،مما يثبت المكانة الكبيرة لهذا البطل في النفوس ،خاصة أن هذا الكلام يأتي من شاعر طالما رافق نور الدين ،ووصفه بأحسن لفظ وأرقه،وكان من أشهر كتابه ،وأقربهم إليه([1]).

والحقيقة أن الخطاب الشعري للبطل لم يكن كله مدحاً وتمجيداً وإشادة بالبطولات فقط ،وإنما كان فيه من لهجة الإلزام وصدق الطلب بالأمر ،مما لم يكن ليخضع لأصول وقواعد الحديث مع الملوك والأمراء وقادة الجيوش ،من المدح واختيار اللفظ الجميل وما شابه ،فهذا ابن عساكر حين يرى ملامح المشروع الإصلاحي تتقدم وتبرز ،وحين رأى الآمال تتحقق يوماًبعد يوم ،انطلق يلزم نور الدين في لهجة تبدو فيها صيغ الإلزام والطلب قائلاً:

ولست تعذرُ في ترك الجهاد وقد

أصبحت تملك من مصر إلى حلبِ

وصاحب الموصل الفيحاء ممتثل

لما تـــــريد فبادر فـــــجأة النوبِ

وطهر المسجد الأقصى وحوزته

من النجاسات والإشراك والصلبِ

عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا

وفي القيامة تلـــقى حسن منقلبِ ([2])

---

١ كتاب الروضتين/أبو شامة ج٢ص٣٨٢ /ص٣٨١

٢ كتاب الروضتين ج٢ص٤٠٥

فنظرة لقوله (ولست تعذر في ترك الجهاد .....) يتبين لنا منها البون الشاسع ما بين هذا الشعر لبطل مثل نور الدين ،وبين المديح المعروف في ديوان العرب ([1]).

ثمة بعد آخر يجب ذكره هنا،والأمر متعلق بالجانب البطولي لقواد هذا العصر ،وموقف الشعر منهم وهو ان الشعر في هذه الفترة خلا من المدح المبني على طلب المال ،والمكانة،وأنه كان يركز على مشاعر الإعجاب الصادق بالبطل الإسلامي نفسه بخصائصه،وصفاته،وأفعاله ومنجزاته من ناحية .

أما الناحية الثانية فهي التركيز على البعد الديني لمضمون الكلام ،لأن الظرف الذي كانت الأمة تعيشه ،كان ظرفاً يحتاج اهتماماً بالقضايا التي تخص الأمة ،أكثر من القضايا التي تخص الأفراد – حتى لو كانوا قادة،وذلك بسبب الطبيعة الدينية التي اكتسبتها الحرب الصليبية مع العدو الواضح والراية الواضحة ،فهو قتال تحت راية الدين،وبالتالي يكتسب القائد والبطل لون المجاهد الذي تتغنى به القصائد ،وتتمثله الأجيال صورة تستدعي صورة المجاهدين الأوائل من الصحابة الكرام .

أما الناحية الثالثة فهي أن القادة أنفسهم كانوا غير عابئين بتمجيد من أحد،زيادة في التواضع ،وإمعاناً في الشعور بأنهم يؤدون واجباً،وبالتالي لم تكن القضايا الفردية ذات وجود على الساحة الأدبية حتى أن بعض الشعراء كانوا يشتكون من قلة عطايا السلاطين فيقول عماد الدين مداعباً نور الدين :

أميرنا زاهد والناس قد زهدوا

له فكل على الطاعات منكمش

أيامه مثل شهر الصوم طاهرة

من المعاصي وفيها الجوع والعطش ([2])

رغم ذلك فقد كانوا يقصدون من الشعر مايحث الناس على بث العزيمة في النفوس،والتنشيط إلى القتال ،ولذلك سأل نور الدين الشاعر العماد أن يعمل على لسانه (دوبيتات) في معنى الجهاد،فقال :

للغزو نشاطي وإليه طربي

مالي في العيش غيره من أربِ

---

١ شعر الصراع مع الإفرنجة /د.فيصل صلاح الدين أصلان /ص٥٦

٢ ديوان العماد الأصفهاني /ص ٢٠٨ بتحقيق الدكتور أحمد بدوي

بالجد والجهاد نجح الطلب

والراحة مستودعةً في التعبِ[1]

وفي الجملة ،نستطيع القول إن البطل في الصورة الشعرية ،لهذا العصر كان محوراً بارزاً دارت حوله آمال الشعراء،التي كانت تحاكي آمال أمة تتطلع لواقع مشرق ،مما يثبت أن القيادة الصالحة مهما بلغت من الصلاح والنجاح ،فإن الحاجة لأجهزة إعلام ،ومنابر تتحرك بإنجازاتها ،وتشيد بأعمالها ،وتنصحها عند انحراف مسيرتها،وتريها مما يجب فعله ،ويجرم تركه من مصالح الأمة ،حاجة مؤكدة لاريب في ذلك ،وذلك ما قام به الشعر في ذلك العصر الزاهر من عصور التاريخ .

---

١ الروضتين /٢/٢٨ه نقلاًعن كتاب شعر الصراع مع الإفرنجة /د.فيصل صلاح الدين أصلان /ص٤٧

المبحث السابع

الأثر الديني في القصيدة الحماسية

يتأثر الناس عادةً بما يعيشون من أحداث وما يسايرون من مواقف ،والإنسان يعبرعن شعوره وفق تأثره بهذه الأحداث أو تاثيره فيها ،ولاتنفك حالة المرء عن واحدةٍ من حالتين متأثرٌ بحدث فهو يرويه بآثاره عليه،ومؤثر في حدث فهو يروي آثاره فيه ،والشعراء في هذا الزمان كانت لهم أودار ريادية ،تقدموا فيها المسيرة ،وأظهروا تفاعل الأدب مع الأحداث الجليلة وهم يؤثرون فيها بالقدر الذي تأثروا به بله أكثر ،ولأن طبيعة هذه الفترة شهدت أحداثاًضخمة هجم فيها المحتل،فكان لزاماًللأثرالديني أن يظهر في خضم هذا التفاعل،فهل ظهر الأثر الديني في ألفاظ وكلمات الشعراء كما ظهر في صورهم الشعرية وتشبيهاتهم الجمالية ؟؟؟؟؟ هذا ما سنفصله في هذا المبحث.....

وبين يدي المبحث يمكننا أن نتساءل في البداية ،ما هي العوامل التي يمكن أن تمكن للعامل الديني أن يلعب دوره في صياغة الجوالعام لقصائد شعراء هذا العصربالإضافة للالفاظ والاقتباسات ،والصور الجمالية وخلافه ؟؟؟

الحقيقة أن ثمة عوامل كثيرة تضافرت لتوفيرهذا الجو الواضح في قصائد شعر الحماسة لدى شعراء الدولة الزنكية منها:

أ- <u>الثقافة الدينيةالواسعة للحكام</u> ،والتي كانت موجودة منذ العصر السلجوقي السابق لهذا العصر الذي اصطبغ حكامه بصلاح آل سلجوق ،فعماد الدين زنكي هو المؤسس للدولة الزنكية كان تقياً صالحاً محباًللجهاد ،له نزعة دينية واضحة – حتى في سياسته الداخلية – فعندما أراد أن يولي هبة الله بن أبي جرادة قضاء حلب قال له ((هذاالأمر قد نزعته من عنقي وقلدتك إياه ،فينبغي أن تتق الله))([1]) ،وكان يتصدق كل جمعةبمائة دينار جهراً،ويتصدق بما عداها من الأيام سراً.

أما نورالدين فقد بلغ المبلغ في الزهد والعبادة والخلق الحسن يحكي ابن الأثير قال :وحكى لنا الأمير بهاء الدين علب بن الشكري ،وكان مختصاً بخدمة نور الدين قد صحبه من الصبا وأنس به وله معه انبساط ،قال:كنت معه في الميدان بالرها والشمس في ظهورنا،فكلما سرنا تقدمنا الظل ،فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا ،فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه وقال

---

١ عماد الدين زنكي /د.محمدعلي الصلابي /ص ٤١

لي:أتدري لأي شيءأجري فرسي،وألتفت ورائي ؟قلت لا،قال((قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا ،تهرب ممن يطلبها وتطلب من يهرب منها))،((قلت :رضي الله عن ملك يفكر في مثل هذا)) ،وقد أنشدت بيتين في هذا المعنى وهما :

مثل الرزق الذي تطلبه

مثل الظل الذي يمشي معك

أنت لاتدركه متبعاً

وإذا ولـــيت عنه يتبعك ([1])

هكذا كان الحكام والمراء والملوك فكيف بالشعراء الذي صحبوهم ،وكيف يكون حال مجتمع محارب ،يتنادى أهله دائماًبوجوب الجهاد لدحر الأعداء

ب-<u>العامل الثاني هو الأحداث والظروف</u> التي كان المجتمع يعيشها من حرب صليبية حاقدة على البلاد والمقدسات والأعراض ،وهي الأحداث التي تبرز فيها عناصر حب الدين والحماسة له إذيبحث الناس عن منقذ فلايجدون إلا التجمع حول الدين ،فإذا كان هناك جهاز إعلامي مثل الشعر وإعلاميون مثل الشعراء فهل يغردون خارج السرب أم يسايرون هموم الناس ويتجاوبون مع مشاعرهم ،وآلامهم وآمالهم ،وأظن أن الإنتاج الشعري بما سنرى نماذج منه بعد قليل يؤكد أن الشعراءسايروا أمتهم بل وجهوا هذه المشاعر نحو الجادة بدءاًمن مناصرتهم للحكام الصالحين مروراًبأشعارهم التي أظهرت للناس مآثر الجهاد مما أظهر الشكل الإسلامي في الشعر بشكل واضح لم يُر من قبل إلا في شعر الفتوحات الإسلامية في صدر الإسلام .

ونستعرض بعضامن النماذج الشعريةلبيان مدى الأثر الإسلامي في شعر هذه الفترة :

- هذاالعماد الأصفهاني يستخدم من التعبيرات والألفاظ مثل :الطهر والقداسة ،ولباس الكفر ،وقدس الأرض ،وبيت الله ،واحكام الدين ،وأذان القدس ،وملائكة الرحمن ،في قوله مخاطباً صلاح الدين :

ومن قبل فتح القدس كنت مقدساً

فلا عدمت أخلاقك الطهر والقدساَ

نزعت لباس الكفر عن كفر ارضها

وألبستها الدين الذي كشف اللبساَ

---

١ عيون الروضتين في أخبار الدولتين /شهاب الدين المقدسي/ج١ ص ٢٦١

جرى بالذي يهوي القضاء وظاهرت

ملائكة الرحمن أجنادك الحـــــمساَ([1])

وللعماد أيضاً في تشبيهه لانتصارات نور الدين بانتصارات الرسول-ﷺ – التي تأثر فيها بالحديث النبوي(نصرت بالرعب)([2]) حيث يقول :

وانت من وقعت في الكفر هيبتهُ

وفي ذويه وقوع النار في الحطبِ

وحين سرت إلى الكفار فانهزموا

نُصِرْتَ نَصرَ رسولِ الله بالرعبِ([3])

ويقارن العماد بين نقض شاور للعهد مع نور الدين وأسدالدين بنقض بني قريظة للعهد مع رسول الله -ﷺ – والمسلمين فيقول:

شارك المشركين بغياً وقدماً

شاركتها قريظة والنضيرُ([4])

والشعراءعند مدحهم لنور الدين أظهروا ذلك الأثر الكبير للدين بما يتناسب مع شخصية الممدوح ومناقبه الدينية الواضحة فهو يزيل الشرك،ويغضب للإسلام ،ويعزه،ويحمي الدين ،ويهين الشرك ،ويحي الشريعة ،وينشر الحق ،ويطيع الله ويشكره ،ويأمر بالمعروف ،وينهى عن المنكر ولكل مما سبق من أوصاف مثال على ألسنةالشعراء ،يقول ابن منير([5]) :

ومحا المظالم منك نظرة راحم

لله في خطراته أسرارُ

غضبان للإسلام مال عموده

فلنوره مما عراه نوارُ

---

١) بيت المقدس في شعر الحروب الصّليبية ،د. عبد الجليل عبد المهدي، دار البشير، عمان ١٩٨.ص ٢٦٣

٢ صحيح البخاري ج١/١١٣

٣ ديوان العماد /ص ٨١.

٤ المرجع نفسه ص ١٨١.

٥ ديوان ابن منير/ج ١/ ص١٩١

ويقول ابن منير أن نور الدين يعزدين الله ،ويحي شريعته ،فقال([1]):

ألبست دين محمد يانوره

عزاً له فوق السهاد إسادُ

وقال ([2]):

محيي شريعته من بعد ماانهدمت

واستعجمت بعد إفصاح معانيها

ويقول ابن قسيم الحموي، مظهراً أن نور الدين يهين الشرك([3]):

والدينُ يشْهد إنه لَمعزهُ

والشِرك يشْهد إنه لمهينهُ

وابن القيسراني يصورنور الدين بأنه (زاهد-ناسك-تقي- شجاع-يحمي الدين – يحارب البدع-)ويستخدم بعضاًمن الألفاظ الصوفية([4]) فيقول :

يغشى الوغى أفرس فرسانِها

وفي التقى أزهد زهادِها

فأنت نسكاًغـــــيث أبطـــالها

وأنت فتـــــكاًليث آسادها

في أمةٍ أنت حمى دينها

حيناًوحيناًشـــــمس عبادها

يطوي بك العمرإلى غايةٍ

حسبك تقوى الله من زادها

هذا وكم من سنة بدعةٍ

أعدمتها من بعد إيـــــجادِهاَ([5])

---

١ ديوان ابن منيرص ٢٦٢

٢ المصدر نفسه ٢٥٤

٣ كتاب الروضتين/أبو شامة ج١ص٥٨

٤ نور الدين في الأدب العربي/محمود فايز السرطاوي ص٢٦٧

٥المصدرنفسه ص٢٦٧

– وقد انعكست في أشعار القوم مباديء الإسلام العظمى مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،فقال العماد الاصفهاني واصفاًنور الدين بأنه يأتمر بالمعروف ،وينتهي عمانهى الله عنه فيقول :

وبما به أمر الإله أمرتَهم

من طاعةٍ ونهيتَهم عما نهَى

وفي البيت إشارة إلى قوله تعالى (الذينَ إِن مَكنَاهم فيِ الْأَرضِ أقامُواْ الصَلاة وآتُوا الزَكَاةَ ،وأمَرواْ بِالمَعْروفِ ونَهَوْا عن المُنْكَر)([1]) وإلى قوله تعالى (وَلْتَكُن مِنْكُم أُمَةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ويَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ ،ويَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ،وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)([2])

- ومن المعاني التي أثبتها الشعراء معنى الإيمان بالقضاء والقدر وهو ركن من أركان الإيمان الستة الواردة في الحديث الصحيح :عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– قال :بينما نحن جلوس عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم– إذ طلع علينا رجل ،،،،،، وذكر الحديث قال :فأخبرني عن الإيمان ؟قال :أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ،وتؤمن بالقدر خيره وشره قال:صدقت،قال فأخبرني عن الإحسان ،،،،،،إلى آخر الحديث) ([3])

ومن ذلك ما قاله ابن أسعد الموصلي من قصيدة مدح فيها نور الدين يعتذر عن هزيمة الجيش بأن هذا قدر الله فقال:

واستيقظوا وأَرَادَ اللهُ غَفْلتكُمْ

لِيَنفُذَ القَدَرُ المَحْتُومُ فيِ الْأَجَلِ

وفي نفس المعنى يقول طلائع بين رزيك من رسالة شعرية بعث بهاإلى أسامة بن منقذ يحث فيها نور الدين على التجهز لقتال الفرنج :

وإذا أبـــــــــــــى ألا

اطِراحاً للنصـــــيحةِ واعتزالاَ

عدنا بتلسِـــــــــيمِ الأُمو

رِ لحـــــــــكْم خالقِنا تَعَالى ([4])

---

١ سورة الحج الآية /٤١.

٢ سورة آل عمران الآية/ ١٠٤

٣ الحديث رواه الإمام مسلم ج١ ص٣٦

٤ ديوان طلائع بين رزيك ص١٢٦

ومن أكثر المظاهر استدلاًعلى وجودالأثر الإسلامي بكثرة في شعر الحماسة هو استشهادهم بالقرآن الكريم ،مما يدل على اتساع ثقافتهم وإلمامهم بالآيات والسور ،فتكون استشهاداتهم إما كلية فيأتون بآية كاملة ،وقد يكون جزئياًفيأتون بجزء من آية)([1])

مثال ذك قول ابن القيسراني:

كأني بهذاالعزمِ لافُل حدهُ

وأَقْصَاهُ بِالْأَقصَى وقَد قُضِي الْأمرُ

ويبدو الشاعر هنا متأثراً بقول الله (وَأَنْذِرْهُمْ يَومَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ،وهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَايُؤْمنُونَ)([2]).

وبقوله تعالى (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ،وَغِيضَ الْمَاءُ ،وَقُضِيَ الْأَمْرُ ،وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِي ،وَقِيلَ بُعْداًلِلْقَوْمِ الظَالِمِينَ)([3]).

وقال ابن منير :

تَصُبُ عَصَاكَ عَلَىَ مَنْ عَصَا

كَ يَوْماًعَبُوساًبِهَا قَمْطَرِيراً

فالشاعر هنا ضمن بيته جزءاً من قوله تعالى (إِنَا نَخَافُ مِن رَبِنَا يَوْماًعَبُوساًقَمْطَرِيراً)([4]).

وتأثر العماد في بيتين بآيتين مختلفتين في قوله :

فصبوا على الإفرنج سوط عذابها

بأَنْ تُقَسموا ما بَيْنَهَا الْقَتْل والأسرَ

وقال في البيت الآخر :

فاشْكُرِ اللهَ حِينَ أَوْلاكَ نصراً

فَهُو نِعْم المَولَى وَنِعْم النصير

ففي البيت الأول تأثر بقوله تعالى (فَصَبَ عَلَيْهِمْ رَبُكَ سَوْطَ عَذَابٍ)([5])،وفي البيت الثاني تأثر بقوله تعالى (وَاعْتَصِمُواْ بِاللهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ ،فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَصِير)([6])

---

١ نور الدين زنكي في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية ،د.محمود فايز إبراهيم السرطاوي ،دار البشير ،عمان ،الأردن ،الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩٠م./ص ٢٧٠

٢ سورة مريم الآية (٢٩)

٣ سورة هود/ الآية ٤٤

٤ سورة الإنسان/ الآية ١٠

٥ سورة الفجر الآية/١٣

٦ سورة الحج/ ٧٨

هذا وقد وردت بعض الألفاظ الإسلامية المتعلقة بالصراعبين المسلمين والصليبيين ،وكانت من قبيل تحميس المسلمين وتلاجيعه لثوابت الدين بذكر مثل هذه الأسماء التي تبعث في النفوس مشاعر العزة بهذاالدين والذود عن حياضه ،ومن ذلك قول ابن القيسراني وقد ذكر المنبر ،والمصحف في معرض الحديث عن شدة المعارك وىثارها على رموز الدين من المنابر والمصاحف :

ولامِنبرٌ إلا ترنح عودهُ

ولامصحفٌ إلا أَنَار مِدادهُ(١)

ولابن منير حيث يورد الكعبة، والقبة حيث يقول:

بَنَيْتَ لِوفدِ المُنى كعبةً

تجـــــيرُ المعَلقَ أسْتَارُهَا

ويقول ذاكراً لفظ القبة :

وَطَالتْ قُبةُ الإسلامِ حتىَ اسْ

تَوَتْ بَيْنَ الفَوارِسِ والنَعَامِ

ولابن منير أيضاً حيث يذكر (هلل – كبر–جنة –كوثر)فيقول :

فَأَصْبَح الشَادي إذَا ثوبُ الدا

عي لهُ هللَ أوْ كبراَ(٢)

وللعماد حيث ورد في بيت له اسماء الله الحسنى(الرحمن–المهيمن)كما جاء ذكر سور القرآن والوحي ،يقول مادحاًنور الدين :

لم تلقهم ثقة بقوة شوكةٍ

لكن وثِقْتَ بنُصرة الرحمنِ

مازال عزمك مستقلاًبالذي

لايستـــــقل بثِقْلِهِ الثقلانِ

أذعنت لله المهيمن إذ عنت

لك أوجه الأملاك بالإذعانِ

سيَرٌ لوأن الوحي ينزل أنزلت

في شأنها سورٌ من القرآنِ(١)

---

١ كتاب الروضتين/أبو شامة /ج ٩٨/١

٢ ديوان ابن منير ص ٢٢٨

ولأسامة بن منقذ ([2])حيث يذكر (القدس –المطهر– يتلى بإذن الله–الصخرة –الذكر)حيث يقول:

ونَرْتَجِع القُدس المُطَهر منْهُمُ

ويُتْلَىَ بِإذْنِ الله في الصَخْرة الذكر ُ([3])

(وليس يخفى ما لهذه الألفاظ عند استعمالها في أجواءالمعارك من آثار على المسلمين إذ تولد عندهم الغيرة على حرماتهم ،ومقدساتهم ،وتبث فيهم روح الحماسة والدفاع عنها والمحافظة عليها)([4])

ثمة أمرٍ آخر تجب الإشارة إليه في معرض مناقشة الأثر الديني في شعر الحماسة ،هو استخدام الشعراء ألفاظاًمن النصرانية،وهي ألفاظ جاءت مستمة من الصراع في العقيدة بين المسلمين وعدوهم المحتل،وهي تدل على رتب دينية نصرانية،أو شعائر ورموز نصرانية ([5])

ومن ذلك ما قال العماد في قدسية له :

وعادت ببيت الله أحكام دينه

فلا(بطركا)أبقيت فيها (ولاقساً)

وقد شاع في الآفاق عنك بشارةً

بأن أذان القدس قد بَطَلَ النقساَ

وقوله في قدسية أخرى:

نفي من القدس (صلباناً)كما نُفِيَتْ

مِن بيتِ مَكةَ أَزْلامٌ وأنصابُ

---

١ ديوان العماد ٤١٧–٤١٨

٢ اسامة بن منقذ :ابو المظفر اسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن مقذ ،من أكابر بني منقذ ،له تصانيف عديدة في الاب ،والشعر منها :لبلب الآداب ،والبديع،والمنازل والديار ،والنوم والأحلام ،قدم دمشق سنة ٥٣٢هـ ،وذهب على مصر ،وأقام مع الملك الصالح طلائع بن رزيك ،ثم قدم دمشق والشام وسكن بها ،واتصل بنور الدين ،وبقي عنده ،وكان يراسل طلائع فيما ينفع الغسلام والمسلمين ،توفي سنة ٥٤٢هـ)(من كتاب نور الدين في الأدب العربي د.محمود فايز السرطاوي ص ٢٠٨)

٣ ديوان أسامة ص ٢٠٤

٤ نور الدين في الأدب العربي /د.محمود فايز السرطاوي /ص ٢٧٢بتصرف

٥ بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية/د.عبد الجليل عبد المهدي/ص ٢٦٥

وكان للصراع في العقيدة بين المسلمين والنصارى اثر باروز في استخدام الألفاظ والتعبيرات المستمدة من الديانتين الإسلامية والنصرانية ،االتعبير عن هذاالصراع منها(التثليث-الإيمان-الشرك- الصليب- وهذا ما بدى في بيت العماد السابق ،وما يبدو في بيته في إحدى قدسياته بعثت إمام أمةِ النارِنحوَها

فزارَ أمَامَ أرناطِها ذلك الحبساَ([1])

وقوله من قصيدة أخرى :

أحْيا الهُدى وأماتَ الشركَ صَارمُهُ

لَقَدْ تَجَلى الهُدى وَالشركُ منجاب ُ

بفَتحهِ القدسِ للإسلامِ قد فُتحتْ

في قمعِ طاغيةِ الإشراكِ أبــوابُ([2])

(ونكاد نؤكد أنه لم تخل قصيدة جهادية من معنى أو معاني دينية،فقد كانت الحرب بين الطرفين تقوم على الحماس الديني ،ولم تقم الحرب الصليبية إلا على أساس ديني،ولم تقم للأمة الإسلامية قائمة إلا بعد أن ظهر ملوك وسلاطين تمسكوا بالدين ،وشريعته،وصفاته وأخلاقه كعماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود ،وصلاح الدين الأيوبي ،وبعض من تولى بعدهم)([3])

---

١ ديوان العماد الأصفهاني /٢٣٦

٢ نفس المصدر ٧٥

٣ شعر الجهاد الشام في مواجهة الصليبيين /د.فؤاد حسين أبو الهيجاء /ص ٢٨٤

الفصل الثالث
تأثيرات شعر الحماسة على نتائج المعارك
خلال الفترة الزنكية

المبحث الأول :

على أداء الجيوش ضد الاعداء .

المبحث الثاني :

على مستوى القادة.

المبحث الثالث:

على أحداث ونتائج المعارك.

المبحث الأول

تأثيرات شعر الحماسة على أداء الجيوش ضد الأعداء

لم يكن المشروع الإصلاحي- الذي رفع لواءه عماد الدين زنكي ،ومن بعده ابنه نور الدين ،ثم أكمل أركانه صلاح الدين لتحقيق الحلم الكبير بتحرير بيت المقدس – لم يكن مشروعاًمحدوداًبل كان مشروعاًشاملاً شمل الأرض والإنسان فكان الاهتمام بالجيوش الحامية كالاهتمام بالمدارس النظامية ،ولذلك كان الشعراء يبدعون في وصف تفاصيل الحياة بالقدر الذي نبع من إحساسهم بضرورة مسايرة هذه النهضة،ومساندة هذا المشروع ليتحقق حتى النهاية ،فتراهم يصفونالجيوش والجنود والخيول ،والسيوف وأصواتها وبريقها في المعركة وشكلها وهي تقطر بالدم حاملة رؤوس الأعداء ،وكأنهم يقولون :نحن مع المشروع بكل تفاصيله ،وكأني بهذا الجندي الرابض في ثكنته يحمي وطنه ضدمحتل غاشم – كأني به- حين يسمع الكلمة الصادقة تخترق عليه ثكنته وتلامس شغاف قلبه مدحاً وشكراً ،وتثبيتاً ،فإذا به الأسد الجسور،والقلب الغيورعلى العرض والأرض ،ومن هنا يكون للشعر الأثر الكبير في تعزيز النصر بل في صناعته،وسنورد بعض الأمثلة الدالة على مشاركة شعر الحماسة لجيوش القادة الصالحين في المعركة،<u>ونبدأ بوصف الشعراء للجنود :</u>

- يقول ابن القيسراني يصف الجنود في قتالهم وبسالتهم :

وتدرك ثأرها من كل باغٍ

فوارس من عزائمهاالجلادُ

وجندٌكالصقور على صقورٍ

إذا انقضوا على الأبطال صادُو

إذا أخفوا مكيدتهم أخافوا

وإن أبْدوا عداوتَهم أبادوُا(١)

وليس يخفى على القاريء المواصفات التي خلعها الشاعر على الجنود فهم الشجعان عند المواجهة ،وهم الذين يكسبون على كل الأوضاع ،فإذا كانوا يخططون في الخفاء فإن عدوهم يخافهم ،وإذا أبدوا خطتهم باالمواجهة فإن عدوهم إلى زوال وإبادة.

ولابن القيسراني وصف جميل لكثرة جنود جيش نور الدين ،ففي صورة بديعة يصورهم كأنهم سدوا السماء يجرون وراءهم الغبار

---

١ الروضتين /أبو شامة ص ١٤٦

،ويزين جيشهم الرجال الرماة المهرة فيقول :

في عسكريٍخفي كواكب ليلهِ

نقعاًفيطلعها القنا الخطارُ

جرار أذيال العجاج وراءه

وأمامه بل حجفل جرارُ

جند على جردٍأمام صدورها

صدر عليه من اليقين صدارُ

قد بايع الإخلاصَ بيعة نصرةٍ

ولكل هادي أمة أنصـــــــارُ ([1])

وهذا ابن منير الطرابلسي يصف جنود جيش نور الدين تتهادى تحت أقدامهم جيوش الأعداء فتتقطع أوصال هذه الجيوش يقول:

كتائب ترمي جنود الصلي

ب منها بتقطيع أصلابها([2])

<u>أما وصف الشعراء للجيش</u> فهو ما يثير الحمية ويدفع القاريء نحو الإعجاب بهذا الجيش :

- يقول العماد الأصفهاني وهو يصف بعض تشكيلات عناصر الجيش النوري ،وذكرهم باسمائهم ووظائفهم ومنهم جرديك،وعينالدولة ،والأتراك ،والأكراد،والمماليك،واليارقية :

حملت عليهم من جنودك فتيةٌ

لم تدر غير حمية الفتيانِ

وبسيف جرديك المجرد غُودرُوا

بدماءِ اهل الغدر في غدرانِ

وبعين دولتك الذي قدمـــــــته

فقْئَت عيون الكفر والكفــرانِ

واليارقـــــيةُأرقتهم في الدجى

بســــــــــهام كل حنية مرنانِ

---

١ الروضتين أبو شامة /ج١ ص١٧٤-١٧٥

٢ المصدرنفسه ص١٨١

وكأنما الأكراد فوق جـــــيادها

عقبـــــــان ملحمةٍ على عقبانِ

ولطالما مُهرت على نصر الهدى

أنصارك الأبطال من مهرانِ

لم يتركِ الأتراكُ فيـــــهم غايةً

بالفـــتكِ والإرهاق والإثخانِ

من كل رامٍ سهمُهُ من وهـــمهِ

أهدى إلى إنسان عين الرانيِ

ملك الممالـــــيك الذين عنتْ

أملاك مصر المـــــالكي بغدانِ([1])

وفي وصف الشعراء للخيل عجب وأي عجب إذ تظهر الخيل في المعركة على ألسنة الشعراء مرة عليها لون الدم ،وأخرى تصنع الرعب في قلوب العدو ،وثالثة تلاحق العدو أينمـــا ذهـــب وتضيق عليه الخناق ،يقول ابن منير واصفاً إياها بأنها صبورة على الحرب،وهي خير عتـــاد المرء في المعركة :

هي الخيل عتاد الكري

م يحضر للهم إحضارها

ضغمت فأدررت أفواهها

وسرت فقلمت أظفارها([2])

<u>ويقول العماد في وصف خيل نور الدين :</u>

أوردت مصر خيول النصر عادمةً

ثني الأعنةِ إقداماًعلى اللجمِ

فاقبلت في سحابٍ من ذوابلها

وقضبها بدماء الهم منســـجمُ

تمكن الرعب من قلب الهدو بها

تمكن النار بالإحراق بالفحـــمِ

---

١ ديوان العماد/ص ٤١٣-٤١٦.

٢ ديوان ابن منير ص٢٢٧

مستسهلاتٍ وعور الطرق في طلب ال

علياءِ مقتحماتٍ اصعب القحمِ([1])

وهذاابن القيسراني يضع وصفاًللخيل وقد اصطبغت بدماء القتلى ،حتى لم يعد الناظر إليها يتبين ألوانهاالحقيقية فيقول :

فاما وقفت الخيل ناقعة الصدى([2])

على بردى من فوقها الروض والنضرُ

فمن بعد ما أورتها حومة الوغى

وأصدرتهـــــا والبيض من علَق حمرُ

وجَلَلْتهاَ نقـــــعاً أضاع شياتها([3])

فلا شهبها شهب ولا شقرها شقرُ([4])

وما أجمل ماقاله أسامة بن منقذ وهو يصف الخيل بانها تلاحق العدو اينما ذهب فيقول :

ونحن كسرنا البغدوين([5]) ومالمنْ

كسرناهُ إجلالٌ يرجى ولا جبرُ

وقد ضاقت الدنيا عليه برحبـــهاَ

فلم ينـــجه برٌ ولم يحمه بحرُ

وقد كان لون الخيل شتى فأصبحتْ

تعادُإليناوهي من دمـــهم شقرُ

وما تنثني عنه أعـــــنة خيلنا

ولو طار في أفق السماءِ به النسْر)ُ([6])

---

١ ديوان العماد ص٣٨١

٢ ناقعة الصدى :صداها مرتفع (لسان العرب مادة نقع)

٣ شياتها:خلقها وصفاتها (المصدرنفسه مادة شيأ)

٤ الروضتين /أبو شامة ج١ ص ١٨٦

٥ البغدوين :بلدوين الثالث ،ملك بيت المقدس (كتاب نور الدين في الأدب العربي ص١٥١)

٦ ديون اسامة بن منقذص ٢٠٣

ولم يغفل الشعراء فعل الأسلحة فتكلموا في كل شيء منها (السيف–المنجنيق–الرمح–الدرع–الحديد– الدبوس،،،،إلخ ،مما يدل دلالة واضحة أنهم كانوا يعيشون القضية كاملة غير منقوصة يقول ابن منير يصف أسلحة الجيش وأثرها :

مابرقت بيضك في غمامها

إلا وغيث الدين لابتسامهاَ

مظفر الرايات والرأي إذا ال

حربُ مشت تعثر ُ في خطامهاَ(١)

وقال ابن القيسراني واصفاًالسيوف وآثارها في أنها تحطم جيوش العدو :

أَغْرتْ سيوفك بالإفرنج راجفةً

فؤاد رومية الكـــــــبرى لها يجبُ(٢)

ضربت كبشهمُ منها بقاصمةٍ

أودى بها الصلبُ وانحطت بها الصلبُ

والسيف هام على هام بمعركةٍ

لاالبيض ذمة فيـــــــــها ولا اليلبُ(٣)(٤)

ويذكر ابن القيسراني الدروع كسلاح فعال في المعركة فيقول :

حصن بلادك هيبة لارهبةً

والدرع من عدد الشجاعِ الحازمِ(٥)

وأخيراً يتحدث العماد عن الأسلحة في تجميع شامل لها ولآثارها في المعركة بعد طلب نور الدين منه ذلك فيقول(٦) :

وجعلت في أعناقهم أغلالهم

وسحبتهم هوناًعلى الأَذقــانِ

---

١ كتاب الروضتين /ابو شامة ج١ ص ٢٠٣–٢٠٤

٢ يجب:يخفق لسان العرب مادة وجب)

٣ اليلب:الدروع أو جلود تلبس مثل الدروع (لسان العرب مادة يلب)

٤ الروضتين ج١ ص ١٥٤

٥ المصدر نفسه ج١ ص ٤٩

٦ ديوان العماد ص٤٠٠

إذ في السوابغ تحطم السمر القنا

والبيض تخضب بالنقيع القانيِ

وعلى غناء المشرفية في الطلى

والهام رقص عوامل المــرانِ([1])

وكأن بين النقع لمع حديدهــا

نار تئالق من خلال دخـــــانش

غطى العجاج به نجوم سمائه

لتنوب عنها أنجم الـــــــخِرصانِ([2])

إلى هذا الحد يصل تجاوب الشعراء ،فقد قال العماد هذه الابيات ليصف الجيش بناءًعلى طلب من نور الدين ،ليقطع الطريق على الذين الصقوا تهمة الاضمحلال والندرة عن شعراء وقادة هذا الزمان،إذ كيف لايحب نور الدين الشعر ،وكيف يكون الشعراء مقلين بعد كل هذا؟؟؟؟؟

---

١ عوامل المران:عوامل عامل الرمح وعاملته أي صدره دون السنان ويجمع عوامل، وقيل عامل الرمح ما يلي السنان (لسان العرب:مادة مرن)

٢ ديوان العماد /ص ٤١٢

المبحث الثاني

تأثيرات شعر الحماسة على القادة

القادة الصالحون هم الذين تتطلع إليهم عيون رعيتهم ،وتتعلق بهم قلوب شعوبهم ،خاصة عند تداعي الأعداء واشتداد الخطوب ،وقد حبا الله هذا الزمان بقادة عظام ،جعلوا من الانتماء للوطن والدفاع عنه واجباً دينياً ،فغدا هم القائد واهتماماته منسجماً مع آمال وآلام رعيته فكان ما كان من التكاتف ورفع الظلم وحب القادة ،ليس حب المصلحة والانتفاع ،ولكن حب القدوة والمثل الأعلى ،- ولئن كان الناس يتفاوتوت في إخلاصهم في حبهم- ،فإن الغالب على حب الشعراء في أي زمان أنهم ينتفعون بشعرهم ،ويتكسبون به، لكني شعرت من خلال قراءتي للتاريخ الأدبي في عصور العباسيين والأمويين ،أن قادة العصر الزنكي جاؤوا في فترة عصيبة ،وكأن الله تعالى جعلهم لقدرٍ ينفذه ،فماكان لهم لاستمالة الشعراء حاجة ،وما كان للشعراء حاجة أن يتكسبوا بشعر يصف معركة مصيرية تحكي الواقع أكثر من أن تحشد الجمل الجميلة أو الصور الرقيقة ،فلقد خرج شعر هؤلاء الشعراء من رحم المعاناة ،ومن حرارة التجربة ،لذلك كان حديثهم للقادة حديث الناصح الأمين بلاتكلف أو مواربة،وسأذكر عددا من المواطن التي تحدث الشعراء فيها للقادة حديثاًمباشراًونرى كيف كان أثر الشعر على شعور القائد ،وميوله وتفكيره .

- منذ بدأ عماد الدين زنكي في توطيد زعامته بعد توليه إمارة الموصل ،اتصل به ابن القيسراني فرأى فيه امله ومبتغاه ،فقال في باكورة الشعر المصاحب للدولة الزنكية ونلاحظ ان القصيدة قيلت في مطلع علاقة الشاعر بعماد الدين ورغم ذلك فهو يقول له :

وأين ينجو ملوك الشرك من ملك

من خيله النصر لابل من جنده القدرُ

فلاتخف بعدها الإفرنج قاطبةً

فالقوم إن نفروا ألوى بهم نفرُ

عن قاتلواقتلوا أو حاربوا حربوا

او طاردوا طردوا او حاصروا حصروا([1])

---

١ الروضتين/ابو شامة ج١ص ١٨-٢٠

ثم يمضي وحلمه أمام عينيه – رغم أن الأمنية التي يتمناها أو يتخيلها لم يتحقق منها شـــيء على الواقع – لكنه يرسل للقائد رسالة فيها الأمل والأمنية له وللأمة كلها ،فيذكر القائد بـــأن ماتم فتحه هو مرحلة لكن مازالت الثغور تبكي الفراق تحت وطأة المحتل :

حتى تعود ثغور الشام ضاحكة

كأنما حل في أكنافها عمر ([1])

وكأني بعماد الدين وهو يسمع هذا الشعر أن يدخله ضمن بواعثه في التخطيط ،ويجعله ضمن منطلقاته عند التنفيذ ،فكيف بربي يكون أثر تلك الكلمات على نفسية قائد طموح كعماد الدين؟؟

– ومع شاعرآخر اتصل بعماد الدين وهو ابن منير الطرابلسي فيرى فيه نفس مـــا رأى ابـــن القيسراني لكن ابن منير يخلع عليه لقب امير المؤمنين من شدة الحب وفرط الإعجاب ،وشدة الشوق لقائد يُري المسلمين يوم العز بعد الذل الذي رُؤي على يد الصـــليبيين فيقـــول وكـــأن الشعر يصدر عن قوس واحد ،ويخرج من محلةٍ واحدةٍ هي محلةُ الأمل في القائد الجديد :

ملك أَسهر عينا لم تزل

همهاتشريد هم الـــراقدين

كل يوم مر من أيامه

فهو عيد عائد للمســـــلمينَ

لو جرى الإنصاف في أوصافه

كان أولاها أمير المـــــؤمنين

ما روى الراوون بل ما سطروا

مثل ما خطت له أيدي السنين

فابن القيسراني تذكر بعماد الدين الفاروق عمر ،وابن منيـــر يـــراه أجـــدر النـــاس بزعامـــة المسلمين ([2])،فكيف يكون الأثر العام على نفس القائد بعد هذه النصـــوص المعـــززة لحركـــة النهضة الجديدة على يد زعيم مثل عماد الدين .

– وعندما اعتلى نور الدين الحكم بعد مقتل أبيه كان أكثر الملوك حظاً من شعرالشعراء لكنـــه الحظ الأكثر فاعلية والأكثر شمولية ،فلم يقف الشعراء من القواد موقفاًتقليدياً بل دخل شعرهم مواطن سياسة الحاكم فقال ابن القيسراني لنور الدين في موضعين أحدهما يبشره بفتح دمشق ويخبره بالآثار السياسية لهذا الفتح والآخريطلب منه الذهاب لبيت المقدس :

---

١ الروضتين/ابو شامة ج١ص ١٨–٢٥

٢ الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام /دأحمد بدوي ص١٣٨

إذا ما دمشق ملكتك عنانها

تيقن من ب(إيليا)([1]) انه الذبحُ

ثم يقول :

فانهض إلى المسجد الأقصى بذي لجبٍ

يوليك اقصىالمنى فالقدس مرتقبُ

وائذن لموجك في تطهير ساحـــــــلهِ

فإنما أنت بحر لـــــــــــجه لجبُ ([2])

والحقيقة أن هذه الروح التي تحلى بها شعر الحماسة في هذا الزمان كانت من السمو بمكـــان بحيث أنها خلت من أي من أبعاد المصلحة والتزلف ،والرغبة في التكســـب ،يقـــول الـــدكتور محمود إبراهيم في كتابه صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني (ومما يلفت النظر في تمجيد ابن القيسراني لنور الدين ،أن الشعر الذي نظم في هذا التمجيد ،قد خلا من الاستماحة التي لم تخل منها قصائد أخرى قيلت في أشخاص آخرين في مناسبات قديمة ،ولعل هذا ممـــا يعضد الاعتقاد بأن شعر ابن القيسراني في نور الدين يمثل الإعجاب الصادق بشخصية البطل الإسلامي ،وأن هذا الشعر لايترجم عن مشاعر ابن القيسراني وحده ،بل عن مشاعر الجماعة المسلمة كذلك)([3])

والدلالة على احتفاء نور الدين بالشعر والأدب أظهر من أن يدلل عليها،لكن اذكر نقـــاط تـــدل على اهتمام هذاالقائد –رغم مشاغله العسكرية والجهادية – بالشعر والشعراء :

- طلب من العماد أن يصف له الجيش وأسلحته ،فقال العماد بناءً على طلب نور الدين :

وجعلت في أعناقهم أغلالهم

وسحبتهم هوناًعلى الأَذقـــانِ

إذ في السوابغ تحطم السمر القنا

والبيض تخضب بالنقيع القانيِ ([4])

---

١ إلياء بيت المقدس (نقلاًمن كتاب الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية د.أحمد بدوي ص ١٤٤

٢ الروضتين /أبو شامة ج١ ص ٥٩.

٣ صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني /د.محمود إبراهيم ص١٥٩-١٦٠

[4] ديوان العماد ص ٤١٢

- نظم العماد على لسان نور الدين بما عرف (بالدوبيت) ،فقال :

للغزو نشاطي وإليه طربي

مالي في العيش غيره من أربِ

بالجد والجهاد نُجْحُ الطَلَبِ

والراحة مستودعة في التعبِ([1])

وقال أيضاً:

أذللتُ ذوي الشرك بعز العزم

والكفر يهز صارمي في عزمِ

شيدت بيت الملك بأمري الجزم

والنصر رأيته قرين الحزمِ([2])

وقد كان اختيار نور الدين للدوبيت – وفق تعليل الدكتور أحمد بدوي– :

(إن وزن الدوبيت كان مما يسيغه ذوق نور الدين ،واستعماله كان لتجديد النشاط ،ودفع النفوس لخوض غمرات الجهاد ،وذلك بسبب الأثر الكبير للأنشودة في دفع النفوس وتحبيبها في العمل)([3]).

لعل مما سبق يتبين لنا أن الشعراء تلمسوا في حديثهم للقادة ملامح المشروع الإسلامي الكبير ،وتدريجياًكانت تنمو في نفوسهم هذه الملامح ،ثم تخرج متدرجة نحو صناعة الحدث من خلال التلويح بالأمنية ودفعها لوجدان القائد فإذا هي في خطته ومنهج تفكيره ،وهكذا حقق شعر الحماسة هدفه المطلوب من توجيه القادة نحو تحقيق الآمال ،بالتلويح بدعائم المشروع وهي النصر والتحرير على أسس الوحدة والارتباط ،وهذه كانت جل رسائل الملك طلائع لأسامة بن منقذ ليوصلها لنور الدين ،الذي بنى مشروعه على أساس التحرير والوحدة فتحقق له ما كان .

[1] الروضتين ج١ ص٥٢٨

[2] الخريدة /العماد الأصفهاني /بداية شعر الشام /ص٤٣

[3] الحياة الأدبية في مصر والشام عصر الحروب الصليبية /د.أحمد بدوي /ص ٥٣٥-٥٣٦ بتصرف .

المبحث الثالث

تأثيرات شعر الحماسة على أحداث ونتائج المعارك

لقد كانت ميزة هذا الشعرأنه نشأفي بيئة جهادية،تتقابل فيها جيوش ،وتعزف من خلال هذه المواجهات ملاحم البطولة والفداء بين فريقين فريق محتل غاصب ،وآخر يدافع عن الدين والعرض من منطلق الإسلام ،ولذلك اتسمت أشعار هذه الفترة من بين السمات الأخرى بسمة (وصف المعارك)وهي سمة تتعدى مجرد الوصف التقليدي إلى وصف كان له مابعده من أمنيات المشروع الإصلاحي على يد قادة هذا الزمان ،فإذا تحقق نصر في معركة ما،فلايخل وصفها عن ارتباطها بسابقتها ،وإثبات الصلة بينها وبين المعركة التي تلتها،وهورابط تاريخي تجد فيه التسلسل الزمني لأحداث هذه المعارك وموقف الشعر منها بدءًا بعماد الدين زنكي عام ٥٢١هـ عام توليته الموصل حتى مقتله عام ٥٤١هـ، وبدء نواة الدولة الزنكية ثم نورالدين الذي بدأت خلافته عام ٥٤١هـ حتى وفاته عام ٥٦٩هـ([1])،حتى يكاد القاريء لهذا الشعر يرصد تكامله وتأثيره على مراحل ثلاثة متلازمة : إصلاح وتوحيد وتحرير([2]).

وبالسير – ولو قليلاً– في مجرى بحر الشعر الذي وصف المعارك سنجد استقصاءً تاريخياً لمعارك لا لمجرد الوصف فقط بل صناعة الانتصار– إن جاز التعبير – فهذا ابن القيسراني يصحب عماد الدين في فتح حصن بارين عام ٥٣١هـ، فيقول :

فلاتخف بعدها الإفرنج قاطبةً

فالقومُ إن نَفَروا ألوى بهم نفرُ

إن قاتلوا قتلوا او حاربوا حربوا

أو طاردوا طردوا أو حاصروا حصروا

لافارقت ظل محيي العدل لامعةٌ

كالصبح تطوي من الأعداء ما نشروا ([3])

ثم يقول ملوحاًبما يتمناه للمعارك التالية فيستشرف ثغور الشام وهي تضحك،كأن عمر بن الخطاب ساكناًبها مقيماًفي أكنافها فيقول :

---

١ عصر الدولة الزنكية /د.محمد الصلابي ص ٥٩٣

٢ شعر الصراع مع الفرنجة /د.فيصل صلاح الدين أصلان /ص٥.

٣ الروضتين /أبو شامة ج١ ص٨٨-٨٩

حتى تعود ثغور الشام ضاحكةً

كأنما حل في أكنافها عمرُ

وهنا يبرز سؤال ،يتأكد منه أثر الشعر على سير المعارك ،ما هو شعور الجندي الذي خاض معركة فتح حصن بارين ثم المعرة وكفر طارب،وهي فتوح تمت في عام ٥٣١هـ([1])،ثم يشارك الجندي نفسه في فتح الرها عام ٥٣٩هـ؟؟؟؟؟

حيث يقول ابن القيسراني في فتح الرها :

وجامحة عَز المُلـــــــوكَ قِيادُهَا

إلى أنْ ثنَاهـــــا مَن يـَعِزُ قِيَادُهُ

فأضْرمَهَا نـــَارَين :حرباًوخدعةً

فَمَا رَاعَ إلا سُـــــورُهَا وانْهِدادهُ

فيا ظفراً عمَ البـــــِلادَ صَلاحُهُ

بِمَنْ كَانَ قَدْ عَم البِـــــــلادَ فَسادُهُ

ثم يختم بتهديد واضح للفرنج يقول فيه :

إلى أَيْن يَاأسْرى الضَلالَةِ بَعْدَهَا

لَقدْ ذَلَ غَاويكُم وَعَز رَشَـــــــادُهُ ([2])

وللدلالة على أن الشاعر جاء شعوره بالنصر فارقاً بين حالتين،وهو يذكر صعوبةالفتح على القادة السابقين،ويهدد بالمذلة وفقدان الرشاد والصواب للأعداء وهم أسرى ،وهذا في عام ٥٣٩هـ ،بينما كانوا بالأمس القريب ،- وبمدة لاتزيد عن سبعة وأربعين عاماً،(وبالتحديد عام ٤٩٢هـ يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان ،الموافق الخامس عشر من تموزعام ١٠٩٩م ،اليوم الذي سقطت فيه القدس كلها في يدالصليبيين ،بعد حصار دام تسعة وثلاثين يوماً)([3]) - يفعلون بحرائر المسلمين ما دفعهن أن يدارين محاسنهن بأيديهن من شدة الحياء والاضطراب والخوف فيقول الأبيوردي يصف الإخفاق الواضح في موقف القادة من الغازي المحتل:

---

١ الروضتين /أبو شامة /ج١ ص ٨٨-٨٩

٢ المرجع نفسه /١/ص٩٧-٩٨

٣ حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي /اللواء الركن د.سمير سويد ص ٧٠.

وكم من دماءٍقد أبيحَتْ ومن دُمىً

تواري حياءً حسنَها بالمعاصمِ([1])

والأبيوردي يهدد أيضاً لكن شتان بين التهديدين ،فتهديد ابن القيسراني كان تهديداً من موطن الانتصارعلى عدو ذليل ،بينما كان تهديد الأبيوردي يشعر بالألم والضعف والحسرة على أمةٍ مقهورة ([2])إذ يقول:

فَإِنْ أَنْتُمُ لَمْ تَغْضَبُوا بَعْدَ هَذِهِ

رَمَيْنَا إِلىَ أَعْدَائِنَا بِالْحَرَائِمِ([3])

إن الشعور الطبيعي لجندي شارك في الحربين ،أو مجتمع عاش الفترتين ،هو شعور التغيير الإيجابي ،فالمعارك في بدايتها كانت على لسان الابيوردي ،يوم كان المسلمون مهددين أن يلقوا لعدوهم الحرائم ،وهم النساء وهو دلالة على قمة الهزيمة ،مع استثارة النخوة ،لكنها مرحلة الزمنية لم يكن المشروع الإصلاحي قد تم ونضجت مراحله فلايزال بالمجتمع ضعف ،وبالحكام خنوع ،لكن بتطور لغة التحريض والاستثارة ،او إمامة الشعر التغييري وتشكيله للوجدان انطلق المشروع الإصلاحي ليبرز ابن القيسراني فيهدد الغزاة ويوبخهم ،بل وينطلق به الخيال فيتذكر زمن الانتصارات القدسية ويهش بذاكرته لفتح عمر لبيت المقدس في عصر الفتوحات الإسلامية الأول ،والدليل على ما نقول هو مسيرة الشعر زمن نور الدين وموقفه من معارك وفتوحات هذا القائد المظفر،من بداية حكمه عام ٥٤١هـ حتى وفاته عام ٥٦٩هـ ،خلال هذا الربع المشرق من القرن السادس الهجري برز الشعرفوقف في ميدان معارك نور الدين في عشرين موضعاً ([4])برزت في هذه المواضع قوة مشاركة الشعر في مسايرة الحدث ،وصناعته ،وتعزيزه ،ووقوفه في الميدان جنباًإلى جنب مع استبسال الجنود ،وشجاعة وقدوة القادة، مما كان السبب المباشر لتهيئة البلاد والعباد لتحقيق واستقبال النصر الأعظم وهو فتح بيت المقدس (في الجمعة الرابعة من شهر رجب عام ٥٨٣هـ)([5]).

---

١ ديوان الابيوردي /تحقيق د.عمر الأسعدج٢ص١٥٦-١٥٧

٢ شعر الصراع مع الفرنجة /د.فيصل صلاح الدين أصلان /ص٤٢بتصرف

٣ ٣ ديوان الابيوردي /تحقيق د.عمر الأسعدج٢ص١٥٦-١٥٧

٤ نور الدين في الأدب العربي /د.محمود فايز السرطاوي ص ١٣٣-١٤٧بتصرف

٥ الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي /د.راغب السرجاني ص ٤٦٠

وإلى بعض مواضع الشعر الحماسي في وصف المعارك إبان حكم نور الدين:

١- في عام ٥٤١هـ طمع ابن جوسلين باستعادة الرها،فدخلها وقتل من بها من المسلمين ،فنهض إليه نور الدين من حلب في حوالي عشرة آلاف فارس ،ودخل المدينة ،وقتل كثيراًمن الفرنج ،وفر ابن جوسلين هارباًتحت جنح الظلام ،فانطلق ابن منير الطرابلسي يعزز هذه الهمة في الحفاظ على مكتسبات الزمن في إشارة لفتح عماد الدين للرها،ويبين أثر فتح الرها على عروبة البلاد وثبات هيبتها قائلاً:

ملك ما أذل بالفتح أرضاً

قطُ إلا أعزها إغلاقهْ

والوها(١) في الرهاء أزجى إليها

عارضاًشَيب الدجَى إبْراقهْ

تلك بِكر الفتوح فالشـــام منها

شامهُ والعراق بعدُعراقهْ

سنةٌ سنَها أبوه بكَلب الر

وم لما أظله إرهـــــــاقهْ(٢)

٢- في سنةاثنتين وأربعين وخمسمائة توجه نور الدين نحو صرخدوبصرى(٣) ،ورغم أنه لم يكن في هذه المعركة قتال ،إذأخذها من الفرنج بالأمان إلا أن ابن منير يقول :

َردتْهُم على بُصْرى وصَرْخَد خَيلُهُ

وقد أبصرَتْ بُصْرى ردَاهَا وَصرْخَد ُ(٤)

٣- في سنة ٥٤٣هـ هزم نور الدين الفرنج بمكان اسمه يغرا(٥) فقال ابن القيسراني :

ما يوم إنب والأيام دائلةٌ

من يوم يغرا بعيد لا ولا كثبُ(٦)

---

١ الوها بمعنى :الضعف والخرق /لسان العرب مادة وهي.
٢ كتاب الروضتين /أبو شامة /ج١ ص١٢٧).
٢٤٥بصرى بالضم من أعمال دمشق (معجم البلدان ج١ ص٤٤١
٤ كتاب الروضتين /أبو شامة /ج١ ص١٩٩
٥ يغرا : مكان بين أنطاكية والثغور تجتمع إليها مياه العاصي (نور الدين في الأدب العربي ص ١٣٥)
٦ كتاب الروضتين /أبو شامة /ج١ ص١٥٣

ثم يقول في السنة نفسها في فتح (فامية)([1]):

الا للـــــــه درك أي درٍ

صريح جاء بالكرم الصريحِ

وعسكرك الذي استولى مديحاً

على ما بين فاميةٍ وسيحِ([2])

٤- في سنة ٥٤٤هـ سار نور الدين إلى حصن حارم([3])،وتصاف الفريقان ،فظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر والقوة والتحمل ماتعجب الناس منه،وانجلت المعركة وقتل خلق كثير منهم أمير أنطاكية،فوقف الشعريصور على لسان ابن القيسراني فيصف المعركة بأنها ملحمة فيقول([4]):

أَنْباءُ ملْحَمةٌ لو أنها ذُكِرَتْ

فِيمَامضَى نَسِيتْ أيامَهَا العربُ

ووصف قتل نور الدين لأمير نطاكية بقوله :

إذا القَنَاة ابْتَغَت في رَأْسِه نَفَقاً

بَدَا لثَعْلَبِها([5])مِن نَحْرِهِ([6]) سَرَبُ ([7])

٥- وهذا موضع آخر لكنه مغاير لما تعود عليه المجتمع من انتصارات متتالية ،ففي عام ٥٤٦هـ انهزم نور الدين أمام جوسلين ،الذي جمع قواته وهزم نور الدين ،وأسرعدد من رجاله ،وكان من بين من أسرسلاح دار([8]) نور الدين،لكن نور الدين لم يسكت على ذلك بل تحين الفرصة للإيقاع بجوسلين وتمكن من ذلك ،وأسر جوسلين عن طريق جماعة من التركمان تحينوا فرصة خروجه للصيد ،وأصيبت النصرانية بأسره كما قال ابن الأثير ([9]) فقال ابن القيسراني في هذه المعركة المتقلبة النتائج :

---

١ فامية :مدينة كبيرة وكورة من سواحل حمص ((نور الدين في الأدب العربي ص ١٣٦)

٢ كتاب الروضتين /أبو شامة /ج١ ص١٥٥،وسيح :مكان باليمامة ،وسيح الغمر ،وسيح البردان ،معجم البلدان /ياقوت الحموي /ج٥ ص ١٩٢.

٣ حصن حارم :حصن حصين تجاه أنطاكية وهو في أيام ياقوت من أعمال حلب (معجم البلدان١٩٢/٥).

٤ الروضتين /أبو شامة ج١ ص ١٥٤

٥ ثعلب القناة :طرف الرمح الداخل في حبة السنان (لسان العرب :مادة ثعلب)

٦ النحر :الصدر لسان العرب مادة نحر .

٧ السرب:الحفر او الطريق ،المصدر السابق مادة سرب .

٨ سلاح دار :الذي يحمل سلاح السلطان (معجم الألفاظ الفارسية ص٩٢).

٩ الكامل /ابن الأثير /ج١١ص ١٥٥.

كما أهدت الأقدار للقمص أسره

وأسعد قرن من حواه لك الأسرُ

طغى وبغى عدواًعلى غلوائه

فأوبقه الكفران عدواه والكفرُ(١)

٦- وفي هزيمة أخرى يقف الشعر يعتذر لنور الدين عنها وكأن روحاًجديدة سرت في أوصال الأمة فاستجمعت القوة حتى وهي تتجرع آلام الهزيمة ،وتكاد تفقد زعيمها نور الدين لولا أن رجلاًكردياًيقطع شبحة(٢) فرس نور الدين،فينجو القائد بأعجوبة،ليقول الشعر كلمته ويفصل في القول فيوبخ الإفرنج تارة،ويعتذر للمسلمين وقائدهم تارة أخرى فيقول ابو الفرج عبيد الله بن أسعد الموصلي :

ومارجعتم بأسرى خاب سعيكم

غير الأراذل والاتباع والسفهِ

سلبتم الجرد معراة بلا لجمِ

والسمر مركوزة والبيض في الخللِ

هل آخذ الخيل قد أردى فوارسها

مثال آخذها في الشـــكل والطولِ

أم سالب الرمح مركوزاً كسالبهِ

والحرب دائرةٌ من كفِ معـــتقلِ

ثم يقول في جيش نور الدين :

جيش أصابتهم عين الكمال وما

يخلو من العين إلا غير مكــتملِ

وكم تجلت بنور الدين من ظلمٍ

للظلم وانجاب للإضلال مــن ظللِ

قل لِلمُوَلِينَ :كُفُوا الطَرْفَ مِن جُبْنٍ

عند اللِقاء وغُضُواالطَرْفَ مِنْ خَجَلِ

أَسْلمتُموهُ وَوَلَيتم فَاَسْلَـــــــمَكُمْ

بِثَبْتَةٍ لَوْبَغَاهَا الطُـــــــودُ لَمْ يَنلِ(٣).

---

١ الروضتين /أبو شامة /ج١ ص ١٨٥-١٨٦

٢ الشبحة :هي سلسلة تربط بها الفرس من رجلها ويربط الطرف الآخر بوتد يدق في الأرض

٣ ديوان ابن الدهان ٧٠-٧٧

٧- وقدسايرالشعرمستوى الفتوح فصعد معها بمقدارها ،وتأثيرها على الأحداث،ولذلك لما فتحت مصر ارتفع معدل التجاوب فانطلقت قرائحهم تجود بأعذب المعاني،فقال العماد الأصفهاني يهنيء نورالدين بهذا الفتح العظيم يقول:

سرتَ لتَقْطَعَ ما للكفرِ مِن سَبَبٍ

واهٍ وتُوصِلُ ما للدينِ من رحِمِ

كانَتْ ولايةُ مِصر قبلَ عزتِهَا

بِكَشْفِ دَوْلَتِها لَحْماًعَلَى وَضَمِ([1])

ولعلم الدين الشاتاني في نور الدين بمناسبة فتح مصرقصيدة يقول فيها :

هلْ حازَ ملك مصرَ وَصَارَ مِنْ

أَتْبَاعِهِ مَنْ جَدهُ المُسْتَنْصِرُ([2])

٨- وفي جماع لأعمال نور الدين في سياق المعارك الحربية ونتائجها ينظر إليها العماد الأصفهاني نظرة إجمالية وكأنه يلخص بعين الشعر حصيلة النتائج العسكرية لمعارك نور الدين،فيقول في فتوح عام ٥٦٨هـ:

كم وقعةٍ لك بالفرنج حديثها

قد سار في الآفاق والبلدانِ

وملكت رق ملوكهم وتركتهم

بالذل في الأقياد والأسجانِ

لم تلقهم ثقة بقوة شوكةٍ

لكن وثقت بنصرة الرحمنِ([3])

هكذاكان الشعر الحماسي في قلب المعارك ،والصور السابقة أوضحت معدل التأثير الكبير لهذا الشعرفي الأحداث،وأكدت الحقيقة السابقة انه يؤثرعلى مراحل ثلاثة متلازمة : إصلاح وتوحيد وتحرير ([4])بدءاً من قصيدة الأبيوردي ،مروراًبأماني ابن منير والقيسراني ،ثم تهاني العماد وغيره من الشعراء ،حتى يتحقق الحلمالكبير وهو فتح القدس فتكون بوابة للشعراء في العصر الأيوبي ،لالتمدح ملكاًمنتصراً،أو تمجد قائداًفاتحاً ،وإنما لتعلن نجاح مشروع إسلامي

---

١ ديوان العماد/ص ٣٨١-٣٨٢

٢ كتاب الروضتين /ج١ ص ٤٤٥

٣ ديون العمادص ٤١١/٤١٧

[4] شعر الصراع مع الفرنجة /د.فيصل صلاح الدين أصلان /ص٤٢بتصرف

بدأه السلاجقة ،وأسسه عماد الدين ،ووطن دعائمه نور الدين ،وأكمل زينته ومنتهى آماله بالفتح الأكبر القائد الأيوبي صلاح الدين،وأختم بتعليق للدكتور عمر موسى باشا ،إذ يقول مؤكداًعلى دور شعر الحماسة في وصف الملاحم وإذكاء الصراع الديني بين المسلمين والنصارى :

(مهما يكن من أمر ،فيجب أن نسجل لشعراء هذا العصرالفضل كله في وصف الملاحم الخالدة وتاريخ الأحداث الكبرى،وحتى أن بعضهم اتخذ منها موضوعاًخاصاًفي شعره ،قصره عليه)([1])

[1] الأدب في بلاد الشام /دعمر موسى باشا /ص ٤١٦

الفصل الرابع
الخصائص الفنية لشعر الحماسة
في عصر الدولة الزنكية

المبحث الأول :بنية القصيدة

المبحث الثاني :اللغة والأسلوب.

المبحث الثالث : التخييل والصور .

المبحث الرابع :الصنعة البديعية في القصيدة الحماسية.

المبحث الخامس :الأوزان والقوافي .

المبحث السادس:النزعة الاتباعية في شعر الحماسة.

المبحث الأول

بنية القصيدة

ميز النقاد العرب القدماء في حديثهم عن بناء القصيدة العربية بين ثلاثة أجزاء ،وهي : المطلع والتخلص ثم الخاتمة ،وعدوا البراعة في هذه الأجزاء معياراًمن معايير المفاضلة ،إذ اشترطوا على الشاعر أن يجتهد في تحسن الاستهلال ،والتخلص ،وبعدهما الخاتمة،فإنها المواقف التي تستعطف أسماع الحضور ،وتستميلهم إلى الإصغاء([1]).

ويرى النقاد ان تكون الابتداءات رائعة،ويعدونها أصعب ما في القصيدة ،ويرون أن تكون قوية ،موحية،في شعر الجهاد ،متناسبة مع موضوع القصيدة،(٢)،كما يرى النقاد أن يكون مطلع الكلام دالاًعلى المعنى المقصود من ذلك الكلام،إن كان فتحاًفتحاً،وإن كان هناءًفهناءً،وإن كان عزاءً فعزاءً،وفائدته أن يعرف من مبدأ الكلام ما معناه (٣)، وقد ظلت القصيدة العربية محافظة على شكلها ،وصورتها وتعدد أجزائها خلال العصور التي تلت العصر الجاهلي ،حتى العصر العباسي ،الذي بدأت فيه التغيرات تطرأ على نهج القصيدة وبنائها بسبب ظهور شعراء ثاروا على هذا الوضع كأبي نواس وغيره مطالبين بترك البكاء على الاطلال والرحلة الطويلة التي يقوم بها الشاعر قبل أن يصل إلى غرضه الأصلي فقال :

دع الأطلال تسفيها الجنوب

وتبلي عهد جدتها الخطوبُ

وخل لراكب الوجناء أرضاً

تخب بها النجيبة والنجيبُ ([4])

ومع هذا فلم تستطع دعوة هؤلاءالشعراء – وعلى رأسهم أبي نواس – أن يغيروا هذا النهج تغييراًكاملاً،ويعجب الدكتور شوقي ضيف من ذلك ويقول :

((وقد تعجب لاستبقاء هؤلاء الشعراء المتحضرين لعناصر لأطلال ورحلة الصحراء البدوية ،غير أنهم اتخذوها رمزاً،أما الأطلال فلحبهم الدائر،وأما رحلة الصراء فلرحلة الإنسان في

---

١ الشعر العربي في القرن السادس الهجري /د.شفيق محمد الرقب /٣٠٧

٢ بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية ص ٢٤٢

٣ نور الدين في الأدب العربي /محمود فايز السرطاوي /٢٣٥

٤ شعراء الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين /دفؤاد حسين ابو الهيجاء/ص٢٧٢

الحياة وقد استغلوا ما كان يصحب الأطلال من حنين لذكريات حبهم،معاهة لايزال يترقرق في أشعارهم))([1])

،والفترة التي نحن بصدد دراستها كانت أثناء العصر العباسي لكنها كانت متأثرة بالقديم من الشعراء ،وكانت لهاطبيعتها الخاصة من الناحية التاريخية كونها كانت خلال فترة الحروب الصليبية ، بما فرضته من وصف المعارك ،ومدح أبطالها ،وظهور الشعرالجهادي أو الحماسي مما غير من بعض ملامح المقدمة وجعلها تخرج عن الإطار التقليدي أحياناً،أضف لذلك ان حكامها كانوا أتراكاً،ممالون مقدمات القصيدة وجعلهاتتماشى مع تغير مورثات الشعراء ومشاربهم([2]) ،وثمة عوامل أخرى منها تسارع الاحداث ،والتي لم تتح للشاعر في هذه الفترة أن يطول في المقدمات ويبكي على الاطلال،ويتغزل ،لأن أحداث الحروب تفرض وقائع مختلفة على الجميع وفي القلب الشعراء ،وعلى الرغم من ذلك فقد كان لشعراء هذه الفترة النصيب الوافر من الالتزام بشكل القصيدة في مطلعها وموضوعها وخاتمتها ،لدرجة أن بعض النقاد سماه اتباعية وتقليداً،كما أشار لذلك الدكتورمحمود إبراهيم في كتابه (صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني)حين سماها النزعة الاتباعية في شعر ابن القيسراني ([3]) فكيف كانت بنية القصيدة لدى شعراء هذه الفترة ؟؟؟؟ هذا مانتناوله بالتفصيل،في ضوء تقسيم القصيدة لأربعة أقسام باعتبار أنه الشكل الفني لأي قصيدة :

المطلع ،والمقدمة ،وحسن التخلص(الخروج) ،وحسن الختم الانتهاء([4])

<u>أولاً:المطلع في قصيدة الحماسة</u>

كانت المقدمة طويلة في بداية فترة الحروب الصليبية إذ كانت البلاد في حالة من الركود بسبب ضعف الولاة،ومنافستهم على المكاسب ،ولذلك كانت قصيدة الأبيوردي والتي قالها في مدح الخليفة العباسي المقتدي،بادئة بالمقدمات الطوال،والتي زاد عدد أبياتها عن أربعين بيتاً،يقول في مطلعها:

بعيشكما ياصاحبي دعانيا

عشيةَ شَام الحي برقاًيمانيا

---

١ شعراء الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين /دفؤاد حسين ابو الهيجاء/ص٢٧٢.

٢ الاتجاهات الفنية في الشعر إبان الحروب الصليبية /د.مسعد عيد العطوي /ص٤٢٩ .

٣ صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني/د. محمود إبراهيم ص ١٧٢.

٤ نور الدين في الأدب العربي /محمود فايز السرطاوي /٢٣٥

والمقدمة يخاطب فيها صحبه ،ويحدو لهم بذكريات معشوقته وأطلالها ،ويصفها من خلال الظبا ،ثم يعرج على شكوى الزمان فيبيته الخامس والثلاثين ،وتستغرق الشكوى خمسةأبيات ،ويمدح الخليفة في البيت الحادي والأربعين :

بأروع من آل النبي إذا انتمى

أفاض على الدنيا علا ومساعيا(١)

وشعراء الشام أقل ميلاً إلى طول المقدمات،وربما يعود ذلك لبعدهم عن دار الخلافة والوزراء ،فالشاعر ابن الخياط يمدح عضب الدولة أبق بن عبد الرازق في قصيدة تبلغ مقدمتها عشرين بيتاًمن جملة ابيات القصيدة الستة والسبعين(٢) ،ومن أصحاب المقدمات الطويلة الشاعر عمادالدين الأصفهاني فإن ديوانه سيما مدائحه يستهلها بالموضوع مباشرة أحياناً.

أما القصائد التي قيلت في موضوع الجهاد فإنها تباشر الموضوع ،وتنأى عن المقدمات ،فهذاالقيسراني يمجد تاج الملوك بوري عند نصره على الفرنجة عام ٥٢٣هـ في قصيدة استهلها بقوله :

الحق مبتهج والسيف مبتسم

ومال أعدا مجير الدين مقتسم

قدت الجياد وحصنت البلاد وأم

نت العباد فانت الحل والحرمُ(٣)

وهذا خلاف أشعارهم وقت السلم ،فإنها تستهل بالمقدمة الغزلية أحياناًفي غير طول وللمقدمات أثرها في جودة القصيدة ،ولذلك أولاها النقاد أهميةكبيرة،فقبلوا منها ما كان بيناًواضحاً،بحيث لايداخله لبس أو غموض ،واشترط بعضهم في المطلع عذوبة اللفظ ،وسهولة السبك ،وصحة المعاني ،وتجنب ما يفحش لفظه(٤)

والأمثلة على جودة المقدمات في شعر هذه الفترة كثيرة منها :

- قول ابن القيسراني في نور الدين استهلها بذكر الأسلحة:

تفي بضمانها البيض الحداد

وتقضي دينها السمر الصعادُ

---

١ الاتجاهات الفنية في شعر الحروب الصليبية إبان الحروب الصليبية/د.مسعد العطوي /ص٤٢٩

٢ المصدر نفسه ص ٤٢٩.

٣ المصدر نفسه ص ٤٣٠

٤ كتاب نور الدين في الأدب العربي /محمود فايز السرطاوي /٢٣٥

وأنشده قصيدة اخرى افتتحها بالحيث عن العزيمة والقوة :

هذه العزائم لاماتدعي القضبُ

وذي المكارم لاما قالت الكتبُ[١])

ويلاحظ في القصيدتين أن المطلع فيه فخامة وقوة وهو ما يناسب شعر الحماسة،ومن ذلك ما قاله ابن منير في مدح نور الدين عندما ظفر بالبرنس ،وحمل راسه إلى حلب :

أقوى الضلال واقفرت عرصاته

وعلا الهدى وتبلجت عرصاته

ومنها أيضا ما قاله في فتح الرها :

ملك ما أذل بالفتـــــح أرضاً

قط إلا أعـــــــــــــزها إغلاقه (٢)

ومن ذلك أيضاً ما قاله ابن أسعد الموصلي في نور الدين عندما مدحهم وهم المنهزمون :

ظبا الظوابي وأطراف القنا الذبلِ

ضوامن لك ما حازوه من نفلِ(٣)

فكل هذه المطالع قد تحقق فيها من شرط النقاد من جودة وبراعة ،،ومناسبة للمناسبة التـــي قيلت فيها ،ومرتبطة بالموضوع أشد الارتباط (٤) .

ثانياً:المقدمات في قصيدة شعر الحماسة

اكتنفت مقدمات القصيدة في عصرالحروب الصليبية العديد من العوامل التي جعلتهـــا قصـــيرة ومباشرة ،وأهم تلك العوامل هو الصراع العسكري الجهادي الذي خاضـــه المســـلمون ضـــد الإفرنج ، مما جعل الشعراء ينشغلون عن المقدمات بوصف المعركة أوالإشادةبالنصر ،وهـــذا أمر طبعي فرضته الظروف واقتضاه الحال ،وقد وافق الكثيرون من النقادعلى ذلك فابن الأثير يربط بين مقدمة القصيدة وموضوعها،ويرفض أن يكون البدء بالغزل ،إذا كان القصـــيد فـــي حادثة من الحوادث ،كهزيمة جيش أو فتح معقل ،وإن فعل ذلك دل على ضعف قريحة الشاعر وقصوره عن الغاية ،أو على جهله بوضع الكلام في مواضعه)(٥).

---

١ نور الدين في الأدب العربي /محمود فايز السرطاوي /٢٣٧

٢ ديوان ابن منيرص /٢٠٤/٢٠٨

٣ ديوان ابن الدهان الحمصي ص٧٠

٤ كتاب نور الدين في الأدب العربي /محمود فايز السرطاوي /٢٣٧

٥ المصدر نفسه ص /٢٣٩

ومن أمثلة المقدمات التي تبدأ بمقدمات غزلية قصيدة لابن القيسراني ،يمدح فيهانور الـــدين يقول في مقدمتها:

أما وخيال زار ممن أحبه

لقد هاج من ذكراه مالا أغبه

إذا ما صبا قلب المحب إلى الصبا

ذكرت نسيماً بالثغور مهـــبهُ

فيانفحات الشام رفقاًبمهجة

يحامي عليها مدنف القلب صبه

فلاتسألن الصب أين فؤاده

فإن فؤاد المرء مع من يحـــبه

وفي شعب الأكوار من هو عالم

غداة استطار البرق من طار لبهُ

ثم يخرج بحذق ومهارة فينتقل لمدح نور الدين فيقول :

يشيم ثغور المزن تهمي كأنها

ثنابشر نور الدين تنهل سحبه

إذا ما سما في مبهم الخطب وجهه

تمزق عن بدر الدجنة حجبه

تولد بين الغيث والليث والتقى

منافســـــــة أي الثلاثة تربهُ(١)

إلا أن هناك من القصائد التي قيلت على لسان شعراء هذا العصر قد تحررت من المقدمة الغزليـــة ومنهـــا على سبيل المثال قصيدة ابن منير يذكر واقعة الجولان ويمدح نور الدين بمناسبة الانتصار :

مابرقت بيضك في غمامها

إلا وغيث الدين لابتسامها

ملك أزال الروم عن صلبانها

دفاعه وكب من أصنامها

جال على الجولان أمس جولة

صفرت الأدحي من نعامها

---

١ كتاب نور الدين في الأدب العربي /محمود فايز السرطاوي /٢٤٠

ثم ذكر واقعة أخرى وربطها بها فقال :

وفي الرها صابت له سحابة

صاروا جفاءصخف في التطافها (١)

ثالثاً:التخلص في بنية القصيدة الحماسية :

والتخلص هو أن يأخذمؤلف الكلام في معنى من المعاني ،فبينما هو فيه أخذ في معنى آخر غيره ،وجعل الأول سبباً إليه من غيرأن يقطع كلامه ويستأنف كلاماً آخر ،بل يكون جميع كلامه كأنه أفرغ إفراغاً،وذلك مما يدل على حذق الشاعر وقوة تصرفه ،ويرى النقاد أن براعة التخليص هو أن يكون التشبيب أو النسيب ممزوجاً بمابعده من مدح و غيره،غير منفصل عنه ،وأن لطافة الخروج إلى المديح سبب ارتياح الممدوح (٢)

ومن أمثلة التخليص الحسن ما قاله ابن القيسراني في مدح نور الدين وقد بداها بالغزل :

يا ليت إن الصد مصدود

أوَلا فليت إن النوم مردودُ

ثم يتخلص إلى مدح نور الدين فيقول :

وطيف لاتثني على عيشنا ال

محمود والسلطان محمود(٣)

ومن التخلص ما جاء في قصيدة العماد الاصفهاني مدح فيها نور الدين ،بعدأن بدأهابالغزل يقول :

حبذا ساكنوا فؤادي وعهدي

بهم يسكنون سفح الوادي

وخرج بعد ذلك إلى ذكر الجهاد ومدح نور الدين فقال:

مااعتياضي عن حبهم يعلم الل

هُ تعالى إلا بحب الجهاد

واشتغالي بخدمة المل العا

دل محمود الكريم الجوادِ

---

١ كتاب نور الدين في الأدب العربي /محمود فايز السرطاوي /٢٤١

٢ المصدر نفسه ص ٢٤٢

٣ المصدر نفسه ص ٢٤٣

وفي القصيدة نفسهايتخلص العماد إلى ذكر الفرنج وفعل الزلزال بهم فيقول:

جَلَ رُزْءُ الفرنجِ فاسْتَبَدلُوا منْ

هُ بلِبس الحديدِ لِبْسَ الحِدادِ

فرق الرعب منه في أنفس الكف

ارِ بين الأرواح والأجسادِ

سطوة زلزلت بسكـــــــانها الأرْ

ضَ وهدت قواعد الأطوادِ(١)

والتخلص من المواقف التي يجتهد الشاعر الحاذق في تحسينها،فهو (مــن المواقــف التــي تستعطف أسماع الحضور وتستميلهم إلى الإصغاء)(٢)

رابعاً:الخاتمة في القصيدة الحماسية

اهتم النقاد بخاتمة القصيدة ،فخاتمة الكلام أبقى في السمع ،وألصق في النفس لقرب العهد بها ،فإن حسنت حسن ،وإن قبحت قبح(٣)

ولأهميتها عني النقاد بها كثيراً،ورأى بعضه أن يكون ما في آخرالقصيدة أحسن مما انــدرج في حشوها ،وأن لايقطع الكلام على لفظ كريه أو معنى منفــر للــنفس،وأن يكــون الختــام مناسباًللغرض الذي سيقت له القصيدة ،وأن يتضمن الختام معنــى تامــاًيؤذن بالنهايــة،ومن أحسن ما قيل في ذلك ما قاله ابن منير في ختام قصيدة مدح فيهانور الــدين وهــو محاصــر دمشق :

دمشق دمشقٌ إنما القدس سرحةٌ

ومركزها صرح عليها ممردُ

متى أنا راءٍ طائر الفتح صادحاً

يرفرفُ في أرجائها ويغردُ (٤)

فهذه الخاتمة متعلقة بالجو العام للأبيات ومناسبة للغرض ،فالشــاعر يبــين أهميــة دمشــق وفتحها ،فهي بمثابة الطريق لفتح المقدس ،ويتطلع بشوق لذلك اليوم الذي يرى فيــه طــائر الفتح يرفرف في أرجاء القدس ،فتحرير القدس أمنية المسلكين جميعاً.

---

١ ديوان العماد١٢٣/والخريدة قسم شعراء الشام١/٤٦-٤٩

٢ نور الدين في الأدب العربي /محمود فايز السرطاوي /٢٤٣

٣ المصدر نفسه ص ٢٤٤

٤ ديوان ابن منير ص٢٣٣

وهذه خاتمة لابن القيسراني قالها في مدح نور الدين :

هذا وكم من سنةٍ بدعة

أعدمتها من بعد إيجادها

مآثر لوعدمت رواياً

تكفل النظم بإســـــــنادهَا(١)

وخلاصة ما سبق يتبين لنا :

- **أن القصيدة العربية تتكون من بناء يشابه خلق الإنسان ،في اتصـــال أجزائـــه بـــبعض ،وهذا الهيكل من أربعة أقسام المطلع والمقدمة والتخلص والخاتمة .**
- **ظل الشعراء محافظين على هذا البناء للقصيدة ،إلى العصر العباسي حين بدؤوا التحرر من الشكل التقليدي ،إلا أن الالتزام بالبناء الرئيسي ظل مستمراً.**
- **بظهور الصليبي الغازي بدأ الشعر يأخذ مساراًآخر مـــن وصـــف المعـــارك وتمجيـــد البطولات مما جعل الشعراء يتوجهون بعواطفهم مباشرة للحدث دون المقدمة الطويلة.**
- **التزم شعراء الجهاد الشامي بنهج القصيدة ومبناها،وأجادوا حســـن الـــتخلص ،وذلـــك لتدافع الأحداث ومسايرة الشعر لها على نحو يتطلـــب الإســـراع فـــي إبـــراز الحـــدث والتعبيرعنه .**
- **لقد كان هؤلاء الشعراء صادقين في تصويرهم للفتح وحديثهم عنه ،ونقلوا لنا ما فـــي أحاسيسهم ومشاعرهم ،وكانت قصديتهم رغم ما يبدو عليها من تأثر شـــديد بالقـــدامى من الشعراء أمثال أبي تمام والبحتري،كانت لها سماتهاالخاصة وتصاويرها الذاتية، بما لايقلل من إبداعاتهم وتميزهم.**

---

١ نور الدين في الأدب العربي ص٢٤٤

المبحث الثاني

اللغة والأسلوب

تركت الحروب الصليبية التي جرت في البلاد الإسلامية آثارا بعيدة المدى على الشعوب الإسلامية ثقافية واجتماعية ونفسية ،فهذه الحروب لم تكن مجرد كر وفر وقتال ودماء ،ومعارك ونزال فالصليبيون الذين يضمون أجناساًشتى يؤمن أكثرها بالمسيحية ،طالما قاموا في بلاد المسلمين سنوات طويلة ،وكان بعضهم مقيما بصفة مؤقتة ،ولكن الغالبية العظمى منهم استقروا في بلادنا ،وخالطوا أهلها ،وتأثروا بهم ،وأثروا فيهم ،وسنستعرض في هذا الفصل أثر الحروب الصليبية على لغة الشعر ومواضيعه :

أ- الأثر اللغوي :

استعمل الكتاب المسلمون نتيجة للاحتكاك بالصليبيين بعض الكلمات الأجنبية في كتاباتهم ،ونجد مثلا لذلك عند ابن شداد في كتابه النوادر السلطانية عندما تحدث عن الصلح الذي وقع بين المسلمين والإفرنج في عصر صلاح الدين عندما حاصر الإفرنج مدينة عكا،واتفقوا على ترك المسلمين يخرجون من المدينة دون أذى مقابل فدية تدفع لهم ،وان هذه الفدية (تدفع في تروم ثلاثة كل ترم في شهر)(١) والترم كلمة إنجليزية تعني الفصل أما المقريزي فقد استعمل كلمة (القومص) وهي كلمة لاتينية (٢) كما استعمل بعض الكلمات الأخرى كقوله عن (لويس التاسع)ملك فرنسا وكان هذا أريب إفرنس من أعظم ملوك الفرنجة ،وأشدهم بأساً وأفرنس هي امة من الفرنج ،ومعنى ريد أفرنس (ملك أفرنس)فإن ريد في لغاتهم معناها ملك ٣ .

ومن الكلمات الشائعة في كتابات المؤرخين القدامى كلمة (البرنس) بمعنى الأمير ،ذكرها سبط ابن الجوزي في حديثه عن أحداث سنة ٥٤٤هـعندما خرج نور الدين قاصدا أنطاكية (فخرج عليه البرنس وكانت بينهما وقعة عظيمة ،كسرهم نور الدين الكسرة المشهورة ،وقتل منهم الفاو خمسمائة واسر مثلهم ،وقتل البرنس وحمل رأسه إلى نور الدين٤ .

---

١ النوادر السلطانية ص ١٧٣

٢ السلوك ج١ ص٩٢

٣ المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ص٦٢

٤ مرآة الزمان ج٨ص٢٠١ .

ومن الكلمات التي استملها ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة كلمة (سير)بمعنى السيد عندما قال (وتم في سنة ٦٨٨هـ فتح طرابلس وهو أن صاحب طرابلس كان قد وقع بينه وبين سير تلمية الإفرنجي ،وكان من أصحاب الحصن الذي أضر به صاحب طرابلس رضاء للملك المنصور قلاوون(١)ومثل هذه الكلمات التي تسربت إلى لغة الكتابة في هذا العصر نجد لها صدى في الشعر أيضا،حين يتحدث الشعراء عن أعدائهم الصليبيين ووردت الكلمات الأجنبية في شعر الجهاد كقول ابن منير الطرابلسي في قصيدة له يمدح فيها نور الدين ويذكر بعض وقائعه :

فبرنست البرنس لفاع خف

وجرح مرجوسك جوسلين (٢)

ولم يكن ابن منير وحده الذي يورد مثل هذه الكلمات ،إذ شابهه في ذلك ابن القيسراني حيث استعمل كلمة (القومص)فقال:

كما أهدت الأقدار للقمص اسره

وأسعد قرن من حواه لك الأسر (٣)

- لغة الشعر في القصيدة الحماسية:

والمقصود بلغة الشعر في جانب منها مدى توفيق الشاعر في اختيار ألفاظه للدلالة على المعنى الذي يريده ،وذلك من ناحية المضمون والجرس الموسيقي وتناغم الشكل والمضمون في العبارة الشعرية .

ومن قديم ربط النقاد العرب بين اللفظ والمعنى ،فهذا ابن رشيق في كتابه (العمدة)يربط بين اللفظ ومعناه بقوله (اللفظ جسم وروحه المعنى ،وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ،يضعف بضعفه،ويقوى بقوته) ثم قال: (وكذا إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ)[٤] أماعبدالقاهر الجرجاني فقد أسس نظرية النظم على فكرة الارتباط العضوي بين المعاني والألفاظ .

ولما كانت الألفاظ وسيلة مهمة للتعبير عن الفكرة وجه النقاد عنايتهم لدراستها من نواح مختلفة يأتي في أولها فصاحة اللفظ .

---

١ النجوم الزاهرة ج٧ص١٩٢

٢ الروضتين ج١ ص٨٢

[٣] المصدرنفسه ج١ص ١٨٥-١٨٨

٤ العمدة :ج٢ ص١٢٤

ولذلك يشترط عبد القاهر الجرجاني لفصاحة اللفظ أن يكون (ممايتعارفه الناس في استعمالهم ،ويتناولونه في زمانهم ،ولا يكون وحشيا غريبا،أوعاميا سخيفا)[1].

وقد تدبر ابن قتيبة الشعر فوجده على أربعة أضرب:

(ضرب حسن لفظه وجاد معناه ،وضرب حسن لفظه وحلا،فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى ،وضرب جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه ،وضرب تأخر معناه وتأخر لفظه)[2]

وبدراسة وتطبيق هذا المبدأ على شعر الجهاد في عصر الحروب الصليبية نجد أن شعراء الجهاد عنوا باللفظ عناية تامة من خلال المظاهر التالية :

- الاختيار الأمثل للألفاظ ومناسبتها لمقتضى ماستعملت له :

نجد ذلك في قصيدة ابن القيسراني :

ضَحِكَتْ تَبَاشِيرُ الصبَاحِ كَأَنهَا
قَسَمَاتُ نور الدين خَيرِ النَاسِ
المُشْتَرِي العُقْبَى بِأَنْفَسِ قِيمَةٍ
وَالْبَائِعُ الدُنْيَا بِغَيْرِ مَكَاسِ
وسرى دعاء الخلق يحرس نفسه
إنَ الدعَاءَ يُعدُ في الحُرَاسِ
رَاضَ الخُطُوبَ الصُمَ بَعدَ جِمَاحِهَا
وَأَلَانَ مِنْ قَلْبِ الزمَانِ الْقَاسِي
وَأعاد نور الحق في مشكاته
وأقَامَ وَزْنَ العَدلِ بِالقِسْطَاسِ
وَاْخْتَارَ مَجْدَ الدِينِ سَائِسَ مُلكِهِ
فَحَمَى السِيَاسَةَ مِنْهُ طَوْدٌ رَاسِي
فهُو الخَبِيرُ بِكلِ دَاءٍ مُعضِلٍ
يَأْسُو جِرَاحَ زَمَانِنَا وَيُوَاسِي
سَكَنْتَ شَغَبَ الدهْرِ بَعد تَخَمُطٍ
وَأَلَنْتَ مِنْ عِطْفَيْهِ بَعْدَ شَمَاسِ

---

١ أسرار البلاغة ج١ ص٩٨.

٢ ابن قتيبة :الشعر والشعراء ج١ص٧

حَتَى مَنَحْتَ الْخَلْقَ كُلَ مَـسرَةٍ

فَالنَاسُ فِي عُرْسٍ مِنَ الْأَعْـــرَاسِ([1])

نلاحظ ان الشاعر وفق كثيرا في اختيار ألفاظه التي مدح بها نور الدين بطل الجهـاد ضـد الصليبيين ،ففي البيت الأول نجد أنه استخدم كلمات(ضحكت- تباشير- الصباح)للدلالة علـى السرور والبشرى والفرح ،وهي كلها تعطي هذا المعنى وتدل عليه .

وكذلك نجد في البيت الثاني قوله (المشتري العقبى – البائع الدنيا)وهي كلمات تدل على زهد ممدوحه ورغبته في العمل للآخرة .

ونجد التوافق والانسجام كذلك بن اللفظ والمعنى في قوله(سكنت)في تشديد الكاف يعي معنـى المبالغة في الفعل،لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى وكذلك نجـد الشـيء نفسـه فـي قوله(تخمط)

وإذا أردنا الحديث عن موسيقى الشعر في هذه الأبيات فسنجد أن الشـاعر اسـتخدم البحـر الكامل ،وهو بحر خفيف الإيقاع ،هادي الوزن ،لكونه يحوي تفعيلة واحدة،وإذا اجتمعت معـه عناصر الشكل الأخرى،أصبحت القصيدة ذات تأثير قوي على الوجدان والسمع .

ونغمة الأبيات توحي بالتناسق ،وقد تآلفت مع الموسيقى الداخلية تآلفاً جميلاً فوجدنا الشـاعر استخدم توالي حروف المد استخداما ًبارعاً يوحي بالإمتداد في المعنـى والصـوت ويعطـي للقارئ والسامع راحة في النفس .

ففي البيت الأول مثلا نجد :

تباشير ،الصباح ،كأنها ،قسمات نور –الدين –الناس.

وفي البيت الثاني (المشتري، العقبى،قيمة ،البائع ،الدنيا ،مكاس ...

واتسم شعر الجهاد بانعدام التكلف والتقعر في ألفاظه ،وذلك أن الشاعر كان يقـول القصـيدة بعفوية تامة ،معبرا عن شعوره تجاه الحادثة التي يصفها ،ولذا فقد اتسم هذا الشعر بصـدق العاطفة وحرارة الانفعال .

أما ابن منير الطرابلسي فقد مدح نور الدين بقصيدة قال فيها :

أيا نور دين خبا نوره

ومذ شاع عدلك فيه اتقدْ

رآك الصليب صليب القناة

أمين العثار متين العمْد[1]

---

١ الروضتين ج١ ص٢٠

أحسن الشاعر كثيراً في اختيار الألفاظ لأنها تتفق مع مضمون الأبيات ،إذ نجد لكل لفظة مدلولاً،وإيحاءً قوياً بالمعنى ،وبينها جميعاً تلاؤم يسمونه مراعاة النظير.

ففي البيت الأول نجد لفظ (النور)ومعه(خبا)ومعه كذلك(اتقد) ليعبر تمام التعبير عن المعنى الذي قصده الشاعر .

وهكذا لو مضينا في بقية الأبيات سنجد أن الألفاظ تلاءمت مع معانيها وأحسنت التعبير عنها ،فنحن نحس بالمعركة في قوله :

زبنتهم أمس عن صرخد

ففضوا كأن نعاماً شرد

ويوم العريمة أقبلتهم عراماً

يثعلـــــــب منه الأسد

وقبل أزرتهم في الرها

موازق مزقن جرد الجرد

فنجد عنف المعركة في ألفاظه (موازق- مزقن-جرد-الجرد) ولعل استعمال الشاعر لهذه الألفاظ القوية مايدل على تمكنه القوي من اللغة ،وثقافته اللغوية الواسعة أو كما يقول الدكتور محمد الهرفي في كتابه شعر الجهاد في عصر الحروب الصليبية[٢] (ولعله رد فعل في ذلك العصر لما شاع في الكتابات والأشعار من روح العامية وابتذال اللغة الفصحى وتدنيها ،وتلك قضية أخرى تبرز عند دراسة هذا المبحث والتي تتناول اهتمام شعراء هذا العصر باللفظ ،فقد كان هذا الجانب مثار خلاف بين النقاد ،إذ يقول ابن عساكر في تاريخ دمشق :

(فلاغرابة أن وجدنا شعر ابن منير الطرابلسي يكثر فيه من الفحش ويستعمل الألفاظ العامية)[٣] ،وهذا الشاب الظريف الذي اشتهر شعره بالسهولة لالسبب ،ولكن (لأن أكثر شعره،لابل كل شعره رشيق الألفاظ ،سهل على الحفاظ ،لايخلو من الألفاظ العامية وما تحلو به المذاهب الكلامية)[٤] ولعله تفسير له وجاهته ذلك الذي يسوقه الدكتور عمر موسى باشا في كتابه (تاريخ الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك)إذ يقول :

---

١ الروضتين ج١ ص٢١

٢ شعر الجهاد في عصر الحروب الصليبية/دالهرفي /ص١٩٩

٣ تاريخ دمشق /ابن عساكر /ج٢ص٩٧

٤ فوات الوفيات /ابن شاكر /ج٢ص٢٦٣

(ومن المحتم ونتيجة للتفاعل اللغوي في هذا العصر بين العربية واللغات الأجنبية المتواجدة على الأرض أن يكون هناك تفاعل يؤثر ويتأثر،فيستمد منها كثيراً أو قليلاً من مختار ألفاظها وأساليبها التعبيرية بحكم عاملي الزمان والمكان)([1])

فهذا أسامة بن منقذ يصف قرية اسمها (لغي كوم)فيقول وقد بدا تأثره بلغة القوم :

نزلت بأرض (بالوا) وهي حصن

علا حتى تمنطق بالنجوم

بروم لاتلائمـــــــــهم طباعي

وما العربي ذو إلف بروم

سلامهم (هـــــزاربايك)ماذا؟

شبيه سلام خزان النعيم

وإن كلمتـــــــهم قالوا (اشكديم)

ولست بعالم معنى اشكديم

أنواع الأساليب في الشعر الشامي فترة الحروب الصليبية :

أ-الأسلوب التقليدي:

وهو الذي كان الشعراء فيه يسيرون على خطى السابقين من الأقدمين ،ولاسيما في قصائد المدح،وبعض القصائد الجهادية ،وتمتاز هذه القصائد من حيث الشكل باستهلال القصيدة بالوقوف على الأطلال،أوبالنسيب،إلاأنهم أضافوا إلى هذه الخصائص مظهراًآخر يتمثل في الحرص على الألفاظ القوية،والتعابير المتينة،والنغمة الجزيلة،والموسيقى المتدفقة،بل والمدوية أحياناً،ومن الأساليب التي تثبت ماقلناه تلك القصيدة التي نظمها ابن القيسراني في الإشادة بزعيم قلعة جعبر عز الدين العقيلي،يقول ابن القيسراني وقد أخضع قصيدته لأساليبهم الجزلة ،وتراكيبهم الفخمة،وصورهم البدوية ومعانيهم :

ياطالباً ذلي بجامع غيه

أو ماسمعت بعزآل مسيبِ

الحافظين زمارهم في جارهم

والعاقدين زمامهم للأجنبي

والراكبين من الظبي في بارق

والنازلين من القنا في مضربِ

---

١ تاريخ الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك/دعمر موسى باشا /ص٧١١

والحاتمين الكاتمين من الندى

ما شاع في العربي والمستعربِ

قوم إذا استبقوا على أحسابهم

جلبوا لعز الدين اكرم منسبِ(١)

ومن القصائد التي خلا فيها الشعر من المحسنات البديعية قول اسامة بن منقذ التي مطلعها:

أبى الله إلا أن يكون لنا الأمر

لتحيا بنا الدنيا ويفتخر العصرُ

جعلنا الجهاد همنا واشتغالنا

ولم يلهنا عنه السماع ولا الخمرُ

دماء العدا أشهى من الراح عندنا

ووقع المواضي فيهم الناي والزمرُ

نواصلهم وصل الحبيب وهم عدا

زيارتهم ينـــــحط عنا بها الوزرُ (٢)

والأسلوب كما نرى يخلو من التكلف والصنعة والتقليد.

ب- <u>الأسلوب الشعبي الميسر :</u>

وقد نشأ هذا الأسلوب من وجودطائفة من عوام الشعراء،مثل ابن منير الطرابلسي،وفتيان الشاغوري،وابن عنين،وغيرهم ،وكان هؤلاء الشعراء يصدرون في إنتاجهم الشعري عن الأوضاع الاجتماعية المحيطة بهم ،ويعكسون ما بها من مظاهر سلبية او إيجابية ،بطريقة التندر حيناً ،والفكاهة حيناًآخر،وهناك الوعاظ الذين كانوا يلقون مواعظهم في صورة جلسة عامة مع عموم الناس،بغرض تحفيظهم هذه الأشعار،وقد شاع هذا النوع من أساليب الشعر البسيطة حتى عندالأمراء ولذلك سأل نور الدين الشاعر العماد أن يعمل على لسانه (دوبيتات) في معنى الجهاد،فقال :

للغزو نشاطي وإليه طربي

مالي في العيش غيره من أربِ

---

١ ديوان ابن القيسراني /٩٦

٢ كتاب الشعر العربي في القرن السادس الهجري /د.شفيق محمد عبدالرحمن الرقب/ص ٣٤١

بالجد والجهاد نجح الطلب

والراحة مستودعةً في التعبِ[1]

وكان مما تميز به هذا النوع من أساليب الشعر آنذاك ،السهولة في اللفظ ،واستخدام الكلمات العامية ،والإكثار من الألفاظ الأعجمية،

ومن ذلك ماقاله العماد :

أصبحت بغلتي تشتكي من العر

ي وأسراجها بلا كنبوش(٢)

قلت :كفي فخير يومك عندي

أن تفوزي بالتبن أو بالحشيش

لو تبصرت حالتي لتصبر

تِ فإياك عندهاأن تطـــــــيشي

أوَما مات في الشتاء من البر

دِ ومن فرط جوعه إكديشي(٣)

ج- <u>الأسلوب الزخرفي :</u>

في هذا الزمن،اولع الشعراء بالزخارف اللفظية ،ونالت من اهتمامهم القدر الأكبر فقد وجد في هذا الزمان من ألف كتاباًفي البديع ،ووضع فيه خمسة وتسعين نوعاً ،ذلكم هو الشاعر المرافق لنور الدين وهواسامة بن منقذ، كما افتتن الكثير من شعراء هذا العصر بالتنوع في الزخرفة ،افتتاناًلم يقتصر على الجناس والطباق ،والتقسيم وغير ذلك من فنون البديع والزخرفة اللفظية بل تعدى ذلك إلى فنون أخرى ،ومن ذلك ما سمي (بالقصيدة الحرباوية)التي ألفها تاج الدين البَلَطي ،وقد أطلق عليهاهذا الإسم لأنها تتلون كما تتلون الحرباء ،ويقول البلطي مبرراًهذا النوع من القصائد :

(وإنما عملتها كذلك لأمرين :أحدهما أن آتي بما لم أسبق إليه ،أما الثاني فكيما أتحدى بها النحاة لأني اتيت فيها بمذاهب من النحولم يقف عليها أحد)[4] ومطلع القصيدة :

---

١ الروضتين /٢/٢٨ونقلاًعن كتاب شعر الصراع مع الإفرنجة /د.فيصل صلاح الدين أصلان /ص٤٧

[2] الكنبوش هو برذعة توضع تحت السرج وهي فارسية الأصل ، كتاب الشعر العربي في القرن السادس الهجري /د.شفيق محمد عبدالرحمن الرقب/ص ٣٤٨

٣ ديوان العماد /٢٤٥/٩٦

٤ الأشباه والنظائر في النحو /جلال الدين السيوطي /ص ١٩٧

إني امرؤٌ لايطببني

الشادن الحسن القوامِ(١)

فيجوز هناحالات الإعراب التلية :

- رفع (القوام)على أنها فاعل لكلمة الحسن .
- نصب (القوام)على أنها تشبيه بالمفعول به .
- جر (القوام)على أنهامضاف إليه .
- الوقف بالسكون لقافية البيت .

وهناك ظاهرة تتعلق بالزخرف الأسلوبي في القصيدة الحماسية وهي التكرار(٢) كما في قول ابن القيسراني حين كرر كلمة (العاطل الحالي)في قوله :

وهو تاج الملوك فالملك العا

طِلُ حال به على كل حـــــالِ

وفي بيت آخر يقول :

إن شئتم علم حالي بعد فرقتكم

فأنصتوا للحمام العاطل الحالي

وفي موضع ثالث يقول:

وأنت الحلي على المـــــــكر

مات فلا وصفت أنها عاطـــل

وفي موضع رابع يقول :

فأسعد بها قواطناً ظواعــناً

واجتلها حوالـــــياًعواطـــــــلاً(٣)

ويكرر ابن منير بعض الصور كما في قوله :

أليسوا عدلك المدبج فاختاً

لوا بناتٍ في وشيه وبنينَا

---

١ المصدر نفسه ص١٩٧

٢ الشعر العربي في القرن السادس الهجري /د.شفيق محمد الرقب /ص ٣٥٦

٣ نقلاًمن المصدر السابق ص ٣٥٦.

والبيت الثاني:

تبختر في كسا عدلٍ وبذلٍ

مدبجة التـــــهائم والنجادِ

والبيت الثالث:

ملك كسا الإسلام من ذبه

برداً بتدبيج الظبا معــلماً([1])

وصورة أخرى من صور التكرار الواضحة في شعر اسامة بن منقذ ،تــدل علــى الكلفــة الزخرفية اللفظية بوضوح فيقول :

مستهتر بالهجر ألقاه في الاح

لام ،وهو المعرض القالي

والبيت الثاني :

بنفسي مستهتر بالصدود

وحاز الجمال ولايجملُ

والبيت الثالث:

أغراكم بالهجر علمكم

أني بكم مستهتَرٌكلِفُ([2])

ومن صور الزخرفة اللفظية في قصائدشعرالحماسة ورود ألفاظ أعجمية ،وذلك بســبب أن الحكام أنفسهم كانوا أعاجم،والصراع كان مع الإفرنجةالأعاجم،ولذلك كان الشعراء يوردون في شعرهم أسماء هؤلاء القادة ،ورغم أعجمية هذه الاسماء إلا أن بعض الشــعراء كــان يوردها في شعره دون ان يشعر القاريء بها،كما عند ابن منير في قوله :

بَرْنَسَتَ رأسَ برنسٍ ذلةً

بعدما جاست حوايا جوسلينْ

وبيت آخر يقول مستخدماًاسم البرنس والجوسلين :

فَبَرْنَسْتَ البِرنْسَ لِفاَعَ خَسْفٍ

وَجُرِعَ مُرَ جَوْسِكَ جَوْسَلينُ

---

[1] نقلاًمن المصدر السابق ص ٣٥٦.

٢ ديوان أسامة ص ٣٠-٣٨

ويقول في البيت الثالث معرضاًباسم (القمص):

حطُ القوامصِ فيه بعد قمَاصها

ضربٌ يصلصلُ في الطلَى صعَقاتُهُ([1])

هكذا كانت الألفاظ واستعمالاتها إبان هذاالعصر الذي أولع شعراؤه بالزخرف اللفظي ،والبديع ،ولئن كانت الحماسة تقتضي الدخول في الموضوع دون الانشغال بالبديع ،فإن وجود مثل هذا الزخرف وهذا التفنن ليدل دلالة واضحة على امتلاك شعراء هذا الزمان لأداة الإبداع والتعبير،بمالايتعارض مع جدية الموضوع وضخامة الحدث الذي تغطيه القصيدة أو يفصح عنه الكلام.

١ ديوان ابن منير ص ٢٠٠-٢٠٩-٢٣٧

المبحث الثالث

التخييل والصور

الصورة الشعرية هي أساس الشعر وروحه وهو قائم عليها،وهي جزء من مبنىالقصيدة ،وهي وسيلة الشاعر لتجسيد إحساسه،وتعبيره عن حالة نفسية معينة يعاني منهاإزاء موقف معين من مواقف الحياة ،فالجاحظ يعتبر أن (الشعرصناعة ،وفن، وضرب من النسج ،وجنس من التصوير)([1])،ويعد عبد القاهر الجرجاني (الصورة الأدبية أساساًللحسن،وهي التي يتوافر فيهاالنظم)([2])

وقد تحدث البلاغيون عن البيان وأهميته لاعتقادهم أنه يمثل السحر الذي يبعث الجمال في الصورة الأدبية التي يبدعهاالشاعر،وتعتمد الصورة الشعرية على المجاز بأنواعه المختلفة وعلى التشبيه ،وقد عد ابن رشيق القيرواني الاستعارة أفضل المجاز فقال عنها :(الاستعارة أفضل المجاز ،واول أبواب البديع،وليس في حلي الشعر أعجب منها،وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ،ونزلت منزلها)([3]) ،واعتقدوا ان الشعر بغير المجاز يعتبر كتلة جامة ،وذلك لان الصور المجازية تمد الشعر بطاقة من الحياة،وهذه حقيقة ظهرت على الانتاج الشعري منذ أقدم العصور .

بيد أن شعراء هذاالعصرأولعوا بالصور الشعرية،واعتبروها دليلاًعلى قوة الشاعر وقوة إبداعه،

<u>وسنتناول بعضاًمن مجالات و شواهد الصور الفنية لدى شعراء هذاالعصر لنتبين مدى براعتهم في الاستشهاد والتصوير :</u>

- فهذا ابن القيسراني يمدح نور الدين بمناسبة اخذه حصن حارم،فوصف المعركة بقوله:

حَتى اسْتطار شرار الزنْد قادِحُه

فالحرب تُضْرم والآجَال تحتطبُ

فالاستعارة في هذا البيت استعارة تصويرية جميلة ،لأنه عندما جعل الحرب ناراًتضطرم جعل حطبها آجال الأعداء ترعى فيها وتأتي عليها .

---

١ الحيوان/ الجاحظ / /ج٣ ص١٣٢

٢ دلائل الإعجاز /عبد القاهر الجرجاني /ص٢٣٠

٣ العمدة /ابن رشيق /ج١ ص٢٦٨

- ونرى كذلك تشبيهاًتمثيلياًرائعاً في قوله :

والنقعُ فوقَ صِقال البيضِ منعقدٌ

كما استقَل دخانٌ تحته لهبُ

فقد شبه ماانعقد في سماء لمعركة من الغبار والعثير بدخان كثيف أسود بينما جعل السيوف اللامعة لهباًمضيئاًمشرقاً،ولو قارنا بين هذا البيت وبيت بشار بن برد الذي يقول فيه :

كَأنَ مُثار النقْع فَوق رُؤوسِناَ

وأسيافُنا ليلٌ تهَاوى كوَاكبهُ

ولكن ابن القيسراني حاول التجديد في الصورة ،فبشار جعل العثير ظلاماً،والسيوف كواكب ،بينما ابن القيسراني جعل العثير دخاناًوالسيوف لهباً،وإن تميز بيت بشار بحركة السيوف ،وهو ما نفتقده في بيت ابن القيسراني .

– وفي نفس القصيدة يصور ابن القيسراني معاقل الكفار بعد أن كسر شوكتها وقد بقي فيها بعض أولئك الكفار لاحول لهم ولاطول ،فيشبههم بحية رقطاء قطع رأسها فلم يبق منها إلا بقية الجسد والذنب ،وقد التوى وأصبح يدل على فقدان الحياة يقول :

لم يبق منهم سوى بيضٍ بلارمقٍ

كما التَوى بعد رأْس الحَية الذنبُ

– ونجد نفس المعنى في قوله :

وائذن لمَوجك في تطهِير ساحِلهِ

فإنمـــــــــــأنتَ بحرٌ لُجه لَجبُ

فقد جعل الشاعر جيش نور الدين موجاًعارماً لجياًيستعان به في تطهير ارض المسلمين من رجس الكفار ،وهناتعبير جميل في استخدام البحر بموجه الشديد المتحرك .

– وهذا ابن منير الطرابلسي في قصيدة يمدح فيهالانور الدين فيقول :

ضحكَت تباشيرُ الصباحِ كأنها

قَسماَتُ نورِ الدينِ خيرِ الناسِ

المشْتري العُقبى بأَنْفسِ قيمةٍ

والبائـــعُ الدنيا بغير مُكاس

ففي هذا البيت صورتان تعبيريتان هما ،التشبيه المقلوب في تقديمه تباشير الصباح وتشبيهها بوجه نور الدين وكأن النور في وجه نور الدين هو الأصل وتباشير الصباح لـه شبه ،أما

الصورة الثانية فهي الاستعارة في قوله (ضحكت تباشير الصباح)وهي تدل علـــى التفـــاؤل، ولنفس الشاعر في قوله في وصف نور الدين :

سكنْت شغْبَ الدهْر بعد تخمطٍ

وألنْتَ من عَطِفَيْه بعد شِماسِ

فقد جاء باستعارتين مكنيتين (سكنت شغب الدهر–ألنت من عطفيه).

أما الكناية وهي كما صنفهاأسامة بن منقذ وجعلها تحت عنوان باب الإشارة والكناية فقال (إن الإشارة تكون في كل شيء حسن ،والكناية تكون في كل شيء قبيح)([1])ومن أمثلة الكنايـــات لدى شعراء هذه الفترة ما قاله ابن القيسراني يصف سرعة خيل نور الدين([2]) :

ومسومات لست تدري في الوغى

بقوائم يدركن أمْ بقوادمِ

وحين أراد ابن منير ان يصف حب نور الدين لجهاد كنى بذلك أن ركوبه الخيل تريحـــه أكثـــر من وصال الغرام والحب ([3]):

وفي مطى الجرد له راحةٌ

تُنسي وصال الخرَد الغيدِ

وكنى ابن منير عن امله في فتح بيت المقدس فقال ([4]):

مَتى أَنا رَاءٍ طَائرَ الفتحِ صَادِحاً

يُرفرفُ في أَرجَائِهَا وَيغردُ

<u>الأثر القرآني في بعض صور شعر الحماسة :</u>

ثمة مظهر آخر من مظاهر الإجادة في الصور الفنية لشعراءهذاالزمان وهو الاستشهاد والتأثر بالقرآن الكريم ،مما يؤكد البعد الديني لشعر هذاالزمان،وما يدل على ذلك هذه الصورة التـــي استمدهاابن منير وهو يمدح نور الدين قائلاً:

إن آلمُوا عقراً فإنك صالحٌ

أو آلمُوا غَدراً فإنك هودُ([5])

---

١ البديع في نقد الشعر /أسامة بن منقذ ص ٩٩

٢ الخريدة /قسم شعراء الشام/ص ٩٠

٣ الخريدة /قسم شعراء الشام/ص ٤٣

٤ الروضتين ج١ ق١ ص ١٩٦

٥ ديوان ابن منير ٢٤٢)كتاب الروضتين ٢١٣/١

وصورة أخرى لابن القيسراني يقول وقد شخص أمامه النص القرآني :

وأعادَ نورَ الحق في مشكاتِهِ

وأقام وزن العدل بالقسطاسِ([1])

وهي كلمات مستقاة من النص القرآني (مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ)النور الآية٣٥، وقوله تعالى (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُم وَزِنُواْ بِالْقِسْطَاسِ المُسْتَقِيمِ)الإسراء الآية .

– وصف المعارك وأثره على الصورة الشعرية :

وقد كانت المعارك تمثل بالنسبة لهؤلاء الشعراء مصدراًثرياً للوصف ،والإبداع في الصور التعبيرية التي توحي بهاأحداث المعارك ،وأجواؤها ،فهذاالعماد الاصفهاني يصف لنا معركة مع الفرنج فنرى الالوان الحمراء تملأ خوذ الجنود من كثرة الدماء ،ونرى غبار المعركة ولمعان السيوف يتخلل هذاالغبار ،كما نسمع الأصوات الصادرة عن تصادم الأسلحة ،صورمتعددة حشدهاالعماد في لوحة تعبيرية مبدعة فيقول :

وملكت رق ملوكهم وتركتهم

بالذل في الأقياد والاسجان

وجعلت في اعناقهم اغلالهم

وسحبتهم هوناًعلى الأذقان

إذ في السوابغ([2]) تحطم السمر القنا

والبيض تخضب بالنجيع القانِي

وعلى غناء المشرقية في الطلى

والهام رقص عوامل المران

وكأن بين النقع لمع حديدُهَا

نارٌ تألَق من خِلال دخان

غَطى العَجاَج بهِ نُجوم سَمائه

لِتنَوبَ عنها أنْجُم الخرصانِ ([3])

وقد استمد الشعراء من المعارك صوراًتعبيرية جديدة كان لهم فيهاحق السبق والإبداع بحكم التجربة الشعورية التي عاشها الشاعر مع المعركة وأحداثها ،وتفاعلوا فيها مع بيئتهم فمن

---

١ (ديوان ابن القيسراني)كتاب الروضتين ٢٣٣

٢ السوابغ مفردها سابغة وهي الدرع الواسعة (لسان العرب/ابن منظور مادة سبغ

٣ ديوان العماد ص/٤١١/٤١٢

الصور ماستمدوه من أجواء المعركة ومنها ماستمدوه من حياة الناس ،ومنهـا ماسـتمدوه من أسماء الحيوانات ،ومن أمثلة ماستمد من أجواء المعارك قول ابن القيسراني : ([1])

وما كَانَ كفُ العَزْمِ إلا إِشَارةً

إلى الْحزمِ لوْ لمْ يغضبِ السيفُ والرمحُ

وقول ابن منير : ([2])

وأنتَ السيفُ لمْ تمَسسْهُ نارٌ

ولاشَحذت مضاربُه القُيونُ

أماالصور التي استمدوها من أسماء الحيوانات فهي كما قال ابن منير ([3])

أسَدٌ فرائسُه الفوارسُ والظبَا

أظْفارهُ والسمهَريةُ غابُه

طبع الحديد فكان منه جنانه

وسِنانُه وإهابُه وثـيابُهُ

من صور الإبداع والتجديد في الصورة الشعرية لشعر الحماسة :

لاشك أن الصور التقليدية التي تأثر بهاشعراء العصر من أسلافهم كانت كثيرة ،إلا أن ذلك لم يؤثر على إبداعاتهم وابكاراتهم لصور جديدة منها ما قاله ابن القيسراني يصـف أثـر السيف على الأعداء ([4])

- طهرت أرضَ الاعَادي من دمَائهم

طهارةُ كل سيفٍ عندَها جنبُ

فقد صور السيف إنساناًجنبا ًيتطهر من جنابته .

- ويصف ابن منير السيف وصفاًآخر جديديا ًفيقول([5])

له سِمَة الشيُوخ صَفاءَ شيبٍ

وفي خَطَراتِه نزَقُ الشبابِ

---

١ كتاب الروضتين ص ١٨٠/١

٢ المصدر نفسه ص ٢٠٥/١

٣ ديوان ابن منير/ كتاب الروضتين ١٢٨/١

٤ ديوان ابن القيسراني٦٧

٥ ديوان ابن منير ص ٢٥٣

- ومن المعاني الجديدة قول أسامة بن منقذ يصف حبه لنور الدين [1]

وكأَن قَلْبِي حِينَ يخْطُرُ ذِكْرُكُمْ

لَهَبُ الضرَامِ تَعَاورَتْهُ الريح

إلى هذه الدرجة يشعر أسامة بالحب لنور الدين فيضطرب قلبه عند تذكره اضطراب اللهب تتعاوره الريح .

- ويصور ابن القيسراني رؤوس الأعداء وهي مرفوعة فوق أسنة السيوف بعد أن قطعت من أجسادأصحابها ،كأنهاالثمار فيقول[2]

عَجِبْتُ للصَعْدَةِ السمْرَاءِ مُثْمِرَةً

بِرَأْسِهَا إِن إِثْمَارَ القَنَاعَجَبُ

وهي صورة جديدة مبدعة،فقد صور السيوف أرضا خصبة نبتت فوقها رؤوس الإفرنجة بعد أن قطفها الجنود الشجعان ،ويتعجب من جمال هذه الثمرة التي اتت بعد رويها بالدم.

---

١ الخريدة قسم الشام ج١ ص ٥١١

٢ شعر ابن القيسراني ٧٠

المبحث الرابع

الصنعة البديعية في القصيدة الحماسية

الخصائص الفنية للشعر تتأثر كثيراً بمقاييس العصر الذي نشأت فيه،مثلها مثل طراز الملابس الذي يشيع في فترة من الفترات ،فيغري بالأخذ به خشية الاتهام بالتخلف عن العصر،والمقاييس الأدبية التي كانت في شعر هذه الفترة كان من أبرزها الاتجاه إلى البديع،أو الصناعة اللفظية،تشهد بذلك المجموعة الشعرية الضخمة التي احتواها كتاب (الخريدة) لشعراء القرنين الخامس والسادس،والتي تقوم على مدى احتفال شعراء هذا العصر بالزخرف اللفظي،بل إن الاحتفال بالبديع والصنعة اللفظية ،قد تجاوز حدود الشعر والنثر الفني إلى لغة المؤلفات كما هو واضح في كتاب التاريخ الذي ألفه العماد الأصفهاني وأسماه(الفيح القدسي في الفتح القدسي)،حيث يلتزم المؤلف في مادته التاريخية السجع في جميع صفحات الكتاب([1])،ولذلك اهتم الشعراء في ذلك العصر بالبديع ،واختلفوا في هذا الاهتمام من شاعر لآخر،فمنهم من مال إلى السهولة والانسجام والوضوح ،واتى البديع في شعره عفوياً،غير متكلف ،مثل :ابن أسعد الموصلي وأسامة بن منقذ وطلائع بن زريك،ومنهم من أولع به لدرجة المغالاة والتكلف مثل :ابن منير الطرابلسي ،والعماد الأصفهاني ،ومنهم من أتى البديع في شعره على تفاوت ،فكان مطبوعاً تارة ومتصنعا تارة أخرى مثل :ابن القيسراني .

(وقد عرف الخطيب القزويني البديع فقال :هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام ،بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة)[2]

ومعناه أن وجوه البديع لاتحسن الكلام إلا إذا تطابق الكلام مع مقتضى الحال ،ودل بوضوح على لمعنى المراد ،والبديع يستهدف تحسين الكلام ،وتزيينه بألوان من الجمال اللفظي والمعنوي ([3]) ،والبديع ضربان : لفظي ومعنوي

- اللفظي ويقصد به تحسين الكلام من جانب اللفظ ويسمى المحسنات اللفظية.
- المعنوي ويقصد به تحسين الكلام من جانب المعنى ويسمى المحسنات المعنوية([4])

---

١ صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني /١٩٨/١٩٩

٢ بغية الإيضاح للقزويني ج٤ ص٢ .

٣ الموجز الكافي في علوم البلاغة والعروض /نايف معروف ص ١٢١

٤ العقد البديع في فن البديع /الخوري بولس عواد /ص ٣٥

أولاً:أما المحسنات اللفظية فقد عمد شعراؤنا إليها، ووشحوا بها أشعارهم، ومن أنواع المحسنات اللفظية:

١-(الجناس : الجناس والتجنيس والمجانسة كلها الفاظ مأخوذة من الجنس ،يقال :تجانس الشيئان إذا دخلا تحت جنس واحد ،ويقال كلمتان متجانستان أي :شابهت إحداهماالأخرى ،فكأنه قد وقع بينهما مجانسة ،وحكي عن الخليل :هذا جانس هذا :أي يشاكله ،أما الجناس عند البلاغيين :فهو تشابه بين اللفظتين في النطق ،واختلافهما في المعنى كما في قول الله تعالى (وَيَوْمَ تَقُومُ السَاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ)([1]) فكلمة ساعة الأولى بمعنىالقيامة،وكلمةساعة الثانية بمعنى المدة الزمانية ،وهناتفقت الكلمتان لفظاً،واختلفتا معنى، وينقسم الجناس لنوعين :

- جناس تام وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام (المماثل – المستوفي – جناس التركيب)
- جناس غيرتام وهو مااختلف فيه اللفظان في واحد أو أكثر من الأمور الأربعة المذكورةوهي (نوع الأحرف وعددها وهيآتها وترتيبها وهو على أنواع(المضارع أو اللاحق–الناقص–المحرف– جناس القلب) وقد ألحق البلاغيون بالجناس أمرين هما (جناس الاشتقاق ،ماشابه الاشتقاق)([2])

وأسامة بن منقذ ابن هذا العصر وفارسه وناقده فقد قسم الجناس لثمانية أقسام هي([3]):

- التجنيس المغاير وهو أن تكون الكلمتان اسماًوفعلاً.
- التجنيس المماثل :وهو أن تكون الكلمتان اسمين أوفعلين .
- تجنيس التصحيف :وهو أن تكون النقط فرقاً بين الكلمتين .
- تجنيس التحريف :وهو أن يكون الشكل فرقاص بين الكلمتين .
- تجنيس التصريف :وهو أن تنفرد كل كلمة من الكلمتين عن الأخرى بحرف.
- تجنيس الترجيع :وهو أن ترجع الكلمة بذاتها.
- تجنيس التركيب :وهو أن تكون الكلمةمركبة من كلمتين .

ومن أمثلة التجنيس الوارد في أشعار شعراء لجهاد ما قاله ابن منير بما يثبت ولعه بالبديع ،وتكلفه باستخدامه،ومن ذلك قصيدته في مدح نور الدين :

---

١ الروم الآية ٥٥

٢ علم البديع /دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع /د.بسيوني عبدالفتاح بسيوني /ص ١٤٥-١٦٤ بتصرف

٣ شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين /د.فؤاد حسين ابو الهيجاء ص ٢٥٨

أيا نور دين خبا نوره

ومذ شاع عدلك فيه اتقدْ

رآك الصليب صليب القناةِ

أمين العثار متين العمدْ

ويوم العريمة أقبلتهم

عراماً يُثعلَب منه الأسدْ

حبست مليكهم في الصفادِ

وعفوك عنه أعم الصفدْ([1])

فالتجنيس في الأبيات الثاني والثالث والرابع بين (صليب – وصليب)(العريمة–عرام)(الصفاد–الصفد)أما الطباق ففي البيت الأل بين (خبا–واتقد)([2]).

ولم يتوقف ابن منير عند هذاالحد من الولع بالتجنيس ،فقد لجأإلى التجنيس بالاشتقاق،فكان يشتق من الأسماء الإفرنجية وأسماء البلدان أفعالاً بهدف المجانسة والتجديد في استخدام فنون البديع ومن أمثلة ذلك :

وفي تل باشر باشرتهم

بزحف تسور أسوارها

وإن دالكتهم دلوك فقد

شددت فصدقت أخبارها

فالجناس في الأبيات بين(باشر– باشرتهم)(دالكتهم–دلوك)

ومن الأمثلة على التجنيس بالاشتقاق من الأسماء الإفرنجية قوله :

فَبَرنَسْتَ البرنْسَ لِفَاعَ خَسْفٍ

وَجُرِعَ مُرَ جَوْسِك جَوْسَلين

فالتجنيس بين (برنست– البرنس)(وجوسك–جوسلين).

وله من الجناس المحرف قوله([3]) :

وزلت لعيشك أَقْدامُها

وزَال لبَطْشك إِقْدامُها

---

١ ديوان ابن منير /١٨٨،شعر ابن منير ص ٨٠ ،والصفاد :الوثاق ،والصفد:العطاء

٢ نور الدين في الأدب العربي د.محمود فايز السرطاوي /ص ٢٩٢ .

٣ شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام /د.محمد الهرفي ص٢٠٥

فالجناس بين (أَقدامها – وإقدامها).

وله من الجناس الناقص قوله في نور الدين([1]) :

جزرت جزيرتها بالسيوف

حتى تشاءَمَها شامُها

اما القيسراني ،،الذي لاحظ عليه الأقدمون كثرة التطبيق والجناس فنعتوه ب(كثير التطبيق والجناس)([2]) ، (صاحب التطبيق والجناس)([3]) فله من أمثلة الجناس الكثير ومنها قوله مثالاًعلى الجناس المستوفي :

وفتحٌ حديثٌ في السماع حديثُه

شهيٌ إلى يوم المَعاد مَعادهُ

وله مثال على جناس المضارع قوله :

طغى وبغى عدواًعلى غَلوائِهِ

فأوبقه الكفران عَدْوَاهُ والكفرُ[4]

وله من جناس التصريف ما قاله في مدح نور الدين:

رعت نواميس نواقيسها

بجلبة الآذان وقت الأذانِ([5])

٢-الاقتباس والتضمين :هوأن يأخذالشاعرشيئاًمن القرآن أوالحديث فيورده في شعره،وقد أكثر شعراء العصر منه لاتساع ثقافتهم الدينية ،ولطبيعة الأحداث الكبرى التي كانت في عصرهم ([6]) وكان للاقتباس نواح متعددة منها ما كان من القرآن أو الحديث ومنها ما كان من النحو والعروض ومنه قول ابن القيسراني :

٣-تلك العوامل أي أفعالِ العِدا

ما سَكنت حركَاتُها بجوازمِ ([7])

---

١ شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام /د.محمد الهرفي ص٢٠٥

٢ ذيل تاريخ دمشق/ابن القلانسي /ص٣٢٢.

٣ الخريدة /العماد الأصفهاني/ج١ ص ١١٠.

٤ شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام /د.محمد الهرفي ص٢٠٥

٥ شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين /د.فؤاد أبو الهيجاء ص ٢٦٠ .

٦ الأدب في بلاد الشام /عمر موسى باشاص ٦٢٦

٧ الخريدة /أبو شامة /ج١ ص ١١٤

أما التضمين فهو: أن يتضمن البيت كلمات من بيت آخر ومنه ماقاله العماد في مدح نــور الدين بعد انتصاره في حوران سنة ٥٦٨هــ([1]):

وهزمتم بالرأيِ قبلَ لقائِهم

والرأيُ قبل شجَاعة الشُجعانِ

والشطر الأخير من البيت مأخوذ من بيت المتنبي :

الرأيُ قبل شجاعةِ الفتيانِ

هوَ أولٌ وهي المَحل الثَانيِ

ثانياً:المحسنات المعنوية وهي :

الطباق – التورية – المقابلة – حسن التعليل– الكناية – تأكيد المدح بمــا يشــبه الــذم – تأكيدالذم بما يشبه المدح– أسلوب الحكيم ، ومن أكثر ألوان البديع انتشاراً وشيوعاً فــي شعر الجهاد هو التجنيس والطباق([2]) والتجنيس يحركه رسم اللفظــة ،والطبــاق يحركــه معنى اللفظة ([3])،ومن أمثلة الطباق ما قاله الشاعرابن القيسراني في قصيدة مــدح فيهــا نور الدين ([4]):

وهل أنت إلا السيف في كل حالةٍ

فطوراًلهحد وطوراًله صفحُ

بدولتك الغراء أصـــــبح ضدها

بهيماًولولا الحسن ما عرف القبحُ

سخا بك هذا الدهر جوداًعلى الورى

على أنه ما زال في طـــــبعه شحُ

بكَ انْتَهَج الألبابُ وانْتهج الْحِجى

وأثمـــــرتِ الآدابُ واطَّرد المدحُ

ولاذتْ بك التقْوى وعاذَت بكَ العُلا

ودانَتْ لك الدنْيا وعز بك السَرحُ

---

١ شعرالجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين /د.فؤاد أبو الهيجاءص ٢٦٦

٢ نور الدين في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية /محمود فايز السرطاوي /٢٩١

٣ صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني /٢٠٤

٤ كتاب الروضتين /ابو شامة /ج١ ص ١٨٠

فالطباق في البيت الأول بين (حد–وصفح)،وفي البيت الثاني بين (الحسن–والقبح)،وفي البيت الثالث بين (جود–شح)،وفي البيت الرابع بين (يمحو – ويثبت)،وفي البيت الخامس بين (ابتهج– انتهج)،وفي البيت السادس بين (لاذت –عاذت).([1])

وكذلك قوله في الشهيد عماد الدين زنكي :

سلوا سيوفاً كأغماد السيوف بها

صالوا فماغمدوا نصلاً ولاشهروا

والطباق بين (سلوا السيوف– غمدوا نصلاً)

وكذلك قوله في الشهيد عماد الدين أيضاً:

فياظفراًعمَ البلادَ صلاحُهُ

بمَا كَان قد عمَ البلادَ فسادُهُ

فما مطلقٌ إلا وشدَ وثَاقُهُ

ولاموثقٌ إلا وحـــلَ وثاقُهُ

إِلىَ أيْنَ يأسْرى الضَلالةِ بَعْدهَا

لقدْ ذلَ غاويكمْ وعزَ رشادُهُ

فالطباق كثير في كل بيت ،وهو بين (صلاحه–فساده)،(مطلق – موثق)،(شد وثاقــه–حــل وثاقه)،(ذل–عز).

ومن ألوان الصنعة اللفظية التي أولع بها ابن القيسراني ،ذلك اللون من المفارقات اللفظية الموهمة للتناقض ،وهو صورة مــن الحذلقــة العقليــة كثيراًمانصــادفها فــي شــعرابن القيسراني([2]):

وقد قلدوا السيف في تحصينهم

ولكنه الناصر الخاذلُ

ونرى المهزوم وقد جاء خلف الهازم :

يرمي بفارسه وراء طريدهِ

حتى يُرى المهزومُ وراء الهازمِ

وصورة أخرى من المفارقات يقول :

---

١ نور الدين في الأدب العربي د.محمود فايز السرطاوي /ص ٢٩٤ .

٢ صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني /د.محمود إبراهيم /ص ٢٠٦

وبسطت بالأمـــوال كفاً طالما

طالت بها الدىمال وهي قصارُ

وغدت جيادك بالشآم مقيمةً

ولها بأطـــــراف الدروب مغار ُ(١)

وهذا العماد الاصفهاني يهنئ نور الدين بالعيد فيقول وقد أكثر فيها من الطباق والجناس :

وفي العطـــــــــية حلوٌ

وفي الحمـــــــــــــية مرٌ

وساهراصحين نامـــــوا

وقائمـــــــاًحين قـــــــروا

أصبحت بالغزو صـــــباً

وعنه ما لك صـــــــــــبرُ

لكسر كل يتـــــــــــيمٍ

إسعاف برك جـــــــــــــبرُ(٢)

والطباق في الأبيات بين (حلو – مر)،(ساهراً- ناموا)،(قائماً- قروا)،(كسر – جبر)

وفي ختام البحث يجدر بنا أن نتساءل لماذا كانت الكلفة بالبديع لدى شعراء هذا الزمان؟

-يعود استفحال هذه الظاهرة إلى عوامل عدة ،أدبية فكريـــة واجتماعيـــة ،منهـــا وجـــود دواوين الأدب في الدولة الفاطمية ،والعصر الأيوبي ،الذي كان يتولى رئاسته كبار الأدباء الذين كانوا ينتهجون نهج الصنعة ،أمثال القاضي الفاضل ،(والعمادالاصفهاني الذي كـــان يحتل دور المعلم والراعي للأدباء في مصر)[٣] ،وابن سناء الملك ،وآخرون .

-كما يعود السبب لكثرةالمصنفات في هذا المجال فقدوضع أسامةبن منقذ(البديع في نقـــد الشعر)،ووضع السكاكي كتابه(مفتاح العلوم)،وكتاب (تحريرالتحبير)لابـــن أبـــي الأصـــبع ،وجناس الجنس للصفدي ،وفض الختام في التورية والاستخدام للصـــفدي أيضاً،وكشـــف اللثام عن التورية والاستخدام وخزانة الأدب لابن حجة الحموي ،وأشار ابن الأثير إلى أن كتباًكثيرة قد ألفت في التجنيس،وهذا يدل على العناية الكبيرة بهذه الظاهرة الأدبية (٤)،

---

١ المصدر نفسه ص٢٠٦

٢ ديوان العماد ص ١٧٥-١٧٦

٣ تاريخ النقد الأدبي عند العرب /ص ٥٨١

٤ بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية/د.عبد الجليل عبد المهدي ص٢٩٥

المبحث الخامس

الأوزان والقوافي

أوزان الشعر العربي القديم معروفة ،وقد حددها الخليل بن أحمد الفراهيدي ،(بعد أن رأى جرأة الشعراء ،وإتيانهم بأوزان لم تسمع عنها العرب ،لما رأى الخليل ذلك هاله،فجمع العزيمة – وما أصدق عزيمته – وشحذ الخاطر – وما أرهف خاطره – واعتزل الناس في حجرة له ،وما زال الصبر والذكاء يواتيان الخليل حتى حصر أوزان الشعر العربي وضبط أحوال قافيته ،وأخرج للناس علمي العروض والقافية) والعروض هو وزن الشعر بموازين مؤلفة من ألفاظ قوامها(الفاء–العين–اللام–النون– الميم–السين –والتاء والياء –الواو– الألف)،يجمعها قول القائل (لمعت سيوفنا)([1])وقد حددالخليل أوزان الشعر فجعلها على ستة عشر بحراً،وقد سمي الوزن بحراًلأنه شبيه بالبحر ([2])فهذا يغترف منه ولاتنتهي مادته والبحور هي:(الطويل– المديد –البسيط –الوافر –الكامل – الهزج–الرجز– الرمل – السريع–المنسرح –الخفيف– المضارع–المقتضب– المجتث– المتقارب– المتدارك)([3])، وقد قام أحد الباحثين بتحليل حوالي ستمائة قصيدة ومقطوعة من شعر الأيام في الجاهلية وهو شعر حرب وقتال فوجد ان البحور التي استعملها الشعراء على النحو التالي :الطويل – الوافر –الكامل–البسيط–الرجز–المتقارب –السريع–الخفيف – الرمل –الهزج–،ووجد أن نصيب البحر الطويل منها بلغ حوالي ثلث هذه القصائد،وتلاه الوافر فنظم عليه الشعراء خمس هذه القصائد ([4])

أما القافية فهي الحروف التي تبدأ بمتحرك قبل أول ساكنين في آخر البيت الشعري ،وتكون القافية كلمة واحدة ،وقد تكون بعض كلمة ،وقد تكون كلمتين ([5]).

(وقد استخدم شعراء الجهاد في هذا الزمان معظم الأوزان الشعرية،ولم يقتصروا على بحر بعينه أو بحور معدودة لأن شعر الجهاد قد اتسع لأغراض كثيرة مديح وهجاء ورثاء ووصف ،كما أن اختيارهم للبحر لم يقصد به تعمد ذلك ،وإنما كان من وحي العاطفة والحس الفني الدقيق ،،وقد ثبت أن تحديد بحر بعينه لموضوع لايتعداه جهد ضائع ،لان

---

١ شرح أهدى السبيل إلى علمي الخليل العروض والقافية /محمود مصطفى /ص١٧

٢ العمدة /ابن رشيق /١٣٦/١

٣ شرح أهدى السبيل إلى علمي الخليل العروض والقافية /محمود مصطفى /ص–

٤ شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين /د.فؤاد أبو الهيجا/ص ٢٤٢

٥ العمدة /ابن رشيق /١٥١–١٧٣

موسيقى الوزن ليست إلا جزءاً واحداًمن الشكل ،وأن عناصر كثيرة أخرى تسهم في الإيقاع الموسيقي داخل الابيات ،وهذا ما أحسه شعراء الجهاد تلقائياً فكتبوا في الطويل والبسيط والوافر والمتقارب والمتدارك والكامل ،وغيرها من البحور ،ولم يربطوا بين موضوع وبحر ،لأنهم حشدوا عناصر الشكل جميعاً للتعبير عن مشاعرهم الفياضة في إيراد المعاني الحماسية في شعر الجهاد)([1]).

والملاحظ أن أوزان القصائد التي بين أيدينا لشعراءالفترة الزنكية في شعرهم الحماسي لم تتغير بل حافظت على الطابع القديم حيث القافية الموحدة،التي تدور مع الغرض من البداية للنهاية .

(وقد ظهرت بعض الأوزان الجديدة في شعرهذا الزمان في الموشحات والأزجال والدوبيت أو الرباعيات والمسمطات ،والمخمسات ،ولعل الفن المتصل بموضوعنا من الأوزان الجديدة هو الدوبيت ،والدبيت أو الرباعي هو :فن شعري جديد عرفه العرب في المشرق وانتشر في بلاد الشام ومصر وغيرها ،والكلمة نفسها تدل على (الدو) ومعناها اثنان وهو مؤلف من بيتين اثنين ،وقد سماه العرب الرباعي لأنه يتألف من أربعة مصارع ،وسموا الوحدة منه رباعية ،وأوزانه كثيرة أهمها فعلن متفاعلن فعولن فعلن،ويقسم الدكتور عمر موسى باشا الدوبيت إلى ثلاثة أنواع :أولها وله أربع قوافٍ،والثاني بثلاث ويدعى أعرج ،والثالث بأربع ويسمى مردوفاً،وهي كلها على وزن واحد،وقد انتشر الدوبيت بين الشعراء فألفوا فيه الكتب ،ونظموا عليه الدواوين ،ومنهم الشاغوري الذي نظم ديواناًخاصاً جمع كل ما فيه دوبيت،وأشار ابن أبي أصيبعة إلى ديوان الغزل والتشبيب والموشحات الدوبيتي وما يتصل به)([2]) .

وكان الدوبيت قد ظهر في شعر الجهاد على يد نور الدين حيث طلب من العماد الأصفهاني أن يكتب له ابياتاًمن الدوبيت فكان أشهر ما قاله على لسان نور الدين ماذكره صاحب الروضتين :

للغزو نشاطي وإليه طربي

مالي في العيش غيره من أربِ

---

١ شعر الجهاد في الحروب الصليبية /د.محمد علي الهرفي /ص٢٠٢

٢ شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين /د.فؤاد أبو الهيجا /ص ٢٤٢-٢٤٣

بالجد وبالجهاد نجح الطلب

والراحة مستــودعة في الطلب ِ([1])

وقوله أيضاً على لسان نور الدين :

لاراحة في العيش سوى أن أغزو

سيفي طرباًغلى الطلى يهتزُ

في ذلِ ذوي الكفرِ يكونُ العزُ

والقدرةُ في غيرِ جـــــهادٍ عزُ

وقوله أيضاً:

أذللت ذوي الشركِ بعز العزمِ

والكفرُ يهز صارمي في عزمِ

شيدت بيت الملك بأمري الجزم

والنصر رأيته قرين الحزمِ([2])

وقد علل الدكتوراحمدبدوي في كتابه(الحياة الأدبية في عصر الحروب الصــلبيبية بمصــر والشام) على ظاهرةانتشار الدوبيت على لسان نورالدين فقال :

إنه مما يسوغه ذوق نور الدين ،فهو من أوزان اللغة الفارسية ،وإن استعمال نور الــدين للدوبيت كان بغرض تجدي النشاط ،ودفع النفس إلى خوض غمرات الجهاد ،وهي نشــيطة بل طروبة)([3]) وهو هنا يشير إلى (أهمية الأناشيد من أثر في دفع النفوس وحفزها للعمل فإذا ما كان نشيد الجهاد على لسان البطل نفسه،فإنه سيكون حتماًأوقع في النفس وأقــرب إلى القلب أمام الناس وعلى مسمع من الجنود المحاربين) ([4]) .

---

١ كتاب الروضتين /ابو شامة /ج١ ق٢ ص ٥٢٨

٢ الخريدة ،بداية شعراء الشام ص ٤٣

٣ الحياة الأدبية في عصر الحروب الصلبيبية بمصر والشام ص ٥٣٥-٥٣٦

٤ الأدب في بلاد الشام عصر الزنكيين والأيوبيين والمماليك/د.عمر موسى باشا /ص ٥٣٠

المبحث السادس

النزعة الاتباعية في شعر الحروب الصليبية

أوضح ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء : (إن النهج المألوف للقصيدة العربية بعد أن وضع شعراء الجاهلية أساسها،فبين ان الشاعر يقف على الأطلال فيبكي ويستبكي ،ويصف ما يجد في الدار من آثار ،ثم يخرج من ذلك إلى النسيب ،ثم يصف ما يقطع من المفاوز ،وما ينضي من الركائب ،وما يتجشم من هول الليل وسهره ،وطول النهار وهجيره ،ثم يخرج إلى مدح المقصود،ليوجب عليه حق القصد ويستحق منه المكافأة)([1])

وقد ظل شعراء الجاهلية والشعر كذلك حتى جاء العصر العباسي فخرج بعض الشعراء على نهج وبناء القصيدة العربية ،وذلك لاختلاف الموضوع واختلاف المناسبة ،ولذلك تجرد شعراء الفتوح في عصر الفتوحات الإسلامية من الالتزام ببناء القصيدة ونهج الأقدمين ،فاسقطوا المقدمات الطللية،وقللوا من مقدمات المديح والوصف ،يقول النعمان القاضي :(وكما تخفف شعر الفتح من المقدمة الغزلية ،تخفف بالضرورة من النظام التقليدي للقصيدة الذي ساد في الشعر العربي) ([2])،وعلى الرغم من ذلك التخفف إلا أن شعر الفترة التي نحن بصددها تأثر بنماذج من الشعر القديم ليس بطريقة المعارضة ،وهي أن تتفق القصيدتان في الوزن والقافية والروي ،ولكن بطريقة الاحتذاء أو ما سماه الدكتور محمود إبراهيم في كتابه صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني بالنزعة الاتباعية والتي يعني بها،تأثر أولئك الشعراء بسابقيهم من الأقدمين،في بداية القصيدة أو مبناها العضوي من المعاني والصور والتراكيب ،أو مبناها الشكلي من القوافي والوزن والموسيقى،هذا طبعاً بالإضافة للاتفاق في الإتباع بين جو وظرف القصيدة من ناحية الواقع التاريخي فالقدامى أمثال أبي تمام أو البحتري كانا في زمن حروب الروم مع الخلافة العباسية،أما شعراء ذلك العصر فكانوا في فترة الحروب الصليبية مع الخلافة العباسية والدولة الزنكية التابعة لها ،وبالتالي يصبح البون التاريخي صغيراً بين الفترتين ،والشبه كبيراً بين واقعين.

---

١ الشعر والشعراء /ابن قتيبة /٩٠

٢ شعر الفتوح الإسلامية ص ٢٣٩ بتصرف من كتاب شعر الجهاد في الحروب الصليبية / محمد علي الهرفي /ص٢١٥

وقد تحدث أبو هلال العسكري حول نزعة الإتباع باعتبارها من القضـــايا الطبيعيـــة فـــي الشعر فقال::ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم والصب على قوالب من سبقهم ،ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظاً من عندهم، ويبرزوهـــا في معارض من تأليفهم ويوردوها في حسن تأليفها وجـــودة تركيبهـــا ،وكمـــال حليتهـــا ومعرضها.

وقد أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني بينهم،فليس على أحد فيه عيـــب إلا إذا أخذه بلفظه كله أوأخذه فأفسده وقصر فيه عمن تقدمه)([1])،ويرى أن أقبح الأخذ يكون بأن تعمد إلى المعنى فتتناوله بلفظه كله أو أكثره([2])

وحسن الإتباع يكون بأن يأتي المتكلم إلى معنى قد اخترعه غيره فيتبعه فيه اتباعاً يوجب له استحقاقه ،إما باختصار لفظه ،أو قصر وزنه،أوعذوبـــة نظمـــه،أو ســـهولة ســـبكه،أو إيضاح معناه ،أوتتميم نقصه،أو تحليته بما توجبه الصناعة،أو بغيـــر ذلـــك مـــن وجـــوه الاستحقاقات ([3])

،وعلى ذلك تكون مناقشة مسألة النزعة الاتباعية في ضوء الأسئلة التالية :

- هل كانت الاتباعية مسألة عفوية اقتضها المصادفة فقط ؟أم كانت مسألة مقصودة عمد إليها شعراء ذلك العصر ؟؟؟
- هل كانت النزعة الاتباعية شاملة حوت المعاني والقضايا ،والصور أم أنها كانت جزئية لم تتعد حدود الشكل فقط ؟؟
- ماهي الدوافع وراء هذا الاحتذاء والإتباع الكاملين في شعر هذه الفترة؟ وهل من تأثير لهذه الظاهرة على النواحي الفنية والجمالية على الشعر في هذه الفترة ؟؟؟؟؟

وقد ذكر الدكتور حسن حسين أبو الهيجاء في كتابه (شعر الجهاد الشامي فـــي مواجهـــة الصليبيين)عدة آراء حول ظاهرة النزعة الاتباعية فقال :

اتفق معظم الباحثين على أن الشعر العربي في هذه الفترة كان خالياًمن الجـــدة والتجديـــد ،وأنه صار تقليداً لما سبقه من أشعار،وهذا ماينقله الدكتور أحمد الجنـــدي عنـــد تحقيقـــه لديوان الشاغوري ،وقد أرجع المحقق ذلك لسببين :

---

١ كتاب الصناعتين /١٩٦/١٧٩ وصبح الأعشى ٢/٢٨٨نقلاً عن كتاب نور الدين في الأدب العربي /محمود فايز إبراهيم السرطاوي ص ٢٧٦

٢ كتاب الصناعتين /٢٢٩ نقلاً عن كتاب نور الدين في الأدب العربي /محمود فايز إبراهيم السرطاوي ص ٢٧٦

٣ نهاية الأرب ٧/١٦٦ نقلاً عن كتاب نور الدين في الأدب العربي /محمود فايز إبراهيم السرطاوي ص ٢٧٦

- أولهما :يرجع إلى ولع الشعراء بالمحسنات البديعية من جناس وطباق وتورية واستعارة وتشبيه ،أما السبب الثاني فيرجع إلى أن الملوك والممدوحين من الأمراء والملوك كانوا غير عرب ،مما دفع الشعراء لتبسيط أشعارهم ،والتلاعب بألفاظه لتعجب أولئك الممدوحين([1])
- ويقول الدكتور عمر موسى باشا في مقدمة ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري ،وهو في معرض نقده لقصيدة غزلية من هذا الديوان :

سكب الشاعر في هذه القصيدة الغزلية نبضات جديدة من الغزل الرقيق امتزجي بها روحه فأبعدته عن التقليد الذي عرف في غزل هذا العصر([2])

ويقول الدكتور خليل مردم معلقاً على ظاهرة الإتباع وهو يحقق ديزان ابن الخياط قائلاً :

فقد يتناول المعنى المعاد الذي مله السمع فيعرضه في ثوب جديد،حتى كأنه مبتكر ترتاح له الآذان وتهش له النفس([3])

وهنا يؤكد الدكتور خليل هذه الظاهرة لكنه يخرجها من إطار التقليد الكامل،بل ويعرض لها كأن شعراء العصر مبتكرين في إتباعهم وليسوا مقلدين حرفيين .

وهذا بالضبط ما يتشابه في نفس النتيجة ما ذهب إليه الدكتور زغلول سلام في كتابه (الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي) إذ يقول :

وقد كان هذا الاتجاه التقليدي فضلاً عن ظهوره عند أولئك الشعراء وأشباههم يغلب في الموضوعات الجليلة التي تحتاج إلى القوة في التعبير لملائمة قوة الموضوع،كالفخر ومدح الرسول ﷺ،أو وصف حدث جليل أو مدح ملك عظيم،ويقول أيضاً:إن غير التأثر بالقدماء لم يقتصر على تقليدهم في صياغتهم وأساليبهم بل تعداه إلى التأثر المباشر،أي الاعتماد على صورهم وتشبيهاتهم ،وكثيراً مايحدث هذا في معارضة الشعراء لنماذج قديمة مشهورة،ومن أشهر من عارضهم الشعراء المتنبي والبحتري وأبو تمام (٤)

---

١ مقدمة ديوان الشاغوري تحقيق [أحمد الجندي ص٦-٧).

٢ مقدمة ديوان شرف الأنصاري ص ٣٢

٣ مقدمة ابن الخياط عن كتاب شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين ص ٢١٦

٤ الدكتور زغلول سلام في كتابه (الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي ص ٢٩٩) .

غير أن الدكتور أحمد أحمد بدوي له رأي يستحق الدراسة والاهتمام،إذ يرى أن هؤلاء الشعراء كان لهم سمتهم الخاص ثقافةً ولغةً ،وأن اتباعيتهم لم تكن في العير والنفير ،والخطوة بالخطوة ،بل كانت تبعية تميز وإضافة ،والذي دفعهم لذلك كما يقول ،هو محاولتهم مواكبة تميز السابقين،بل وضع أنفسهم في مرتبة متساوية معهم ،وقد بلغوا من ذلك حظا كبيرا،(١)

ويتساءل الدكتور الباشا ،ليدلل على ماذهب إليه ، لماذا لم يتأثر الشعراء في ذلك العصر بالأدب الفرنجي ؟ يجيب فيقول :

(إن عدم التأثر سببه ،ذلك العداء المستحكم بين المسلمين والصليبين ،والتي لم تكن لتسمح بأي لون من ألوان التقارب في ظل الصراع الطاجن)،ويضاف لذلك وجود هذه الروح الجهادية المتوقدة في الشعور العربي العام ،والتي كانت تأبى في شعور اللاوعي الباطن أن يعترف العرب بفضل للفرنجة عليهم ،يجعلهم يتقبلون الاقتباس الناتج من تأثر أو انبهار ،مثل ذلك الذي يقع في أيامنا رغم كل ما يفعله الغرب إلا أننا نجد من بين جلدتنا من يريد إقناعنا بضرورة الشرب من حياض عدونا حتى لوكان لون دمائنا غالباًعلى لون المياه التي يريدمنا أن نشرب منها،فلم يعترف شعراء هذا الزمان للفرنجة بفضل في علم ولاأدب ،ثم يعقب الدكتور البدوي على نقطة عدم معرفة الملوك أمثال صلاح الدين وآل زنكي بالعربية واضطرار الشعراء لتبسيط المعاني وتقريب الألفاظ فيقول :

(إن الواقع التاريخي يثبت فهم الملوك للغة العربية بعد حفظهم للقرآن الكريم وقراءتهم للعلوم الدينية من حديث وسنة ،إذ كانوا يقرؤون الحديث ويروونه) ،وقد ظهر ذلك من أن نور الدين طلب من العماد أن يرتب له أبياتا على لسانه وسميت بالدوبيتات ،فكيف إذن يقال إن الشعراء اضطروا لتبسيط معاني شعرهم لذلك السبب .

ولذلك يجدر بنا الآن أن نتناول النماذج التي ظهرت فيها هذه النزعة أو ذلك الاتجاه لدى شعراء هذا العصر :

- يقول ابن القيسراني في انتصار مجير الدين صاحب دمشق على الصليبيين عام ٥٢٣ هـ:

---

١ من كتاب الأدب في عصر الحروب الصليبية /ص ٥٦٠ بتصرف

صاب الغمام عليهم والسهام معاً

فما دروا أيُها الهطالة الديمُ [1]

والصورة المضمنة في البيت تصور الأعداء المنهزمين لايفرقون بين حد السلاح يخر في أبدانهم ،وحبات المطر الشديد تضرب أجسامهم.

وهو نفسه المعنى الذي قاله المتنبي في الروم المنهزمين أيام سيف الدولة إذ يقول :

يغشاهم مطر السحاب مفصلاً

بمهندٍ ومثقفٍ وسنانِ [2]

وقول ابن القيسراني في فتح الرها :

هو السيف لايغنيك إلا جلاده

وهل طوق الأملاك إلا نجادهُ [3]

يذكر بيتان أحدهما لأبي تمام وهو :

السيف أصدق إنباءً من الكتب

في حده الحد بين الجد واللعبِ [4]

أما البيت الآخر فهو للمتنبي وهو:

أعلى الممالك ما يبنى على الأسلِ

والطعن عند محبيهن كالقبلِ [5]

ويقول ابن منير يمدح نور الدين بمناسبة فتحه أحد الحصون:

ولو لم تسلم إليك القلو

بُ هواها لما صح إسلامهاَ

وهو نفس المعنى الوارد في قول أبي العتاهية :

ولو لم تطعه بنات القلوب

لما صحح الله أعمالهَا (٦)

---

١ من كتاب الروضتين ج١ ص ١٤١

٢ ديوان المتنبي شرح اليازجي ج٢ ص ٢٥٧

٣ كتاب شعر الجهاد في الحروب الصليبية /محمد الهرفي /ص٢١٨

٤ ديوان ابي تمام ج١ ص ٤٠

٥ ديوان أبو العتاهية ص ٣٧٥

٦ الروضتين ١-١٢٨

وقال أبو شامة في كتابه الروضتين :

إن أبا الفرج عبدا لله بن سعد الموصلي قد قلد المتنبي عندما مدح نور الدين بقصيدته التي مطلعها:

ظبى المواضي وأطراف القنا الذبل

ضوامن لك ماحازوه من نقل([1])

وهنا حاول ابن أسعد أن يسلك مسلك المتنبي في قوله :(غيري بأكثر هذا الناس ينخدع ..... معتذراً لأصحابه عن الهزيمة رغم أنهم منهزمون .

وصورة أخرى من صور الإتباع نجدها عند سعادة الضرير الحمصي في قصيدته في مدح صلاح الدين حيث قال فيها :

تعودت ضرب السيف والطعن بالقنا

وكل امرئ مغرى بما قد تعودا

وقد أخذ هذا المعنى من قول المتنبي في مدح سيف الدولة :

لكل امرئ من دهره ماتعودا

وعادة سيف الدولة الطعن في العدا [2]

وفي صورة أخرى ونموذج لشاعر آخر نجد العماد الأصفهاني يقول :

وكأن بين النقع لمع حديدها

نار تألق من خلال دخان([3])

وهي نفسها الصورة التي عند بشار بن برد إذ يقول:

كأن منار النقع فوق رؤوسهم

وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه[4]

على أن هنالك مظهراً من مظاهر التقليد عند شعراء ذلك العصر قد تعدى الاتباعية والاحتذاء إلى المعارضة التي تعني، أن تتفق القصيدتان في الوزن والقافية والروي ،ومن أشهر القصائد التي عارضها الشعراء في هذا العصر قصيدة أبي تمام المشهورة :

---

١ الروضتين /ابو شامة ج١- ص ١٢٨

٢ المصدر نفسه ص ١٢٨

٣ ديوان العماد ص ٤١٢ .

٤ ديوان بشار بن برد ج ١ص٢٣٥

السيف أصدق إنباءً من الكتب

في حده الحد بين الجد واللعبِ[1]

فقد عارضها ابن القيسراني في بائيته التي مطلعها :

هذي العزائم لاماتدعي القضب

وذي المكارم لاما قالت الكتبُ [2]

وعارضها العماد ببائيته فقال :

بالجد أدركت ما أدركت لااللعب

كم راحة جنيت من دوحة التعبِ

وعارض طلائع بن رزيك في قصيدته التي مطلعها :

ألا هكذا في الله تمضي العزائم

وتنضى لدى الحرب السيوف الصوارمُ [3]

المتنبي في قصيدته :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

وتأتي على قدر الكرام المكارمُ[4]

ويبرز هنا سؤال :هل تأثرت الجودة الفنية لشعراء هذا العصر بالاتباعيـــة أو المعارضـــات أو التأثر بالأقدمين ؟؟

نستعرض ماذج من شعر شعراء العصر لتبرز لنا الإجابة بشكل عملي :

يقول القيسراني وقدرأى رأس البرنس على الرمح :

عجبت للصعدة السمراء مثمرةً

بِرَأْسِهِ إِن إِثْمَارَ الْقنَا عَجَبُ

---

١ الكامل ١٤٥/١١ والروضتين ١٥٢/١نقلاًمن كتاب نور الدين في الأدب العربي ص٢٨٢

١ اديوان ابن رزيك ١٣٥ نقلاًمن كتاب نور الدين في الأدب العربي ص٢٨٢

١ ديوان المتنبي ٩٤/٤

ويقول في أسر جوسلين واصفاًخيل نور الدين :

فمن بعد ما أورتها حَوْمةُ الْوغىَ

وَأصْدرْتَها والْبِيضُ مِن علق حمرُ

وجللتها نقعاً أَضَاعَ شِياتِـــــــــــــــهَا

فَلاَ شَهبها شُهُبٌ وَلاشُقْرُهَا شُقْرُ (١)

إلى هذا الحد غيرت المعركة من معالم وصفات الخيل ،فتحولت من اللون الأبيض ،والأشــقر والأشهب ،رجعت بعد المعركة حمراء اللون من كثرة الدماء والقتلى في صفوف العدو .

وقال العماد وقد صور مقتل البرنس في صورة بديعة :

قمصت قمصهم رداءً من ردى

وقرنت رأس برنسهم بسنان(٢)

وأبدع المهذب عندما رسم لنا الصورة ذاتها ،وأضاف إليها اللون الأزرق وهو لــون عيــون الصليبي ،يقول :

قَتل البرنس ومن عساه أعانه

لَمَا عَتَا في البَغْــيِ وَالْعُدْوانِ

وأرى البرية حين عاد برأسه

مر الجنى يبدو على المرانِ

وتعجبوا من زرقةٍ في طرفه

وكأن فوق الرمح نصل ثاني(٣)

والإبداع في الصور السابقة ينفي ما يقال من ذوبان شخصية الشاعر فــي ســابقه أو النقــل الكامل والتقليد المطلق دون وجود لشخص أو روح القائل فابن القيسراني رسم صورة بديعة لتغير خيول النصر قبل وبعد المعركة مزج فيه بين الألوان في لوحة فنية رائعة تضــعه فــي مصاف الشعراء السابقين في كثير من مثل هذه المواضع ،وهكذا العماد ،والمهذب بين الزبير أبدعا في تصوير قتل البرنس ،كل من زاوية وكل من جهة ،وهكذا يصنع هؤلاء الشعراء من شعرهم إبداعاً يحقق تعريف ابن رشيق للإبداع عندما يقول :

---

١ الروضتين ١٨٦/١نقلاًمن كتاب نور الدين في الأدب العربي ص٢٨٣

٢ ديوان العماد ٤١١ والخريدة قسم الشام ٥٥/١نقلاًمن كتاب نور الدين في الأدب العربي ص٢٨٢

٣ (الخريدة قسم الشام ٢١٣/٢نقلاًمن كتاب نور الدين في الأدب العربي ص٢٨٤

والإبداع هو إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف ،والذي لم تجر العادة بمثله [1]
وبالتالي يصبح النقل أو ظاهرة الاتباعية لدى شعراء هذا العصر،ظاهرة موجودة لكنها لم تؤثر على الجودة في التصوير،أو الكمية من العطاء ،أو الوجود القوي لشخصية الشاعر في مضمون شعره وخالص معانيه ،بل هو الإبداع كما سبق بيانه.

.....

١ العمدة ٢/٢٣٥نقلاًمن كتاب نور الدين في الأدب العربي ص٢٨٣

الخاتمة

والآن وبعد هذه الدراسة حول شعر الحماسة في عصر الدولة الزنكية،أثبت بحول الله وقوته النتائج التي توصلت إليها خلال هذه الدراسة وهي كما يلي :

١- أن شعر هذه الفترة كان قوياً،معبراً- عاش قضية مجتمعه،وتجاوب معها ،فدفع القادة للتحرك نحو العدو ،وهاجم المتقاعسين ،وأثبت بما لايدع مجالاً للشك أهمية مساهمة الأدب وأهله في مشروعات نهضة الأمم .

٢- أن أغراض الشعر لم تكن كماكانت في السابق غزل فمدح ثم وصف ،لكنها أضافت لمعالم الشعر نوعاًآخروهو شعر الجهاد،وطورت غرض الحماسة وأضافت له أبعاداًأخرى أكثر أهمية وارتباطاًبالقضايا الآنية التي يعيشها المجتمع.

٣- أن الاتجاه للمدح بغرض التكسب ونيل الرضا،لم يكن في حسبان شعراء ذلك الزمان،ربما لانشغال القادة بالحروب عن متابعة مايقوله هذاالشاعرأو ذاك،أو ربما لضخامة الأحداث التي كانت آنذاك من حروب،بالإضافة لأن أبطال وقادة هذا الزمان كانوا من الجدية بمكان بحيث يدفع شاعرهم لمدحهم لا للتكسب وإنما لإبراز مآثرهم ومناقبهم .

٤- تأثر الشعر في هذه الفترة بالنزعة الدينية التي كانت سمة العصر آنذاك،فكثر الاستشهاد بالقرآن الكريم ،وتذكر أمجاد المسلمين الأوائل في مواجهاتهم مع أعدائهم،فذكرت الغزوات مثل بدر وحنين ، وذكر شهر رمضان والصوم ،كماذكرت فضائل الأخلاق .

٥- تجاوب قادة الجهاد مع الشعراء ،ولم يكونوا بمعزل عنهم- رغم مشاغلهم – فسافر الشعراء للأمراء،وامتلأت دمشق بالأدباءإبان فترة نور الدين ،مما يؤكد العلاقة القوية بين الأدب والحياة عموماً.

٦- حققت الدولة الزنكية أفضل الإنجازات بدءاً من استرداد عماد الدين زنكي لإمارة الرها عام ٥٣٩هـ، ثم ولاية نور الدين محمودعام ٥٤١هـ، ومشروعه الوحدوي الرائد ،ومشروعه المتكامل لبناء لنهضة لعام موحد متماسك يهدف لتحريربيت المقدس،حتى أنه أمر الأختريني بعمل منبر له يخطب فيه عند تحرير بيت المقدس، كل هذا ما كان له أن يكون لولا وجود أجهزة إعلام تؤازر الفكرة وتعزز انتشارها ،والإعلام في هذه

الفترة كان هو الشعر وآثاره بدءاً من التحاق ابن منير بعماد الدين وأتبعه ابن القيسراني ثم العماد الذي صاحب نور الدين .

٧- أن قادة وملوك هذا الزمان ماكانوا – كما قيل عنهم- غير مهتمين بالشعر ،ولاذواقين له،فعماد الدين طلب ابن منير ثم التحق بهابن القيسراني ،وظل يجذب إليه بعد أن صار بطلاً تتوق إليه النفوس ،ولما تولى ابنه نور الدين كانت له مع الشعراء صلة قوية صاحب بعضهم كالعماد _لكأنه شاعره المفضل – ،وطلب منه تصنيف الدوبيتات،كما اكرم نور الدين الشعراء ،إذ لم يكن صحيحاً أنه كان بخيلاًعنهم ،وهكذا كان تذوق هؤلاءالقادة للشعر ،وهكذا كان موقفهم من الشعر،أما تركيتهم التي تأثرت بها ألسنتهم فلم تكن معوقة عن هذا الموقف البتة.

توصيات الباحث

كما أرجو من الباحثين من بعدي ما يلي:

١- إعطاءهذه الفترة ماتستحقه من الاهتمام بالدراسة من نواحيها الثقافية عموماً،والأدبية خصوصاً،وذلك لاستغلال الظرف المتشابه في الواقع التاريخي بين هذه الفترة والتي تعيشها أمتنا الآن ،فما أشبه الليلة بالبارحة .

٢- دراسة الإنتاج النثري لكتاب هذه الفترة فكم قرأت من رسائل صلاح الدين ،ونور الدين ،والملك الصالح طلائع بي رزيك ،مما يستحق الدراسة في رسالة منفصلة تدرس هذا الجانب دراسة متأنية ،تميط اللثام عن كنوز أقلام هذا الزمان،وتدفع الشبهة القائلة بضعف الإنتاج الأدبي بسبب أعجمية الحكام .

٣- دراسة الميول الأدبية لدى قواد الفتح الإسلامي آنذاك ،عماد الدين ونورالدين وصلاح الدين ،ليتبين لنا المعلم الشمولي للقيادة المسلمة،فليس معنى القيادة المسلمة الجادة ،أنها المنصرفة عن الدنيا فلامتعةَ بجمال نص أدبي ،ولاأنسَ بمقطع شعري ،وقد وجدت وأنا أقرأ سيرة هؤلاء أن نور الدين كان يلعب (الصولجة)أو ما يطلق عليه في أيامنا (البولو) ،ولما عوتب قال :نحن نأخذ من اللعب تسلية لما بعده.

٤- ثمة قضية أخرى ،أرجو التطرق إليها وهي:

الأثر الديني في أدب الدولة الزنكية ،وذلك لأن الدين وقضاياه ،هما اللذان صبغا الانتاج الأدبي خلال تلك الفترة ،وجعلاالشعراء والكتاب يتجهون نحوه بقوة ،ولست أرى أن السبب الوحيد في ذلك هو الحروب الصليبية فقط ،إنما – وللإنصاف – أرى أنها روح عامة سرت ،وصحوة شاملة انتشرت بقدر الله ،وتلك سنة الله في الكون ،وعند دراسة هذا الموضوع ستتبين لنا العلاقة بين الأدب والالتزام ،وتلك قضية أعتقد أنها جديرة بالبحث .

وفي ختام البحث ،أرجو أن يكون الهدف منه قد تحقق ،وأضفت للمكتبة الأدبية إنتاجاً مفيداً نافعاً،تبرز من خلاله بعض المعالم حول أدب فترة زاهية من صفحات تاريخنا العريق ،كانت محط آمال الأمة وهي تناوش الغزاة الطامعين بالسيف والقلم ،وأثبتت بما لايدع مجالا للشك أن الأمة إذا توافر لها الأدباء الجادون والمجاهدون الصادقون فإنها منتصرة لامحالة.

كما أثبتت هذه الفترة أن الكلمة من أي نوع كانت ،ستظل السلاح الأكثر فاعلية في حث الشعوب على تبوء مكانتها بين الأمم الناهضة ،وتحقيق الأهداف المنشودة ،فتصبح الأمة في عافية من دينها ،ومكنة في دنياها،فيهابها عدوها،ويقدرها صديقها .

وإني لأرجو أن ينفع الله بهذه الدراسة كل قارئ لها ،وأن يتقبلها في موازين الحسنات ،إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،،،،

تم بحمد الله تعالى يوم العاشر من أبريل عام ٢٠١٠م الموافق ٢٥ من ربيع الثاني عام ١٤٣١هجرية في تمام الساعة السابعةبعد صلاة الفجر ،ولله الحمد والمنة ،ومنه التوفيق،وعليه القبول،يارب تجعله عملاً صالحاً متقبلاً ينتفع به المسلمون ،،،،آمين

الفهارس العامة

فهرس الآيات القرآنية

الآيـــة رقم الصفحة

١- الآية (الذينَ إِن مكَناهم فيِ الْأَرضِ أقامُواْ الصَلاة وآتُوا الزكَاةَ
،وأمَرواْ بِالمعْروفِ ونَهَوْا عن المُنْكَر) سورة الحج الآية ٤١..... ٩٩

٢- الآية (وَلْتَكُن مِنْكُم أُمَةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ويَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ
،وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ،وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) آل عمران آية ١٠٤ ..... ٩٩

٣- الآية (وَأَنْذِرْهُمْ يومَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ
،وهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لايُؤْمنُونَ)مريم آية ٢٩..... ١٠٠

٤- الآية (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ،
وَغِيضَ الْمَاءُ ،وَقُضِيَ الْأَمْرُ ،وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِي
،وَقِيلَ بُعْداًلِلْقَوْمِ الظَالِمِينَ) هود الآية ٤٤ ..... ١٠٠

٥- الآية (إِنَا نَخَافُ مِن رَبنَا يَوْماًعَبُوساًقَمْطَرِيراً) الانسان الآية ١٠..... ١٠٠

٦- الآية ((فَصَبَ عَلَيْهِمْ رَبُكَ سَوْطَ عَذَابٍ) الفجر الآية ١٣ ..... ١٠٠

٧- الآية ((وَاعْتَصِمُواْ بِاللهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ ،فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَصِير) الحج ٧٨ ١٠٠

فهرس الأحاديث النبوية

نص الحديث .....رقم الصفحة

١- يقول الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – :

(من لايشكر الناس لايشكر الله)

سنن الترمذي /صحيح. ١١

٢- قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم _:(نصرت بالرعب مسيرة سنة)

صحيح البخاري ٩٧

٣- عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه- قال :بينما نحن جلوس عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم- إذ طلع علينا رجل ،،،،،،،

وذكر الحديث قال :فأخبرني عن الإيمان ؟قال

:أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ،وتؤمن بالقدر خيره وشره

قال:صدقت،قال فأخبرني عن الإحسان ،،،،،،إلى آخر الحديث)

رواه الإمام مسلم ٩٩

فهرس الأعلام والشعراء

الاسم.....الصفحة

١- الأبيوردي..... ١٤

٢- ابن القيسراني ١٦

٣- ابن منير الطرابلسي..... ١٧

٤- طلائع بن رزيك..... ١٩

٥- آق سنقر البرسقي..... ٢٥

٦- عماد الدين زنكي..... ٢٦

٧- نور الدين زنكي..... ٢٧

٨- سبط الجوزي..... ٤١

٩- ابن قسيم الحموي..... ٥٢

١٠- العماد الأصفهاني..... ٦٥

١١- ابن الخياط..... ٦٧

١٢- ابن الساعاتي..... ٦٨

١٣- أسامة بن منقذ ١٠٣

١٤- العرقلة الكلبي..... ٧٣

١٥- مجد العامري ١٥

مراجع البحث

المصادر والمراجع:

١)الاتجاهات الفنية في الشعر العربي غبان الحروب الصليبية /د.مسعد عيد العطوي /دار التوبة /الرياض /ط١/١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

٢) الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ،د.جودت الركابي ،دار الفكر المعاصر،دمشق،الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

٣)الأدب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك د.عمر موسى باشا،دارالفكرالمعاصر ،بيروت-لبنان ،ط ١ ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

٤) الأشباه والنظائر في النحو /جلال الدين السيوطي/القاهرة ؟

٥)اساس البلاغة /أبو القاسم الزمخشري /الهيئة العربية للكتاب /١٩٨٥م/ط٣.

٦)الاعتبار، أسامة بن منقذ، تحقيق فيليب حتّي، مطبعة جامعة برنستون،١٩٣٠.

٧)بيت المقدس في شعر الحروب الصّليبية ،د. عبد الجليل عبد المهدي، دار البشير، عمان ١٩٨.

٨) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكيّة بالموصل، عز الدين ابن الأثير ،تحقيق عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة ومكتبة المثنى، القاهرة وبغداد،١٩٦٣.

٩) تاريخ الامم والملوك /محمد بن جرير الطبري /دمشق /دار الفكر /١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

١٠)تاريخ دمشق ،ابن القلانسي: أبو يعلى حمزة بن أسد ، تحقيق د.سهيل زكار ،دار حسّان ،دمشق،١٩٨٣.

١١)تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ،د.محمد سهيل طقوش ،دار النفائس،بيروت لبنان ،ط١ ١٤١٩-١٩٩٩م.

١٢) تاريخ الادب العربي /بروكلمان /تعريب د.عبد الحليم نصار /ط٥ /١٩٨٣م.

١٣) تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ،قدري طوقان،الطبعةالثالثة ،القاهرة :دارالقلم ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م .

١٤) جمهرة الإسلام ذات النّثر والنّظام، مسلم بن محمود الشّيزريّ، ميكروفلم رقــم٩٢٢٣ أدب، دار الكتب المصريّة، القاهرة.

١٥) الجهاد والتجديد في القرن السادس/محمد حامد الناصر /مكتبة الكوثر/الرياض /١٩٩٨م.

١٦) الحركة الصليبيّة، د.سعيد عبد الفتاح عاشور، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،ط٢، ١٩٧٦.

١٧)الحــروب الصــليبية وأثرهــا علــى الشــعر العربــي /د.محمــدعلي الهرفــي /النــادي الأدبي/الرياض/١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

١٨)الحياةالعلمية في العهد الزنكي ،دإبراهيم المزيني،الطبعة الأولى ،١٤٢٤هـ،٢٠٠٣م .

١٩)الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ،د.أحمد أحمد بدوي،دار نهضة مصر ،الطبعة الثانية .

٢٠)الدولة الفاطمية العبيدية /د.محمد علي الصلابي /دارالبيارق /عمان /الأردن /ط١ /١٩٩٩م.

٢١) خريدة القصر وجريدة أهل العصر ،العماد الأصفهانيّ:قسم شعراء الشام تحقيق د. شكري فيصل، المجمع العلميّ العربيّ،دمشق، .١٩٥٥.

٢٢) خريدة القصر....، قسم شعراء العراق، تحقيق محمد بهجت الأثري، المجمع العلمي ّالعراقيّ،١٩٦٤.

٢٣) دروس وتأملات في الحروب الصليبية /أبو فارس /دار صهيلة /الأردن/عمان /ط١/١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

٢٤)دور نور الدين في نهضة الأمةومقاومة غزو الفرنجة /عبدالقادر أحمد أبو صيني،رسالة دكتوراة /معهد التاريخ العربي والتراث العلمي /ص١٩٣.

٢٥) دولة السلاجقة /د.محمدعلي الصلابي /دارالتوزيع والنشر لإسلامية /ط٦/٢٠٠٠م/القاهرة

٢٦) ديوان أسامة بن منقذ، تحقيق د. أحمد أحمد بدوي، عالم الكتب،القاهرة، د.ت.

٢٧) ديوان ابن الخيّاط الدمشقي ، تحقيق خليل مردم بك ،المجمع العلميّ العربيّ ،دمشق ،١٩٥٨.

٢٨) ديوان ابن الدّهان الحمصيّ ، تحقيق عبد الله الجبوري ،مطبعة دار المعارف ،بغداد ،١٩٦٨

٢٩) ديوان ابن السّاعاتيّ ، تحقيق أنيس المقدسيّ ، المطبعة الأميركانية، بيروت،١٩٣٨.

٣٠) ديوان العرقلة الكلبيّ ، تحقيق أحمد الجندي ، مجمع اللغة العربية ،دمشق، ١٩٧٠.

٣١) ديوان العماد الأصفهانيّ ، جمعه وحققه د. ناظم رشيد، جامعة الموصل،١٩٨٣.

٣٢) ديوان فتيان الشّاغوريّ، تحقيق أحمد الجنديّ ، مجمع اللغة العربية ،دمشق،١٩٧٦.

٣٣) ديوان ابن منير الطرابلسيّ ، جمعه وقدّم له د. عمر التدمريّ ،دار الجليل ومكتبة السائح، بيروت وطرابلس ،.١٩٨٦

٣٤)ديوان الأبيوردي/تحقيق د.عمر الأسعد ط٣ مؤسسة الرسالة –بيروت – ١٩٨٧.

٣٥)ذيل تاريخ دمشق /أبو يعلى القلانسي/تحقيق اميدروز /بيروت /١٩٠٨مز

٣٦) الرّوضتين في أخبار الدّولتين النّوريّة والصلاحيّة، أبو شامة المقدسيّ:
أ ــ الجزء الأول ،تحقيق محمد حلمي ،المؤسسة المصّرية العامّة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ،القاهرة ،١٩٦٢.

ب ــ الكتاب كاملاً، دار الجيل ،بيروت،د.ت.

٣٧) رحلة ابن جبير /أبو الحسن محمد أحمدالكتابي الأندلسي /دار صار /بيروت /ط١/١٩٦٤م .

٣٨)سنن الترمذي (الجامع الصحيح)تأليف محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ،تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر – مطبعة الحلبي –ط١١٣٥٦هـ..

٣٩) الشعر العربي في القرن السادسالهجري /د. شفيق محمد الرقب /دار صفاء للطباعة والنشر /ط١/١٩٩٣م.

٤٠) شعر ابن القيسرانيّ ، جمع وتحقيق ودراسة ،د. عادل جابر، الوكالة العربيّة للنشر والتوزيع، الزرقاء(الأردن)، .١٩٩١

٤١)شعر الجهاد في الحروب الصليبية فيبلاد الشام ،د.محمد علي الهرفي ،الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠ مؤسسةالرسالة .

٤٢)شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين ،دفؤاد حسين أبو الهيجا،الطبعة الأولى١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

٤٣) شعر الصراع مع الفرنجة /د.فيصل صلاح أصلان/دار التوحيد /سوريا /ط١/٢٠٠٥م.

٤٤)شرح كتاب (أهدى السبيل)إلى علمي الخليل العروض والقافية /محمود مصطفى /دار الكتب العلمية /بيروت لبنان /بدون طبعة.

٤٥)شرح المعلقات السبع /أبو عبد الله القزويني /تحقيق محي الدين عبد الحميد /د.ط.

٤٦) العبر في خبر من غبر ، شمس الدّين الذهبي، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد السّيد، دائرة المطبوعات والنشر، الكويت، ١٩٦٠-١٩٦٣.)

٤٧) العقد البديع في فن البديع /الخوري بولس عواد /دار المواسم/بيروت -لبنان /ط٢٠٠٠م.

٤٨) الغزو الصليبي والعالم الإسلامي /د.علي عبدالحليم محمود/دار التوزيع والنشر الإسلامية/د.ط.

٤٩)عماد الدين زنكي،د.عماد الدين خليل،مؤسسة الرسالة ،بيروت لبنان الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.).

٥٠) عماد الدين زنكي ،د.محمدعلي الصلابي،دار الأندلس ،الطبعة الأولى ،١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م .

٥١) عصر الدولة الزنكية ،د.محمد علي الصلابي ،مؤسسة اقرأ،الطبعة الأولى١٤٢٨/٢٠٠٧م.

٥٢) علم البديع /دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع /د.بسيوني عبدالفتاح بسيوني /دار الطباعة والنش /القاهرة /ط١ ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

٥٣) الفيح القَسّيّ في الفتح القُدسيّ ، تحقيق محمد محمود صبح ، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥

٥٤)فن الصراع الإسلامي الصليبي – السياسة الخارجية للدولة النورية ،د.محمد مؤنس أحمد عوض ،عين للدراسات والبحوث ،الطبعة الأولى ١٩٩٨م .

٥٥)الكامل في التّاريخ ، عزّالدين ابن الأثير، دار صادر، بيروت ،١٩٧٩.

٥٦) كيفية كتابةالأبحاث والإعداد للمحاضرات/ د.محي محمد مسعد /ط

٥٧)الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي ،د.راغب السرجاني ،مؤسسة اقرأ ،الطبعة السابعة ابريل ٢٩٩٧م .

٥٨)الموجز الكافي في علوم البلاغة والعروض /نايف معروف /بيروت /دار بيروت المحروسة /لاط ١٤١٣/١٩٩٣م

٥٩)لاطريق غير طريق الجهاد لتحرير المسجد الأقصى،د.مجاهد بن مجد الدين ،الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .

٦٠) لغة الحرب في شعر الحماسة /دراسة دلالية /عبد الرؤوف مطيع النبالي /دار جرير/ط١/١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

٤٤) معجم البلدان، ياقوت الحمويّ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩.

٦١) مفرّج الكروب في أخبار ملوك بني أيّوب، جمال الدين محمد بن واصل، تحقيق جمال الدين الشيال، دار إحياء التراث القديم، القاهرة،١٩٥٣.

٦٢)مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين زمن عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود ،د.عبد الله سعيد الغامدي ١٤١٤هـ .

٦٣) النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة ،ابن تغري بردي، دار الكتب المصريّة، القاهرة، ١٩٣٥ـ١٩٣٦.

٦٤)نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية ،عمر السايس،دارالمنار،١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٦٥) نور الدين زنكي في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية ،د.محمود فايز إبراهيم السرطاوي ،دار البشير ،عمان ،الأردن ،الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

٦٦)نور الدين محمود الرجل والتجربة ،د.عماد الدين خليل،دار القلم –دمشق بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

٦٧) نور الدين محمود زنكي ،شخصيته وعصره . د.محمدعلي الصلابي،دار الأندلس ،الطبعة الأولى ،١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م .

٦٨)نفح الطيب /تحقيق محي الدينعبد الحميد ،المكتبة التجارية القاهرة،الطبعة الأولى،الجزء الرابع ص٢٦.

٦٩)هكذا ظهر جيل صلاح الدين ،وهكذا عادت القدس ،د.ماجدعرسان ،دار القلم ،الإمارات العربية الطبعةالثالثة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تقديـــــم	٦
خطة البحث.....	٩
التمهيد.....	١٣
الفصل الأول : المؤثرات التي أثرت في شعر الحماسة عصر الدولة الزنكية ٢٢- ٤٦	
المبحث الأول:الواقع السياسي.....	٢٣
المبحث الثاني:الواقع الاجتماعي	٣١
المبحث الثالث:الواقع العسكري:.....	٣٥
المبحث الرابع:الواقع الثقافي والعلمي:.....	٣٨
المبحث الخامس:الواقع الاقتصادي.....	٤٢
المبحث السادس:الواقع الديني والمذهبي.....	٤٥
الفصل الثاني : قضايا المضمون في شعر الحماسة في عصر الدولة الزنكية ٤٩- ١٠٣	
المبحث الأول :الدعوة للجهاد.....	٥٠
المبحث الثاني : التحذير من الخطر الصليبي.....	٦٦
المبحث الثالث :الأخذ باسباب القوة والوحدة والدعوة إليها...	٦٩
المبحث الرابع : الاستعانة بالحرب النفسية في المواجهة بالكلمة....	٧٥
المبحث الخامس : استشراف المستقبل والانتقال من انتصار للمطالبة بآخر	٨٢
المبحث السادس :شخصية البطل في شعر الحماسة.....	٨٧
المبحث السابع :الأثر الديني في القصيدة الحماسية	٩٥
الفصل الثالث :تأثيرات شعر الحماسة على نتائج المعارك خلال الفترة الزنكية ١٠٤-١٢٢	
المبحث الأول : تأثير شعرالحماسة على أداء الجيوش ضد الأعداء ...	١٠٥
المبحث الثاني :تأثيرات شعر الحماسة على القادة.....	١١١
المبحث الثالث:تأثيرات شعر الحماسة على أحداث ونتائج المعارك.....	١١٥

الفصل الرابع : الخصائص الفنية لشعر الحماسة في عصر الدولة الزنكية ١٢٣-١٦٨
المبحث الأول :بنية القصيدة..... ١٢٤
المبحث الثاني :اللغة والأسلوب. ١٣٢
المبحث الثالث : التخييل والصور..... ١٤٣
المبحث الرابع :الصنعة البديعية..... ١٤٩
المبحث الخامس: الأوزان والقوافي..... ١٥٦
المبحث السادس:النزعة الاتباعية..... ١٥٩

الخاتمة والتوصيات :..... ١٦٨
فهرس الآيات القرآنية :..... ١٧٢
فهرس الأحاديث النبوية :..... ١٧٣
فهرس الأعلام والشعراء:..... ١٧٤
فهرس المراجع والكتب:..... ١٧٥
فهرس الموضوعات:..... ١٧٨